kitabweb-2013.forumsmaroc.com

مولاي الطيب العلوي

تاريخ المغرب السياسي في العهد الفرنسي

من مذكرات الأستاذ مولاي الطيب العلوي
أحد مؤسسي الكتلة الوطنية
ورائد الحركة الوطنية بالأطلس المتوسط

1896 ــــ 1964

إعداد ومراجعة: د. أحمد العلوي



منشورات زاوية

تاريخ المغرب السياسي
في العهد الفرنسي

من مذكرات الأستاذ مولاي الطيب العلوي
أحد مؤسسي الكتلة الوطنية
ورائد الحركة الوطنية بالأطلس المتوسط
1896 ــ 1964

مولاي الطيب العلوي

تاريخ المغرب السياسي في العهد الفرنسي

من مذكرات الأستاذ مولاي الطيب العلوي
أحد مؤسسي الكتلة الوطنية
ورائد الحركة الوطنية بالأطلس المتوسط
1896 ــ 1964

إعداد ومراجعة
أحمد العلوي

منشورات زاوية

الكتاب : **تاريخ المغرب السياسي في العهد الفرنسي**
من مذكرات الأستاذ مولاي الطيب العلوي
أحد مؤسسي الكتلة الوطنية ورائد الحركة
الوطنية بالأطلس المتوسط 1896-1964
المؤلف : مولاي الطيب العلوي
إعداد ومراجعة : د. أحمد العلوي
لوحة الغلاف : الفنّان فؤاد شردودي
الطبعة الأولى : 2009
رقم الإيداع القانوني: 2009/2077
ردمك : 978-9954-438-52-1
السحب : مطبعة القرويين - الدار البيضاء
نشر : زاوية للفن والثقافة
50، شارع عمر بن الخطاب، الشقة 1- أكدال - الرباط
هاتف/فاكس : 05.37.77.19.15 - 06.64.58.82.76
ب. إلكتروني : zaouia06_arts@hotmail.com

الحمد لله   وصلى الله على سيدنا محمد وآله

إليك أيها القارئ لونا من التاريخ لا كالتواريخ التي عهدتها ولا كالأخبار التي ألفتها وإنما هو صورة من حياة شعب متجسم في حياة فرد عاشر شعبه ومارس أحوال العصر ما استطاع من عمل وانتفع من شعبه بما وصل إليه ونفع شعبه بما توصل به ونضج التفاعل الذي هو طبيعي بين الفرد والجماعة فكان من تفاعلهما ذلك الصراع العظيم بين الحق والباطل وبين الظلم والانتصاف وبين الحرية والعبودية وبين الخائنين والمخلصين....

واعلم أن أصله قد أخذه مني الفرنسيون يوم اعتقالي سنة 1953 بعد تفتيشهم لمنازلي ومدارسي فأمليته من حفظي بالمعنى لا بالحرف سنة 1958. ولذا تجد خلل بعض فصوله الواقعة قبل الاستقلال تذييلات أو استطرادات وقعت أيام الاستقلال. قصدت بجمعه على هذا الشكل خدمة الشعب الذي كان منسيا عند المؤرخين ودرس أحواله وعوائده ومواطنه وما له من مزايا وما اعتراه من ضعف ومرض عقلي..... وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين «لم يمهله الأجل لإكمال هذا التاريخ إذ توفي سنة 1964 بعد أن كتب جزءا منه هو هذا الذي ننقله هنا ـ أحمد العلوي».

حياة كل فرد حلقة من حلقات الإنسانية فلو وفق كل احد إلى أن يكتب حياته لاتصلت حلقات التاريخ ولأضاءت إرجاء الماضي في كل المعمور ولانتفع البشر بتجارب بعضهم ولأصبح الناس على هدى من أمرهم... وإذا كتب عن نفسه فلابد أن يجلب من عايشهم وعاشرهم سواء كانوا جماعات أم فرادى شعبا أم حكومة فإذا كتب عن حياته فكأنه كتب عما حوله بما فيه من سياسة وحروب واقتصاد وعلوم وعمران وحضارة وولاؤه مرتبط بالجميع. ولهذا لم أرض أن أجعل أحدا محورا لهذا الكتاب إلا نفسي ولا أدري ما حملني على ذلك. إن كانت أنانيتي فنعما هي وإن كانت الصدفة أو كثرة من كتبوا عن السياسة والحرب مع إغفالهم لحياة الشعوب وعدم اعتبارهم لوجود الشعوب إلا من حيث كونهم رعايا لفلان أو فلتان وإسقاطهم من حساب التاريخ، إن كان ذلك فنعما هو أيضا. وعلى كل حال فمحور هذا الكتاب هو حياتي وانأ واحد من الشعب المغربي.

سوف ترى في ما أكتب صورة أكبر للشعب في ما مضى من جميع نواحي الحياة ولست مرتبا ذلك كما قد يسبق إلى الذهن بل سأتبع سني حياتي وأتعرض لما عرض لي فيها حسب ترتيب حياتي أنا لا حسب ترتيب الوقائع. ولكنى إذا أخذت موضوعا بحسب الاستطراد فسأكتب فيه كتابة من لا يخاف ولا يخشى أن يقول للأسود أسود وللأبيض أبيض. واني سوف لا أترك مما رأيت أو سمعت قليلا أو كثيرا حتى أحقق لمن بعدى مرآة للشعب المغربي غير مقعرة ولا محدبة تنظر فيها إلى حقائق الأشياء كما هي ولا آلو جهدا في طلب الحقيقة والواقع لأني أريد أن أنشئ قولا ينظر بواسطته إلى ظلمات الماضي ليستكشف فيها ما عساه تنطمس آثاره أو تدرس دياره. ولست بالذي يسرد الحوادث ويمر بها مرا خفيفا بل لابد لي من ذكر عللها وظروفها وأسبابها حسب معرفتي وما بلغ إليه جهدي....

الميلاد واليتم

ولدت سنة 1900 موافق 20 رمضان 1318.. «في هذه المذكرات وفي ما كتبه عن الانقلاب الحفيظي وتطورات حياته بين فاس وزرهون أدلة على تقدم ميلاده عن سنة 1900 بحوالي عشر سنوات ـ أحمد العلوي» ولم ينشب أبي أن توفي وأنا ابن ستة أشهر وكان مولدي بمكناسة الزيتون بقصبة تولال...تزوجت أمي بعد انقضاء عدتها رجلا على شرط أن يرحل بنا إلى أرضنا الأصلية مدغرة. وفعلا رحلنا وأبت المقادير أن تذهب بنا حيث أردنا بل سار الركب الذي كنا فيه إلى خنيفرة المركز العام للجيوش الأطلسية العزيزية. حططنا فيها عصا التسيار .... كبرنا في حجرها أنا وأخي الذي هو أكبر مني فلم تسلمنا يوما لخدمة بل قدمتنا للكتاب لنتعلم وكان كل رجائها أن نكون فقيهين.

الكتاب

دفعتني إلى معلم مكثت عنده نحو السنة وأنا ابن ستة أعوام فلما تمت السنة جعل يعلمني الحروف وبعض السور القصار من القرآن حتى إذا آن وقت السراح مر بنا أمام ديك عظيم عنده فيأمرنا أن نحييه بالانحناء. وأنا إلى الآن لا أدري ما هو قصد هذا المعلم من انحنائنا للديك هل هو مطلق إظهارنا لطاعته وتنفيذ أوامره أو هل هناك قصد آخر لم نطلع عليه فالرجل مسلم من القبائل التي هي أشد تمسكا بالإسلام في المغرب وهي مصامدة سوس . وحتى لو جوزنا لأنفسنا أن نرميه بالإلحاد وعبادة الحيوان فإن هذا النوع من التأليه لم يكن في المغرب قديما ولا حديثا فالرجل كان تيجاني الطريقة. وحتى الذين كانوا يعبدون الحيوانات فإن الصلة حينئذ كانت منقطعة بيننا وبينهم فلا جرائد ولا إذاعة ولا طيران ولا شيء من وسائل المواصلات.

انهال علي هذا المعلم يوما وأنا في الشارع بضرب على رأسي حتى كدت أفقد حياتي. أتدري بم ضربني؟ ضربني بمفتاح حديد. وإلى اليوم لا أدري لماذا ولم أنس ألم ضربه إياي أبدا. تألمت أمي لذلك كثيرا فنقلتني إلى كتاب آخر بادخسال الثكنة العسكرية التاريخية .... فكنت هناك إلى أن انفصل عنهم الفقيه الذي كان يعلم هناك فنقلنا أنا وأخي إلى حلة رتب بها للتعليم قرب اروكو فنزلنا في مسجد خيمة وكنت ألفت السكنى في الدور فلما شاهدت الخيام هالني سكناها زيادة على فرقة أمي وحنانها فكنت إذا غربت الشمس تأخذني حسرة وغم كأنما انطبقت السماء على الأرض وأنا بينهما أتململ.

رحل الناس يوما على عادتهم فكنت أسير خلف الإظعان وأتذكر أمي وأبكي فالتفتت امرأة جميلة شابة إلي ورثت لحالي وقالت لي: مالك؟ فأجابها أخي : إنه اشتاق إلى أمه فقالت: بالله ابلغوا هذا الصبي إلى امه. ولكن شد ما كان أقسى مما كابدته جواب أخي إذ قال بالبربرية: ارخصاص أي رخيص عليه فزادت هذه الكلمة علي ألما أقسى علي وأمر مما أقاسي.

كانت السنة شديدة ومع ذلك كان هؤلاء الزيانيون لا يفرطون في المسجد ولا في الطلبة بما أمكن لهم. ننتظر وجبة الطعام حتى إذا حضرت كان فيها خبز أشد سوادا من حظي وماء قراح. أعض منه مضغة فألوكها كالدواء ثم اطرحها لأنني لا أقدر على إساغتها فلما اشتد بالناس العوز تفرق الطلبة شذر مذر فرجعنا إلى أمنا لأن القحط عم المغرب هذه السنة 1324 ـ1906 . قحط الناس سنة كاملة فلم يحرثوا.

عام السميذ

قحط المغاربة عام 1323 فلم يمطروا ولم يحرثوا إلا من لهم أرض سقوية

وهي قل غير كاف حتى لأهلها. ولما دخلت سنة 1324 مطروا مطرا منظما منسقا ما رأوا مثله قط ولكنهم لم يجدوا ما يأكلون ولا ما يحرثون فجاع الناس وأكلوا النبات فمنهم من كان يحفر عروق نبات يقال له إيرني فسمي عندهم عام إيرني ومنه من كان يحفر عروق نبات آخر يقال له أكثار فسمي عندهم عام أكثار . وكلا هذين يشبهان البطاطس ولكنهما مران لا يكادان يساغان وإنما هو الجوع قبحه الله يسيغ كل شيء. ومنهم - وهم المحظوظون - من عاش على سميذ كانت إسبانيا تجلبه من أمريكة الجنوبية وتبيعه للمغاربة فسمي عندهم عام السميذة. وهكذا مرت هذه المجاعة بالمغرب فخلفت موت قرابة ربع السكان وأوربا تنظر إلينا بالعين المتشفية والضمائر المرتاحة لأنها تعلم أن ضعفنا وانهيار اقتصادنا وخلاء أرضنا من رجالنا كل ذلك يفسح لها المجال لتأخذنا كما تشاء. ورغم فقدان الحبوب فان اللحم في هذه السنة كان رخيصا وجل أهل البادية قد خرج من هذه السنة سالما بما لديهم من مواش فكانوا يذبحون ويأكلون اللحم واللحم وحده والمواشي تتوالد وتصلح بقدر ما كان يموت من نسمات المغاربة جوعا فإن هذه العروق التي ذكرنا إذا داوم عليها المرء ولم يخللها بلحم أو خبز بر أو شعير تنتفخ أمعاؤه ومعدته وينتفخ جسده ثم ينفش وبعد الانفشاش يموت. في ظروف لا طبيب فيها ولا مساعف ولا مواس ولا محالف والحكومة سفيهة لا يهمها غير جيوبها. ومن مميزات هذه السنة أن بعض عرب جشم بناحية تادلة باعوا أولادهم بنين وبنات وخصوصا لقبيلتي ضايان وبنى مكيلد. الأمر الذي جعل هاتين القبيلتين خليطا من العرب والبربر. وكانوا هناك يسمون هذا العام عام العرب.

والمغرب بحسب ما خصه الله من طيب التربة وكثرة المياه لا يمكن أن تقع فيه هذه المجاعة الشنيعة لو كانت الحكومة رشيدة والشعب رشيدا

إذ كما تكونون يولى عليكم ولا نظلم الحكومة في الحكم فإنها وسلاطينها حاولوا مرارا إدخال إصلاحات اقتصادية وسياسية فكانوا يصطدمون بمعارضة الطرقيين واتباعهم لأنهم كانوا يعللون ذلك للعامة بأنها أساليب غربية تخالف الدين وما قضية الترتيب التي خب فيها وأوضع السيد محمد القادري ببعيدة.

المغرب في أزمته الاقتصادية والسياسية وفرنسة في تجنيها ومحاولتها الاستيلاء عليه

كان المولى عبد العزيز سلطانا على المغرب ورئيس دولته وكان غرا غير مجرب وزاد في غرته حجابة أحمد بن موسى له عن الأشغال السلطانية وعن الاتصال بالشعب. اضطلع هذا الحاجب بالأمر وحده مستبدا عليه وعلى غيره إلى أن مات سنة 1318 فأصبح مولاي عبد العزيز مع المشاكل الاقتصادية والسياسية والحربية وجها لوجه مع عدم كفاءته ويؤازره حكومة ليست في الرشد بأحسن منه بل كان هو على الأقل حسن النية يتقد وطنية كأسلافه ولكن بطانته وحكومته كانتا خائنتين. ما منهما إلا من كان يجر النار لغرضه ويملأ جيوبه ولا عليه أخسر المغرب أم ربح بل قد كان منهم إجراء للأجانب يخدمون ركابهم ويميلون كفتهم بجعل التبعية لهم من جانب المغرب أمرا واقعيا.

قلنا: كان من وزراء هذه الحكومة من كان أجيرا للأجانب ضدا على مصالح بلده. نعم كذلك قد كان فان البلاط قد كان منقسما إلى ثلاثة أقسام قسم منهم ينشر الدعاية للفرنسيس وقسم كان ينشرها للانجليز وثالث كان ينشرها للألمان. وهذا القسم اقل تأثيرا على بلاط السلطان والذي كان يفوز بنصيب الأسد هو القسم المحالف للانجليز لولا ما حصل عام 1904 ـ1322

من الاتفاق بين فرنسة وانجلترا بتسليم كل منهما بما للأخرى من نفوذ في كل من مصر والمغرب ثم تسوية الخلاف من جانب انجلترا بين فرنسة وإسبانيا في السنة نفسها. ولم يبق لفرنسا منافس في المغرب إلا إيطاليا وألمانيا. الأمر الذي صفي في ما بعد بتنازل فرنسة عن مصالحها في ليبيا لإيطاليا مقابل تنازل إيطاليا عن مصالحها في المغرب لفرنسة 1911ـ1328 وبتنازل فرنسة عن 300 كلم مربع من الكونغو لألمانيا مقابل تنازل ألمانيا عن مصالحها لفرنسة بالمغرب بعد تهديد ألمانيا باحتلال أكادير في السنة المتقدمة نفسها.

ولما اطلع مولاي عبد العزيز على اتفاق الإنجليز والفرنسيين والإسبان السري وانه ضد المغرب فرق السفراء إلى جميع دول أوربا يستنهضهم لحماية الحق والذب عن استقلال المغرب. وفي هذه العملية مثل المغرب بل حكومته قول عنترة «شكوى الجريح إلى الذئاب الضرم» فكانت نتيجة ذلك اجتماع مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906ـ1324. ذلك المؤتمر الذي فقد فيه المغرب جزءا أكبر من سيادته وذلك رغم أن هذا المؤتمر انعقد على أساس ثلاثة شروط وهي استقلال المغرب والسلطان وحكومته وعدم تجزئة أو نقل أي قطعة منه إلى غيره وإبقاء الباب مفتوحا أمام تجارة جميع المؤتمرين. فأنت ترى هذه الشروط التي هي أساس المذاكرة قد قيدت المغرب بوجوب فتح أبوابه لتجارة دول أرقى منه صناعة فمن الخاسر؟ ثم إقرارهم لاستقلال المغرب فإنهم قد صاروا بذلك أولياء نعمته الضامنين لاستقلاله ولم يعد المغرب يضمن استقلال نفسه. وأي استقلال هذا؟ إذ من الجائز أن يصفوا حساباتهم فيما بينهم ويسلموا المغرب جميعا ولآخر زائد إذ صار سلبا للجميع، زيادة على ما قيد به المغرب في هذا المؤتمر من انتداب المؤتمر بعض الدول لتدرب بوليسا مغربيا على حراسة الأمن ومن فتح باب التملك للتراب المغربي بالشراء من الأجانب. أما حماية الأفراد في الداخل فإنه أمر تفاحش من هذه

الدول نفسها حتى توقفت الأحكام وخلت الخزائن من الأموال لعدم دفع الضرائب ممن لهم حماية الأجانب فوقف بذلك دولاب الحركة الحكومية وكادت تلفظ النفس الأخير. هذا هو العهد الذي كان الأوربيون يسمونه الأزمة المغربية.

وفرنسة التي كانت تتولى كبر المؤامرات ضد المغرب فإنها منذ انتهت مقاومة الجزائريين لها واستتب قدمها في الجزائر ما برحت تحاول ضم المغرب إلى الجزائر وخصوصا لما أنهت حماية تونس 1881 ففي سنة 1360 ـ 1845 ثارت حرب إيسلي غرب وجدة بين فرنسة والمغرب وكانت الهزيمة على المغرب غير المنظم القوى. وفيها وقع الصلح وحدت الحدود. وقعت اتفاقيات الحدود حسب ما كانت عليه أيام حكم العثمانيين ووقع الصلح كذلك. لقد حكى المؤرخون أن المغاربة ذهبوا إلى هذه الحرب بخيام من حرير «اوتاقات» أخبية ضخمة ملونة كأنهم خرجوا إلى نزهة وكان خصمهم الجنرال بيجو ليس له إلا خويمة قصيرة إذا أراد الدخول إليها انحنى كالراكع ولما جلس للصلح قال لهم وقد نصحهم «قولوا لملككم قلل من الحرير وأكثر من الحديد إن أردتم بقاء دولتكم» والحقيقة أن بيجو هذا لم يرد حينئذ نصيحة المغرب الكبرى وإنما صفعه صفعة ليستيقظ ولكنه ازداد غطيطا في نومه إذ لو أراد لجيشه القليل الذي يبلغ 15000 جندي أن يغنم كل ما بيد جيش محمد بن عبد الرحمن لفعل ولكنه عف لغرض واحد هو لوم الدول العظمى حينئذ. وفي الوقت الذي كان فيه الجيش البرى ينازل جيش المغرب في الشرق كان الأسطول الفرنسي يهاجم الصويرة ويحتلها وينهب أموالها ثم يمر بطنجة ويضربها كذلك بالمدافع وينزل بها خسائر جسيمة. رأت إسبانيا ما حل بالمغرب في إيسلي وعلمت ضعفه فأشهرت عليه الحرب المعروفة بحرب واد راس فانهزم فيها المغرب أيضا وذلك سنة 1376 ـ 1859.

واحتلت تطوان رهينة في خسارة الحرب . وبعد عامين انسحبت منها وبقي أمناؤها يقبضون نصف مدخول المراسي حتى يتموا 20 مليون ريال التي هي خسارة الحرب.

ثبتت الحدود بين فرنسة في الجزائر وبين المغرب في هذه السنة إلى سنة 1318 مدة 58 عاما ثم في هذه السنة حاولت أن تنشئ قطرا بين شمال إفريقية وبين السودان وتسميه الصحراء الكبرى والتاريخ والجغرافية لا تعرفان عن هذا الإقليم إلا أنه تكملة لبلاد شمال إفريقية ولا يعرفان قطرا أبدا يفصل بين شمالي إفريقية والسودان ولكنها اختلقته. لماذا؟ لتلحقه بالجزائر التي تظن أنها ملك لها فقط ومن يومئذ حاولت توسعته على حساب المغرب وتونس فاحتلت توات وعين صالح سنة 1318 ـ1899 ولما احتج المغرب وقام وقعد وبعث السفراء إلى الدول الضامنة لوحدة ترابه اعتذرت فرنسة بأنها لم تحتل توات احتلالا سياسيا وإنما تريد ربط الجزائر بالسودان الغربي لوقوع توات بينهما. وبمثل هذه الاعتذارات يعتذر الأقوياء للضعفاء فأي قانون وضعي أو سماوي يبيح لدولة اختراق أراضي دولة أخرى لتجعلها ممرا إلى أقطار أخرى؟ ولم تقف عند هذا الحد بل في السنة التي تليها حاولت احتلال قصور القنادسة وبشار وقبيلتي ذوى منيع وأولاد جرير في خبر يطول. وأخيرا وقع الاتفاق في باريز على إبقاء ما كان على ما كان من الحدود القديمة. ولكن العسكريين الفرنسيين لم يرقهم ذلك فاحتلوا بشار والقنادسة وتقدموا لاحتلال فيكيك وعين الشعير بدعوى تهدئة القبائل المهددة للحدود وعجز الدولة المغربية عن كفهم وإخضاعهم. والحقيقة أن الفرنسيين كانوا يهربون السلاح إلى هذه القبائل ويحرضونها على التشغيب فيجدون مبررا لتدخلهم والقبائل تغط في جهلها وحماقتها لا تعرف حينئذ ما يضر وما ينفع. ولكنها رغم هذا تمتنع عن الانضمام إلى الجزائر... وفي سنة 1320 ـ 1901 ذهب وفدا

المغرب وفرنسة من الجزائر إلى عين الحدود ليقفوا عليها وهي محتلة فنفذوا فيها اتفاق باريز الذي وقع قبل هذه السنة ويتضمن جعل بشار والقنادسة وما وراءهما جنوبا من أملاك المغرب.

شنقيط أو موريطانيا

ولم يقف العسكريون الفرنسيون عن التحكك في الشرق الجنوبي بل قد تعدوه كذلك إلى الغرب الجنوبي فحاولوا احتلال شنقيط الذي أطلقوا عليه اسم موريطانيا ليلحقوه بالسودان الغربي ويهربوه من المغرب. ولما شعرت حكومة مولاي عبد العزيز بذلك بعثت قوة عسكرية يرئسها مولاي إدريس الفيلالي سنة 1908 ـ 1326 مؤزرا بماء العينين الشهير في تلك النواحي وخصوصا ناحية ادرار واطار وشنقيط وودان. ولما قتل الطبيب موشان بمراكش واحتلت الجنود الفرنسية وجدة وشرق المغرب استدعي مولاي ادريس للرجوع من شنقيط والساقية الحمراء. ولما وقع المغرب في نكبة الحماية اتفق الإسبان والفرنسيون على تقسيم شنقيط فأخذ الإسبان الساحل والفرنسيون الداخل وبعض الساحل.

التحريك الداخلي

لم يقتصر الفرنسيون عن اقتطاع أطراف المغرب في الشرق والجنوب بل أكثروا من التجني والتحكك واختلاق الأسباب واستغلال الضعف المغربي فأوعزوا إلى الطبيب موشان أن يستفز في مراكش عواطف العامة فجعل يرفع علم فرنسة على داره ويسب مولاي عبد العزيز سلطان المغرب فقتلوه وبمقتله وجدت فرنسة مبررا فاحتلت وجدة والشرق المغربي بدعوى المطالبة بدم الطبيب موشان.

هكذا يعامل القوي الضعيف. متى كان من القوانين احتلال وطن لمقتل فرد من أفراد المحتلين؟ ولكن المولى عبد العزيز منح الفرنسيين ترضيات فانسحبوا من وجدة وناحيتها تحت ضغط الدول الخارجية ولكنهم لم يلبثوا هم وإسبانيا أن دبروا مكيدة أخرى ليصلوا إلى مبتغاهم من تنفيذ الاتفاق السري المتقدم فبحثتا عن شيء يضعف نفوذ السلطان فاتفقتا على إثارة ثورة تضطر الحكومة المغربية إلى الخضوع لأمرهما فأثارتا أبا حمارة الجيلالي الزرهوني ودامت ثورته سبع سنين يشغب فيها على المغرب حتى فرغت خزائن المغرب ولم يبق فيها شيء وكاد الدولاب الحكومي يقف فاستسلف المغرب من فرنسة 60 مليون فرنك لتغطية العجز القائم في ميزانيته وجلس كذلك أمناء فرنسة في المراسي يستخلصون الأعشار تقاضيا لدينهم. ولم تكن ثورة أبي حمارة الثورة الوحيدة في هذا العهد بل كانت معها ثورة أبي عمامة في شرق المغرب وثورة الريسوني في الهبط وثورة انفلوس في سوس وهؤلاء كلهم كانوا إجراء للاستعمار ومنهم من كان ينتظر دولة وملكا فاضطر المغرب إلى الاستسلاف من فرنسة فاشترطت عليه جلوس أمنائها إلى جانب أمناء إسبانيا الذين كانوا يجلسون في المراسي لاقتضاء مستفادها فجلسوا وكان بداية التدخل.

واختلقت فرنسة وإسبانيا سببا آخر للتدخل فان شركة أجنبية استؤجرت لبناء ميناء الدار البيضاء وبينما بعض العملة الأجانب يقطعون الصخور إذ حرض عليهم بعض السفهاء فقتلوهم ويعلم الله من حرضهم...؟؟ فجاءت قوات فرنسية واسبانية فاحتلتا الدار البيضاء سنة 1908 ولما قر قرار المحتلين أشارت فرنسة على إسبانيا بتخليها عن الدار البيضاء واحتلالها للعرائش وفعلا احتلت هذه العرائش وبقيتا في الثغرين معا إلى أن عقدت الحماية وتم ما كان مقدورا. وتعدت فرنسة فحاولت احتلال الشاوية

فكانت حروب يشيب لها الولدان شارك فيها جميع المغاربة وأخيرا انتثر شملهم بشراء الضمائر وبقيت الشاوية وحدها في الميدان.

الحالة الداخلية

انحطت في هذا العهد القيم الأخلاقية في الشعب وظهر التواكل في صورته الحقيقية وطرح المسؤولية على الأقدار. الأمر الذي جعل الأفراد والجماعات لا تشعر بأي مسؤولية بسبب الجهل المخيم على النفوس وعدم الاطلاع على ما يجرى عند جيراننا بله ماجريات العالم. والعلة الفعالة في هذه الحالة هي أولا الجهل فالشعب وإن كان يتعلم بعضه فإنه كان يتعلم قشورا وتقليدا يرجع بصاحبه القهقرى مهما حصف عقله واتقد ذكاؤه وزاد الطين بلة والطنبور نغمة ظهور الطرق وانتشارها بين العامة والخاصة فاستغل رؤساء الطرق هذا الجهل والجهل دائما يستغله المستبدون فأخذوا يشيعون أفكار الخمول والانزواء والاشتغال بالولائم والشطح والسماع والأذكار. الأمر الذي يزيد في تخدير الشعب وقتل شعوره حتى أصبح المغرب عبارة عن مجتمع من الدراويش الذين لا يفكرون إلا في الرغيف... ولم يقتصروا على العامة بل تعدوهم إلى أرباب الدولة من وزراء وولاة وقضاة وعلماء فلا تجد أحدا من هؤلاء غير منتسب لشيخ أو طريقة فأقبلوا على التآليف لنشر الدعاية لهم ومدحهم ودعوة الجمهور إلى التمسك بأذيالهم فاستفحل أمرهم حتى أصبحوا يؤثرون على السياسة العامة وصاروا عرقلة في سبيل كل إصلاح يراد إدخاله على الشعب وأرضه بدعوى أن ذلك مخالف للدين وأنه من عمل أعدائه ولم يدروا أنهم أعداء الدين والوطن رقم 1. ولقد رأيت فتوى لبعضهم نشرت في مؤلف عن تاريخ باحماد الوزير يكفر فيها المفتي المولى عبد العزيز لأنه أراد نصب التليفون بين كبريات المدن ونصب السكة

الحديدية كذلك ولأنه يلعب التينيس ويركب الكوتشيات.... أما العلماء فإنك لا تجد من ليس بطرقي لأنه لو بقي حرا الضاق به العيش ولنشرت الدعاية القبيحة حوله فينعزل حتى يموت جوعا فيضطر إلى الالتجاء إلى طريقة ما مرغما وليته يقف عند هذا الحد ولكنه يرغم إذا انخرط في الطريق أن يؤلف في شيخ الطريقة وفي الطريقة. الأمر الذي يكلفه أن يقول ما يخالف الحق ويرتكب الكذب وهو يعلم انه مخطئ كذاب مخالف لضميره ولعلمه ولكنها الضرورة وعموم البلوى وتحكم جهلة المتصوفة في الأمة. ولم يسلم الملوك مما وقع فيه العلماء بل قد اضطروا في كثير من الأحيان إلى مداراة المتصوفة وأبناء المتصلحة ببناء أضرحتهم وزواياهم درءا لشرهم لأنهم كثيرا ما أثاروا العامة على الملوك وكثيرا ما جروا عليهم الهزائم في حروبهم الداخلية بل والخارجية أيضا لأنهم كانوا مأجورين للدول ذات الأغراض في المغرب فكان الملوك يعالجون منهم مرضا عضالا. كانت أعمالهم تنفع الأجانب نفعا مزدوجا فمن جهة كانوا يجهلون الشعب ويبعدون به عن معرفة مرضه وما يجب أن يعالج به ومن جهة أخرى كانوا يعارضون في الإصلاحات التي تقدم الحكومة والشعب في مضمار الحضارة والرقي.

ولما رأى ذوو النفوس الشريرة من الأمراء والقواد نفوذ مشايخ الطرق في أوجه ساروا في ركابهم وأسلسوا لهم القياد فأطلقوا أيديهم في القبائل والمدن وأسبغوا عليهم حلة الرضى. الأمر الذي جعل الشعب لا يئن من مظالمهم فكان المشايخ يجنون ما بيد الشعب بواسطة هؤلاء الإقطاعيين. والحقيقة أن فرنسة وإسبانيا لم تمدا أيديهما إلينا حتى صرنا جيفة قد مر على موتها زمن طويل فتعدت رائحة نتنها حدود البلاد. وهكذا لم يسلمنا الإنجليز الذي كان بمثابة الوكيل لنا حتى علم أن داءنا لا يبرأ إلا بالاستعمار الأجنبي. والحق أن الأربعين سنة التي عانينا فيها ويلات الاستعمار كانت

دروسا مفيدة أنارت العقول وفتحت للفكر آفاقا كبرى وأظن أن ما يمكن لدائنا من الدواء آنئذ هو الحماية ولله في خلقه شؤون.

التعليم

كان التعليم العربي منتشرا في كل مكان ولكن مناهجه كانت جامدة رغم إقبال شبان الشعب عليه فالناس كان فيهم علماء ولكنهم غير مثقفين يجهلون ما يجرى في العالم حولهم ويجهلون طبيعة العالم ووضعه والقراءة والكتابة كانت منتشرة جدا والمدارس القرآنية كانت منبثة في سائر أنحاء القطر بقطع النظر عن المدن فهناك ثلاثة مراكز للعلم والتعليم.

القطر السوسي

جبال الريف والجبالة

ناحية تافيلالت

على أن غير هذه المراكز لم تكن خالية من العلم والتعلم ففي الأطلس المتوسط والكبير وشرق المغرب كانت مدارس تضيئ دياجير الجهل في قمم الجبال . ومثال ذلك مدارس سيدي يحيى ويوسف وسيدي بو يعقوب وسيدي عيسى ونوح وزاوية العياشي وزاوية سيدي سعيد بمرموشة وزاوية الشرفاء اللمرانيين بإفران ووو الخ.

كان الطالب يزاول حفظ القرآن حتى يحفظه استظهارا ثم يأخذ في حفظ المتون مع بعض الشروح المختصرة ثم ينزل إلى ميدان العلم ولكنه لا يصل إلى هذا الطور حتى يجد نفسه وجها لوجه مع تقدم السن ومطالبة عائلته بالعمل. ولا تزال مشكلة القرآن حائلة دون تخرج علماء يحمون حوزة البلاد ويحرسون المعرفة والعلم حتى آل الأمر اليوم إلى تأسيس مدارس

لم تشمل برامجها من القرآن إلا نحو الساعة يوميا فنزلت أرقام حفظ القرآن إلى ما قرب من الصفر بعد أن كان ثلث المغاربة يحفظه فالمدارس العصرية قدمت للناشئة علوما نضجت بها أفكارهم وترقت بها مداركهم ولكنهم لا يفرقون في الكتب بين كلام الله وكلام خلقه. وكم كنا نعجب حين كنا في القرويين نتابع دروسها أيام الطلب. كنا نعجب من عالم له شهائد عالية وهو لا يحفظ القرآن.

والمعاهد الكبرى كالقرويين جمد منهاجها واقتصرت من العلوم على النحو والصرف والفقه والأصول وترك الحديث والتفسير وأصبح من يحاول تدريسهما متعرضا لقتل الملك فقد شاع حتى بين المتعلمين أن التفسير إذا درس يموت الملك. أما التاريخ والأدب والحساب والعلوم التجريبية كل أولئك كانت الدعاية ضدهم من المتصوفة وغيرهم حتى فقدت بالجملة. وبالجملة فالعلوم التي ترفع مستوى العقلية قد فقدت بدعاية قوم يعلم الله أغراضهم منها وكثيرا ما كنا نسمع من بعضهم في ذلك العهد قولهم بالنسبة للتاريخ: علم لا ينفع وجهل لا تضر.

محاولة التحرر

لما استفحل هذا الداء وعلم المولى حسن رحمه الله بالمرض العقلي الذي اعترى أمته بتركها للعلوم الكونية والأدبية حاول أن يحرر أمته من ذلك وان يعالج فيها هذا الداء الوبيل فبعث بعثة إلى أوربة تتكون من 35 طالبا سنة 1891. وفي سنة 1892 بعث 25 شابا إلى جبل طارق ليتعلموا الفنون الحربية. وفي سنة 1893 بعث 85 طالبا كذلك إلى جبل طارق وفي سنة 1894هـ بعث 170 طالبا... وفي سنة 1895 بعث إلى إيطاليا بعثة مؤلفة من 13 تلميذا وإلى فرنسة وبلجيكا 10. وفي سنة 1301 بعث 4 إلى ألمانيا. ولكنهم لما

رجعوا أهملوا بسبب جمود الذين كانوا يقبضون على زمام الأمور وبسبب جمود علماء الدين الذين كانوا يرون أن كل تغيير للنظام الموجود حينئذ يعد كفرا..؟ وبسبب موت السلطان الذي أرسلهم فضاعت جهوده وجهودهم ونسي الغرض من إرسالهم أو تعمد نسيانه على الأصح فبقوا في المغرب عاطلين . وقد أدركت بعضهم يتكفف الناس لبوار علمه. كذلك يقع للعلماء في أرض الجاهلين.

الانقلاب الحفيظي

لما رأى عقلاء المغاربة ما حل بالمغرب من تنقص أطرافه واحتلال مراسيه مشى بعضهم إلى بعض وخصوصا في الجنوب فاتفقوا على تنصيب المولى عبد الحفيظ بن الحسن صنو مولاي عبد العزيز لعلهم ان ينقذوا الموقف وذلك سنة 1326 ـ1907. وفي رأيي أنهم لو حاولوا إزاحة حكومته وأبقوه لكان أسهل لأن خلع مولاي عبد العزيز وتولية مولاي عبد الحفيظ كلفت الشعب حروبا داخلية زادت في ضعف المغرب لاسيما أن الأجانب المحتلين كالمسامير في جنبه. ولكن إذا علمنا السبب سهل تعليل قيام الانقلاب بالحوز. ذلك ان مولاي عبد العزيز كان يمانع في تدخل فرنسة مطلقا وقد عقد معها اتفاقا بعد ترضيات لتنسحب من وجدة والدار البيضاء والإسبان من العرائش. وخوفا من تنفيذه بادرت بالضغط على صنيعتها الجلاوي المدني وأخيه التهامي ليقوموا بهذه الحركة فقاموا بها وعارضوا الشمال لأول مرة. ولكن لما رأى الناس أن الأمر استفحل وافقوا من فاس وغيرها حقنا للدماء وتوفيرا للخسائر فتم الأمر لمولاي عبد الحفيظ وعالج ما أمكن وقبض على أبي حمارة وأعدمه وحاول محاولات الإصلاح ولكن الجلاوي الذي تولى كبر الثورة لابد أن يخلق له مشاكل توقعه وتوقع المغرب في قبضة

أسياده الذين منوه ووعدوه. وكان التهامي كتب إلى المدني كتابا يقول فيه «تعش بمولاي عبد الحفيظ قبل أن يتغذى بك». وفعلا أطلق يد عملائه في أموال القبائل بدون حسيب ولا رقيب حتى مل الشعب ملكهم ثم أردف ذلك بجعل التجنيد إجباريا وجلب لهم أطباء فرنسيين فكان الطبيب إذا أدخل عليه الشاب أول ما يفحص منه دبره. وكان البربر لا يرضون أن تكشف عوراتهم فضلا عن أن تفحص بالأيدي والآلات كالحيوان فخرج أولئك الشبان وأشاعوا ذلك في القبائل زيادة على ما كان الكتاني يبذره من بغضاء لمولاي عبد الحفيظ وللدولة العلوية فثارت قبائل بني مطير والشراردة وغيرهما وكادوا يحتلون فاس. وفي نونبر 1911 وصلت إليه نجدة فرنسية من الدار البيضاء ففضت عنه الحصار. وبعد خمسة أشهر من احتلالها لفاس قبل التوقيع على معاهدة الحماية في 29 مارس 1912. والحق أن هذه الحماية كانت سلما بعد السقوط للصعود إلى سماء الاستقلال إذ لو تعصب عبد الحفيظ ولم يقبل شيئا بعد إسلام الدول للمغرب لبقيت فرنسة واسبانية بالمغرب بدون عقد وفي ذلك بلاء عظيم.

تطور في الحياة وانتقال

سنة 1326 مرت جيوش المولى عبد الحفيظ بخنيفرة فمكناس وقبلها بسنة ارتحلنا إلى مكناس. وفي يوم مرور جيش مولاي عبد الحفيظ واقتباله بمكناس كانت حفلة جمعي للقرآن الكريم على الفقيه الناسك السيد المختار القندوسي.... فطفت على كتاتيبها فلم أجد فيها ما يشابه كتاب تولال فاضطررت إلى الرجوع وحدي إلى تولال لإتمام ما ينقصني فنزلت بدار السيد محمد بن سعيد الذي كان له بابي اتصال حبي فضمني إلى عائلته.... إلى أن بلغت السنة الثانية عشرة فاضطررت إلى تلقي دروس علمية وكان

الزمن أول عهد الناس بالحماية ونظام البلاد مختل فلا مدارس ولا معاهد ولا كليات فكنت أنا ورفاق لي نذهب إلى احد العلماء فندق عليه داره ونلح عليه في إلقاء دروس في النحو أو الفقه أو الحساب فيأخذ في المعاذير والتنصل وذلك خوفا من الفرنسيين الذين أعلنوا الأحكام العرفية منذ أخذوا في احتلال جهات المغرب.... ولما أتممت الخامسة عشرة سافرت إلى وليلي - مولاي ادريس بزرهون فالتحقت بمدرستها السبعية. وفيها أخذت القراءات السبع على مثل سي احمد الدراوي والسيد ادريس بابا البخاري ومولاي محمد العلوي وغيرهم والعربية والفقه عن الأستاذ ابن عبد الله الفاسي ومولاي عبد الواحد الإدريسي في ضريح راشد الأوربي والسيد محمد بن أحمد العلوي القاضي وغيرهم.... واليتم وإن كان قاسيا على اليتامى فإنه في الغالب يكون الرجال ويلقنهم دروسا لا توجد في المدارس ولا في المعاهد ولعل أثر اليتم هو الذي جعلني في أيام الجهاد لا أمل ولا أتراجع ولا أهن لما يصيبني فقد صودرت أموالي أيام الاستعمار أربع مرات ومع ذلك فقد كنت أضاعف جهودي حتى أرجع كل ما ضاع وسيأتي تفصيل ذلك. وكذلك ما كنت انكمش على نفسي وتنكسر شوكتي كلما نفيت أو أبعدت.

أريحية وكرم

كان الطلبة الغرباء في المدارس في جميع أنحاء المغرب محل تقديس وتكريم من الشعب.... وما كان طالب مسافر حينئذ لا يجد من يجود عليه بالرتبة والرتبة في عرف ذلك الزمن هو ضمان أهل بيت لمسافر غداءه وعشاءه يوميا ما دام يدرس...أما العلماء والأساتيذ فقد كانوا يعلمون بدون مرتب معين ولكنهم كانوا أحسن حالا في مستواهم الحيوي من الموظفين

اليوم فإن الشعب كان يغدق عليهم الأرزاق بغير حساب بناء على فكرة التقديس للعلماء التي كانت شائعة... ولأسق هنا مثلا من سكان الخيام من أهل الأطلس وغيرهم فإنهم يبنون خيمة كبيرة يتخذونها مسجدا ويرتبون فيها فقيها وطلبة من أبنائهم وغيرهم ويحبسون عليها أحباسا من مواش وغيرها فإذا رحلوا قوضوها أولا وحملوها قبل خيامهم فإذا نزلوا بنوها قبل أن تبنى خيامهم. وتأنيسا للطلبة الراحلين إليهم يجالسونهم في هذا المسجد ويأتون بأطعمتهم ليشاركوا الطلبة فيها في غداء أو عشاء . وهذا شيء شاهدته بنفسي وخبرته بحواسي حتى صار جزءا مني.

أمضيت في مدرسة مولاي ادريس زرهون نحو الخمس سنوات ثم انتقلت إلى فاس لادرس في جامعها فسكنت مدرسة الشراطين وفيها أتممت دراستي مدة من ثمان سنوات. درست فيها على أعلامها كمولاي عبد السلام العلوي والسيد أحمد بن الجيلالي ومولاي عبد الله الفضيلي والسيد محمد بن العربي العلوي وغيرهم.

خرجت حوالي سنة 1925 والحرب الريفية على قدم وساق وذيول الحرب الكبرى 1914 ـ1918 لم تنته بعد والحروب الداخلية في المغرب مع الجند الفرنسي تثور وتخبو. وقفت يوما من هذه الأيام في الحاجب فوقف إلى جانبي أوربي مستعرب فقلت له «أرأيت هذه السهول الجميلة فيما بين فاس ومكناس وهذا المنظر الجميل من هنا؟» فأجاب « نعم ولكن» ثم سكت فقلت له «ولكن ماذا؟» فتلكأ قليلا ثم قال «إن هذه البلاد كلها سوف تصير نصرانية فلا ترى فيها مسلما إلا عبيدا وخولا» فكانت هذه الكلمة منه كالصاعقة على راسي وأخذني دوار كدت أسقط منه من شدة تأثري بما سمعت ولما رجع إلي رشدي أحسست كان نكتة نكتت في قلبي وما زالت تتسع حتى عمت قلبي من أجل بغض فرنسة بعد ما كنا نسمعه

من أبواق دعايتها من أنها أمة جاءت تمدننا وجاءت لإصلاحنا وترقيتنا. ومن يومئذ أصبحت ولا أبغض لي منها فكان ذلك نذيرا بما تبيته لنا وكان الفضل لذلك الفرنسي الذي صرح لي بذلك التصريح. وإلى الآن لا أدري ما أراد بتصريحه ذاك؟ هل قصد به التشفي أو الافتخار أو الإيقاظ. أما أنا فما فهمت منه حينئذ إلا الإيقاظ فكانت كلمته ابتداء انطلاق في أجواء الوطنية الصافية وأمانيها الصوفية فصرت أعمل على انفراد نحو خمس سنوات قبل تأليف الكتلة الوطنية. وسترى فيما يلي بعض الأعمال والنكبات التي كانت نتيجة لهذه الأعمال وستمر بك مفصلة في ما يلي.

الحرب الريفية

ابتدأت هذه الحرب سنة 1922 مع ابتداء الحرب التركية اليونانية واشتدت وطأتها سنتي 1924 ـ1925 وانتهت سنة 1926. كان الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي قاضيا في بلاده بني ورياغل فلحقته إهانة من بعض موظفي الإسبان المحتلين فرد بالمثل وأخيرا ألقي عليه القبض وثقف بمليلية وذات ليلة هرب ودخل قبيلته ونادى فيهم «النفير النفير» فكانوا أطوع له من بنانه فألف منهم جيشا احتل به ما جاوره من المراكز وخصوصا الحسيمة التي كان الإسبان يسمونها فيلا سان خورخو أي مدينة سان جورج فكانت له منفذا للاتصال بالخارج ومن ثم انتشرت ثورته فعمت الجزء الشمالي المحمي بإسبانيا وخسرت إسبانيا خسارة كبرى وأفرغت جميع مراكزها ولم يبق بيدها إلا تطوان ومليلية. وكادت تفرغ الأولى رغم إعانة أمريكا لها والإنجليز وفرنسة. ولما كادت تلفظ أنفاسها أوعزت أمريكا وانكلترا إلى فرنسة أن تعين إسبانيا وأن تخلق لذلك مبررا والحال أن معاهدة عدم الهجوم بين الطرفين على الآخر كانت قد وقعت بين ابن عبد الكريم وفرنسة.

وصارت فرنسة بذلك تنشر دعاية في الأوساط المغربية تقول فيها أن ابن عبد الكريم صنيعة لها وأنها هي التي تزوده ليطرد الإسبان. وفي آخر سنة 1925 أوعزت فرنسة إلى القبائل التي تجاور حدود ابن عبد الكريم أن تثور وتنضم إليه لتجد مبررا لتنفيذ إشارة أمريكة وانكلترا فثار بنو زروال ومرنيسة وصنهاجة وصارت القبائل تثور إحداها تلو الأخرى وكانت فرنسة تظن أن الثورة ستنحصر في قبائل الحدود ولكنها اندلعت إلى أن قربت من وادي اللبن. وهرب جميع الفرنسيين الساكنين بتازة وهددت فاس وأصبح البرلمان الفرنسي يتشاور في فكرة إفراغ المغرب لأن فرنسة كانت منهوكة القوى أيضا من حرب 1914. هنا عزلوا ليوطى المتسبب في هذه الكارثة واستبدلوا ستيك به فضغط ستيك على .... لتجييش المغاربة وتجنيدهم والخروج بنفسه ليدافع عن ملكه الذي كاد ينهار. وفعلا كتب إلى الآفاق يستنهض همم الشعب لدفاع الثائر وكان الفرنسيون ينفذون ذلك بالقوة ومن امتنع سجنوه جزاء له.

وهنا كنت أجوس خلال خيام البرابر من زايان وبني مجيلد اثبطهم عن الإجابة إلى محاربة إخوانهم الذين يريدون فك المغرب من الاستعمار البغيض فيجيبون بأنهم إذا لم يستجيبوا للفرنسيين فإنهم يسجنونهم فأقول لهم «ويلكم أتخافون السجن ولا تخافون الموت؟ فإن السجين على كل حال في مظنة الحياة والمحارب في مظنة الموت وهل العاقل يفر من السجن ليلتحق بالموت» فإذا سمع القوم هذا الخطاب يصبحون كالنائم الذي أهبت به فاستيقظ ثم جعلوا يمتنعون بعد أن كانوا أطوع للفرنسيين من أتباعهم.

عجب ساسة الفرنسيس من الانقلاب الطارئ على هذه القبائل فطفقوا يبحثون عن سببه وأنا حينئذ بمريرت فلما اطلعوا على أني أنا صاحب تلك الدعوة ما لبثوا أن استصدروا قرارا وزيريا بنفيي من دائرة آزرو. وفي

صبيحة يوم لم أشعر إلا وخليفة رئيس المراقبة ومعه عشرة خيالة مخازنية دقوا
على الباب صباحا وأخرجوني فركبت حصاني وذهبوا بي إلى الحدود وهناك
تركوني ولوعدوا إن رجعت. ولكنني ما لبثت أن رجعت لأحمل أمتعتي إذ
كيف يعقل أن أترك بيتي وبه جميع أمتعتي. وبمجرد وصولي طير القائد إليهم
الإعلام فحضر الشاوش وثمانية عشر مخزنيا خيالة فساقوني إلى السجن فبت
فيه وفي الصباح حملوني إلى الحدود وألقوني من ورائها فسرت إلى خنيفرة
وبت فيها. وفي الصباح بعث إلي مراقبها شوارتج وألقى بي في السجن ليلة.
وفي الصبح أخبرني أنه لا يمكن لمنفي من جيراننا أن يسكن عندنا وطردني
بدوره فذهبت إلى آزرو فمكثت بها نحو خمسة عشر يوما. وفي يوم 16 بعث
إلي مراقبها نيفل فنفاني هو الثالث وأمر برحيلي في ظرف أربع وعشرين ساعة
فالتحقت بمكناس ومكثت بدار أمي نحو ثلاثة أشهر ثم انتقلت إلى الحاجب
فمكثت بها عامين ممنوعا من داري وأرضي وأمتعتي. وعند تمام العامين
تنوسي ذلك فرجعت بعد توسط بعضهم فرجعت إلى مريرت سنة 1926 بعد
تسليم ابن عبد الكريم نفسه. وسبب تسليمه أن القبائل التي انضمت إليه لم
تنضم إليه رغبة في الاستقلال ولا رغبة في التحرر والانعتاق وإنما فرنسة
هي التي أوعزت إلى رؤسائهم كما تقدم بالانضمام إليه لتجد مبررا للتدخل
كما تقدم. ولما التحقوا به الحوا عليه في الهجوم على حظ فرنسة من المغرب
فامتنع لما بينه وبين فرنسة من معاهدة عدم الهجوم.... فالحوا عليه إلحاح من
في قلبه مرض زيادة على ما كانوا يكتبون به للفرنسيين من عورات الجيش
الريفي وما يؤذون به الوطنيين في الداخل بأنهم يكاتبون ابن عبد الكريم.
والدليل أن الفرنسيس لما احتل بلاد هذه القبائل مرة أخرى وسلم ابن عبد
الكريم نفسه أقر أولئك الرؤساء في رئاستهم وعلق على صدورهم أوسمة
جزاء أعمالهم. عند ذلك اتفقت فرنسة مع إسبانيا على التعاون في حرب

الريف لقاء تحويل الحدود بين الحمايتين إلى جهة الشمال وهي تتبع رافد نهر ورغة إلى منابعها. الأمر الذي زاد في ضيق المنطقة الشمالية فأصبح الريف يكابد حربين من دولتين كبيرتين معانتين من أقوى دول العالم فصبر لهم الريفيون نحو عامين اثنين . وفي هذه الأثناء طلب الفرنسيس والإسبان من ابن عبد الكريم عقد اجتماع للتفاوض في شأن إيقاف إطلاق النار فاتفقوا على الاجتماع في وجدة. وفعلا انعقد الاجتماع بوجدة ولم يصلوا إلى اتفاق. وكان هذا الجمع أتاح فرصة للفرنسيين فاشتروا ضمائر بعض أعوان ابن عبد الكريم منهم أزرقان فخانوا. ولما رأى ابن عبد الكريم أن معنويات الريفيين انهارت بتأثير خيانة أولئك الأعوان سلم نفسه للفرنسيين واختار أهون الشرين لأن الإسبان لو ظفروا به لقتلوه فتقبض عليه الفرنسيون ونفوه إلى ريونيون جزيرة في شرق مدغشقر نحو العشرين عاما. وأخيرا أتوا به ليلوحوا به لمحمد بن يوسف لما حمل علم الوطنية فلما وصل إلى مصر هرب من السفينة التي كان بها والتجأ إلى مصر وذلك سنة 1946.

رجعت إلى مريرت سنة 1926 وفي سنة 1927 كانت بداية محاولة تطبيق الظهير البربري فأوعزوا إلى البرابر أن يأتوا إلى مجلس القواد الذين كان لهم الحكم والتنفيذ برجلين عن كل فخذة ليكونوا كالشهود في مجلس الأحكام. وكنت علمت من الأحاديث الرائجة في الأوساط القريبة من الإقامة العامة أنهم يحاولون استصدار ظهير يفصل العائلة البربرية من العائلة الإسلامية . وأرادوا بما فعلوا أن يهيئوا البرابر لقبول ذلك فإذا رأوا أنفسهم رؤساء محاكم استناموا إلى ما يبيتون لهم. وقد كانوا قدموا قبل هذا العمل إجراء إداريا من باب التطهير وذلك أنهم نفوا كل فقيه وكل طالب أجنبي عن القبائل حتى لم يبقوا إلا من ظنوا أنه ميت الشعور.

وأمام عملهم هذا عادت هيف إلى أديانها كما يقول المثل العربي فقلت

لنفسي «إذا لم أقم بمفردي في هذا الأمر بشيء فأي قيمة لحياتي» وفي هذا الوقت كان الفرنسيون في المغرب يقتلون من شاؤوا بدون محاكمة بدعوى تهديد الأمن. ومع ذلك لم يخفني ما يأتون فتوكلت على الله وركبت حصاني على العادة فجعلت أجوس خلال خيام البرابر وحللهم وكنت والحق يقال محل تقدير من كل الأوساط لأني كنت مقدما تيجانيا فكنت اختبئ في هذه الطريقة لعمل شيء مجد ولما لم تنفع تخليت عنها بتاتا وسيمر بك ما لقيت في ذلك بعد إن شاء الله. أجوس خلال حللهم فألقنهم مقاصد الفرنسيس من أولئك الشهود الذين طلبهم المراقبون وانهم إنما يريدون أن يدربوهم على الحكم بالباطل وبغير ما انزل الله . فإذا قالوا «ما العمل؟» اقول لهم «قولوا لهم حسبنا كتاب الله ولنا شرعنا وقضاتنا من قديم الزمان» وفعلا اجتمعت هذه القبائل ليوم موعدها فلما خاطبهم المراقبون «هل أتيتم بالشهداء الذين يجلسون مع الحكام؟» قالوا بصوت واحد «إن لنا شرعا وقضاة فلا نحتاج إليهم» فوجم لها المراقبون وفرقوا الناس ودعوا جواسيسهم فحضروا فقالوا لهم «ماذا ترون في ما وقع؟» فأجابوا «إن الذي فعل هذا هو فلان» يعنونني. تذكر الفرنسيون قضية حرب الريف وصدقوهم دون أي تدقيق في البحث. وفعلا حضر وكيل الدولة من مكناس إلى مراقبة الحمام وطلب لي عامين من السجن وعامين من النفي من هناك فحكم بكل ما طلب فسجنت عامين ولما أتممتهما نفيت إلى مكناس عامين آخرين. كانت بداية السجن آخر سنة 1927 ونهاية النفي آخر سنة 1931.

وبعد وسائط وإلحاحات وبعد تثبيت الظهير وتنفيذه سنة 1930 في 16 ماي منه كان على تلك القبائل اخف من غيرهم إذ تركوا لهم الأحوال الشخصية تجرى حسب الفقه الإسلامي.

رجعت إلى مريرت وأصبحت هناك مفتيها الوحيد.

توحيد الجهود

كان الحاج عبد السلام بنونة التطواني فيما أظن أول من دعا إلى توحيد الجهود سنة 1929 حين كنت في المنفي الثاني لأن المغاربة شعروا بالخطر الذي أحدق بهم فكان كل غيور يعمل ما استطاع بمفرده فسافر بنونة إلى فاس ثم إلى الرباط واجتمعت الآراء على اقتراحه فتألفت الكتلة الوطنية التي كنت أحد أفرادها العاملين وخصوصا لما كان من أفرادها أصدقائي الذين درست معهم كمولاي الصديق العلوي وابن عبد الله والهادي الشرايبي والسيد علال الفاسي وابن ادريس والفيلالي وغيرهم. وفي بعض الزيارات التي زرت فيها الكتلة مع رفاقي بمريرت عينت رئيسا للحركة الوطنية بالأطلس المتوسط فسرت فيها سيرا حسنا يقصه تاريخ الحركة الوطنية إن شاء ولم يجر وعدل. والسبب أني في بعض الاجتماعات اقترحت أن لا تقتصر الحركة والتبشير بها في المدن الكبرى فقط بل إن أريد نجاحها فلابد من أن تتخطى أسوار المدينة إلى البادية فقالوا جميعا «المخاطب داخل في عموم خطابه» فقلت «وكيف لا. إني رهن إشارة المصلحة» فاقترحوا أن أخرج إلى الأطلس المتوسط لهذا الغرض فأسسنا مدرسة وكونا رجالا يحملون الفكرة والأمانة فانبتت نباتا حسنا آتى أكله في ما بعد.

لقد أتذكر أننا كنا ستة أو سبعة أشخاص بفاس نبشر بالفكرة في الأوساط. نهمس بها في الآذان فقط.

مظاهر الحركة والخروج إلى الأطلس المتوسط

كان للحركة مظهران الأول الإصلاح السياسي وهو في محاربة الظلم بأنواعه فرديا كان أم جماعيا إداريا كان أم قانونيا والثاني الإصلاح الديني وهو في محاربة البدع والخرافات.

كان لابد لي وأنا أبو الفكرة أن أنفذها في نفسي ثم أدعو إليها. خرجت وكان شعاري ذلك أنشره في المجامع. هذا بالنسبة للسياسة. أما بالنسبة للبدع والخرافات فقد ارجأته سنة ونيفا حتى أكون حولي جماعة أحارب بها من يناوئني من الطرقيين. ولما تمكنت من غرضي أعلنتها حربا على البدع والخرافات واسلخت من التيجانية نهائيا سنة 1931. وهنا أصبحت بين نارين أنا ورفاقي: نار المستعمرين الذين يتربصون بنا الدوائر ونار حرب الطرقيين الذين يعينون الاستعمار بإشارة أسيادهم. وإن أنس لا أنس مرة أن رئيس المقاطعة حضر لدى القائد الذي كان صهرا لي ونحن في حفلة غداء إذ وجه الخطاب إلي ذلك الرئيس وقال «سمعت أنك انسلخت من طريقة كنت تنشرها وتنكرت لها ولحمالها وقد كنت سبب إدخالهم فيها» فأجبته «إن الحق يجب الرجوع إليه وأقل ما في هذه الطرق هو العبودية للمخلوق وخدمة مصالحة» فأجابني قائلا في ابتسامة تستر حقده «ألم تعلم أن التحرر الروحي مقدمة لطلب التحرر البدني واعتقد أن مثلك في هذه البلاد الجبلية يعد خطرا على رسالة فرنسة في المغرب» فقلت له «إنني فخور ببشارتك هذه وتعظيمك لي هذا التعظيم الكبير وأشكرك على صراحتك».

ومنذ تركت هذه الطريقة ناصبتني العداء جميع أهل الطرق بالأطلس فكان بيتي يظل سوقا عامرة للوافدين. منهم من يفد للمناظرة لعله يردني فإذا اقتنع آذى بكل ما يقدر عليه ولو بالوشاية للفرنسيين ومنهم من يفد لأخذ الحقيقة والبحث عن الأسباب التي جعلتني أتنكر للطرق بعد أن كنت داعية لها فأفيده بالأسباب الدنيوية والادلة الدينية التي صرفتني عنها فأتحداه أن يردها بما هو أقوى منها فلا يستطيع فيذهب مقتنعا. وهذا النوع من الناس قليل لجهل الناس بأصول الدين ومقاصد الشريعة فكابدت في هذا السبيل ما الله عالم به من المضايقات والإذايات فصبرت لها صبرا جميلا. ولا أكون

مبالغا إذا صرحت بأن إذايتهم كانت أشد علي من إذاية الفرنسويين وأنا كنت أعلم أن الفرنسويين هم الذين كانوا يحرضونهم. وإن أنس لا أنس فتوى لبعض غلاة القبوريين ضدي فانه لما بنينا بالاكتتاب السري مسجد مريرت سنة 1934 رشحت لخطبة الجمعة فيه فانف واستنكف القبوريون من الصلاة معي فلجأوا إلى عالمهم محمد بن ..... العلوي الذي كان إمام مسجد خنيفرة تحت حماية امهروق وهو من غلاة التيجانيين فسألوه عن إمامتي أتصح أم لا فأجابهم «إن هذا الرجل يجب أن يقتل» فقالوا «أتبطل الصلاة خلفه» فقال «لا» فقالوا «أتجوز وتصح؟» فلم يجب وقال «أقول لكم اقتلوه فإنه بلية نزلت بكم. يجب القضاء عليها». هكذا كان القبوريون المتعاونون يحاجون الخصوم فإذا لم يجدوا حجة لجأوا إلى القوة كقوة إخوانهم «اقتلوه أو حرقوه» في حق إبراهيم عليه السلام. وماذا ينتظر من رجل كان طلق امرأة فقال له شيخنا ابن العربي العلوي «اعطها شوارها فان الله يقول ﴿وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا﴾ فأجاب «آخذه آخذه آخذه». أتدري من صاحب هذه المقالة التي تحدى فيها رب العالمين؟ هو محمد بن ..... العلوي صاحب الفتوى أعلاه. وهو مع ذلك مقامه في علوم المنقول غير منكور ولكن الطرقية لا تعشش إلا في الذهن المظلم. و قديما قال أهل فاس في أمثالهم العامية «عامي حرامي احسن من فقيه ابهل».

جنازة معنوية

كون الفرنسيون في المناطق البربرية صنائع تعينهم على تنفيذ خطتهم البربرية ومن هؤلاء الصنائع ادريس ورحو المطيري بالحاجب وسعيد بن حدو عقا بآزرو فجعلا يدوران في قبائل البربر ويمنيان الرؤساء ومن لهم أغراض ومن هان عندهم تراث البلاد من القواد الآخرين ويقنعانهم ثم

يخوفانهم مغبة التعصب للإسلام فكونوا شبه استفتاء وأنت تعلم نزاهة استفتاء الفرنسيين أينما كانوا فجمعوا القواد بعضهم تحت الضغط والخوف وبعضهم بالأماني المعسولة في بسيط تحت آزرو في غربه يسمى افراصيد «بالكسر ثم تسكين الفاء فضم الراء وألف الوصل ثم الصاد المشربة بالزاي ثم الياء ثم الدال الساكنة» فحفروا فيه قبرا ودفنوا فيه وقالوا «هذه الشريعة الإسلامية قد دفناها ههنا وليس لكم بعد هذا اليوم إلا شريعة ازرف». وبعد انفضاض هذا المجلس شرع الفرنسيون في تقنين القوانين الجاهلية ليتسنى لهم الحكم المباشر وجعلوا في كل دائرة جماعة يرئسها رئيس منهم وفوق الجميع المراقب أو نائبه. وهذان هما الرئيسان الحقيقيان . ثم شرعوا يضطهدون الفقهاء والطلبة ومن لهم إلمام بالحالة الواقعة فنال الناس منهم ما ضجت منه الجبال وخجلت له الإنسانية ولكن كل ذلك كان وقودا للوطنية.

إلى آزرو سنة 1922

دفعتني الأقدار إلى الكتابة عند الطاغية ادريس ورحو وعانيت من صحبته وصحبة جماعته وكلهم أنذال نحو ثلاثة أشهر وفارقتهم طوعا كما عاشرتهم كرها والتحقت بآزرو كاتبا لدى قائد آخر حي الضمير دينا ووطنية وهو القائد مصطفي وعرارة بآيت يحيى وعلة بالوادي الأخضر الجميل المسمى تكريرة وهو راس نهر بهت يخضر على طول العام وما أجمله وقت الربيع حين تحل فيه حلل اركلاون وآيت واحى فترى فيه منظرا شاعريا يغرى ذا النفس الأريحية والقريحة القيسية فترى فيه خضرة الأرض إلى سواد الخيام إلى بياض قدود الشباب إلى زرقة السماء إلى سواد الجبل المطل عليه بأشجاره الباسقات جبل أبي طاعة. لقد مرت لنا فيه سويعات من آنق وأنضر العمر حين الشباب غض فاجتمع بذلك ربيعان ربيع العمر وربيع الزمن...

قلت ان القائد مصطفي الذي استكتبني كان دينا وطنيا فهو كذلك. كان يعتنق التيجانية عن صدق وإخلاص فلما تبين له الحق اطرح التعلق بها وتعلق بالواحد القهار الذي لا يتغير ولا يبيد وهو عنه راض. لقد كانت حركة السلفية بدأت تنتشر أيام اتصالي به وكنت أعرض عليه ما يقال وما يجاب به من الردود فكنت آنس منه استضعاف ردود اصحابنا التيجانيين وغيرهم من الطرقيين وكنت أقول له «انني كلما وازنت بين ما يطعن به وبين الردود أجد فرقا كبيرا بين الرايين» فيقول لي وهو أمي صرف «كيف يستوي الذي يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم ومن يقول قال سيدى فلان» فكنت استحسن منه ذلك ولكن ما كنت ألح لكي لا يفطن إلى أن لي غرضا في ذلك. ذات يوم بلغه كتاب من ابن شيخه التيجاني ففرح لذلك واهتبل ليجعل له ضيافة كبرى ويهيئ له هدية معتبرة. وبينما هو يأخذ في الاستعداد إذ بعث إليه رئيس الدائرة الكومندان نيفل بازرو وذهبت معه وانتظرته طويلا فلما خرج من عنده ظهر على وجهه اكتئاب ظاهر ما كنت أعهده منه في أحلك الظروف وانتظر مني أن أسأله عن ما ظهر لي منه ولكني تغافلت حتى يفاتحني هو. ذهبنا في الطريق فلقينا أحد مقدمي هذه الطريقة فاستوقفنا ثم سلم وهش وبش واستبشر لزيارة ابن شيخهم فشكره وذهب ولما انصرف قال لي «ما أغبى هؤلاء. إنهم مغرورون» قلت «كيف ذلك وهم دعاة إلى الخير؟» فنظر إلي محملقا وقال «إنهم يدعون إلى الخير فيما يظهر ولكنهم يسعون من حيث لا يشعرون إلى تقييد أفراد الشعب للاستعمار» فقلت «الله اكبر» فقال «ما الباعث لك على هذا التكبير» فأجبته «تصريحك هذا فوالله إني على مثل هذا الاعتقاد قبل الاجتماع بك بنحو العامين ولكني اكتمه عنك حتى تنظر لنفسك النتيجة من مقدمات الحوادث» فقال «قد وصلت إلى النتيجة يقينا» قلت «بماذا؟» قال «ألم تدر موضوع محادثتي مع الكومندان؟» قلت «لا»

قال «لقد فاتحني بأن فلانا سيزوركم وأنه أي الكومندان سيكون مبتهجا إذا قابلناه بما يسره من الضيافة والهدايا واستوصاني به خيرا فقلت للكومندان: ألم تعلم أن من أوصاك بابيك أو أخيك خيرا فقد احتقرك وهذا شيخنا وله نسب شريف ومسلم فكيف توصيني به وما الباعث على إيصائك به خيرا؟ فقال: أصارحك. إنه وإن كان مسلما وذا نسب في الإسلام وابن شيخكم فإننا وإياه عائلة واحدة لا فرق بيننا مطلقا».

قال القائد «فعجبت وأطرقت مشدوها من هذه المفاجأة السيئة ونسيت نفسي حتى فطن لي ونبهني قائلا: ماذا بك؟ احصل بك نوم؟ ولعله ما صرح لي بذلك إلا لظنه أني غبي كجملة القواد في هذه البلاد. ولكنى عند نفسي رغم تنبهي إلى عظمة الكلمة التي قال لي أشعر أني غبي حقيقة إذ لو لم أكن غبيا لتماسكت عند سماعي كلامه ولتشجعت ولم أظهر التأثر أمامه» فقلت له «وماذا عزمت عليه الآن؟» قال «اما ضيافته فقد أنعمنا بها ونحن في عرفنا لا نرضى أن نكون لؤماء بخلاء فمرحبا به كما نرحب بأخيه الكومندان « ثم قهقه وتمايل عن سرجه حتى كاد يسقط من على حصانه من السخرية ثم قلت «وبعد الضيافة فماذا؟» فقال «اسل خيطي من نسيجهم واعبد الله وحدي بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا أزيد عليه شيئا ولا أتعلق بأحد بعده إلى الممات» فوفى بما قال رحمه الله. لقد ترك الطريق ففطن له المستعمرون وناصبوه العداء إلى أن سعوا في عزله ثم لزم بيته وفلاحته وعبادته منزويا عن أولئك الرعاع الأغبياء الذين لم يعلموا سر الأمور ولا ما يحاك للمسلمين والإسلام من وراء هذه الطرق. وأصبح هؤلاء يقولون أن الشيخ انتقم منه بالعزل من القيادة فجعلوا الاستعمار الذي عزله شيخهم. وقد زرته مرارا في عزيبه فوجدته رضي النفس رخي البال مرتاح الضمير

ويقول «لقد أتاح الله لي فراغا لأزور فيه وأزار وأتحرر من جميع القيود وما كنت قط أعبد الله بدون غرض وبدون حرف إلا اليوم.

محمود التيجاني

حكى حاك عدل لا يتطرق إليه الكذب وهو الفقيه القاضي الشريف محمد بن إبراهيم العلوي لما كان متصلا بالقائد علي الجرواني وكان هذا قد انتسب إلى التيجانية فزاره سنة 1927 شيخ الطريقة التيجانية الأكبر وكان إذا زار جهة تهتز له الطائفة أيما اهتزاز. ولما حل لدى مزوره طلب منه أن لا يجالسه احد ولا يواكله أحد وأن ينصب له سرادقا وحده فغضب هذا القائد وقال «كيف يمنعني ضيفي من دعوة أصدقائي؟ ما هذا؟».. ونزولا عند إرادته نصب له سرادقا خاصا ودفع له كل لوازم الضيافة واعتزلوه جانبا. ولكن ذلك حاك في صدره ولم يصبر على احتماله وعده شبه إهانة كأنه احتقرهم ورآهم دونه فلا يستحقون مساجلته ومجالسته ففكر كثيرا واهتم للأمر جدا. وأخيرا اهتدى إلى أن يستطلع عنه ماذا يفعل في خلوته. ولما جن الليل واكل الضيف وشرب دس إليه أحد الالباء لينسل خفية حتى يصل إلى السرادق من الجهة الخلفية. وبعث بعض أصحابه ليشغلوا أصحابه من الجهة الأمامية. ولما وصل الأول إلى الجهة الخلفية فتح أحد الوصاوص من السرادق بخفة ولطافة فلاحظ أن السيد متكئ على أريكة وسيدة تسقيه بنت الدنان وهو غارق في سكره. تناوله الكأس فتنخذل يده وربما سقط الكأس من يده لعربدته. ولما تحقق ذلك رجع وهو يضرب خدوده بأظافره نادبا إياها لهول ما رآى وهو يقول «ألهذا احتفلنا وضيعنا مالنا ووقتنا؟؟» فقال له القائد «ما هالك ويلك؟» فقال «رأيت كيت وكيت - مما تقدم - وأرجو أن تتقدم بنفسك لترى» فقال له «أنت عندي مصدق فما جربت عليك كذبا ولكن

اسكتوا واستروا عليه فهو ضيفنا حتى يرتحل ولا نريد أن يشعر باطلاعنا عليه. وفي المستقبل نمنعه من زيارتنا ونحتفظ له بشرفه وسمعته.. ».

وبعد فلتعلم أن أبناء الزوايا أي جلهم لا كلهم على هذا واخس منه درجوا فكم افتضوا في مواسمهم من بكارة وكم جمعوا من لؤم وفحش وأحسنوا ابتكاره ولم تحاربهم النخبة المتعلمة على الطريقة السلفية حتى عيل صبرهم وخجلت الشريعة والإسلام من سيرتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل ولقد كانت هذه الزوايا منبع العلوم والمعارف ومأوى الأخلاق والعوارف ومدارس للشعب ظلها وارف فطرأت عليها نكسة بعد مرض غالها ولله عاقبة الأمور.

الحرب الريفية

في هذه الحرب كنت انشر بين البربر روح الوطنية وأثبطهم عن حرب الريف التي كان الفرنسيون يحرضونهم عليها ومن اجل ذلك نفيت بعد أن سجنت كما مر. دامت الوطنية متأججة منذ ذلك الوقت فتكونت الكتلة الوطنية ثم اعقبها الحزب الوطني والقومي وفي آخر سنة 1936 وهو شهر أكتوبر ألقي علي القبض وألقي بي في السيلون. وفيها القي القبض على جميع من فيه رائحة الوطنية وأخمدت أنفاسها بعد تأججها وظن الفرنسيون أنهم قضوا على كل حركة ولكنهم أخطأوا في التقدير فإنهم بذلك جلبوا عطف الشعب على الوطنيين فعادوا يؤيدونهم بالمال والدعاية ولم تمض سنتان حتى شبت الحرب العظمى الثانية 1939 في أكتوبر أيضا.

السيلون

دخلت إليه بعد أن جردت من كل شيء ومنعت فيه من الفراش والغطاء مدة سبعة أشهر. ما رأيت فيها شمسا ولا هواء ولا قابلت أحدا فكان وطائي الأرض المجصصة وغطائي الهواء . وما سمح لي بشيء أقلم به أظافري ولا بحلاق يحلق شعري حتى انسدل على كتفي وأصبحت أظافري كأظافر عقاب وكنت أتململ من برد الأرض ليلا ونهارا طول المدة حتى تمثل لي الموت مرارا فلم يقتحم مني إزهاق الروح. ولكني كنت أراه ويراني وحسب. وأقبلت على تلاوة القرآن ليلا ونهارا حتى أزعجت المراقب فأرسل إلي يقول «اسكت من القراءة» فازددت تلاوة وجهرا فجمع تراجمته وأعوانه وقال لهم «ألم أوصكم بتجريده من كل الأوراق والكتب فكيف يقرأ؟» فأخبروه أن من المسلمين من يحفظ القرآن عن ظهر قلب وهذا منهم فلا يحتاج إلى كتاب» فتعجب من ذلك عجبا شديدا. وذات يوم دعاني ليخبرني أن أصحابي يعني الوطنيين قد غربوا في المنافي والمعتقلات وخيرني إلى أن ألتحق ببعضهم وسمى لي جهات فيها زعماء فقلت له «لست سعيدا أن ألحق بهم» فقال «ما يزال رأسك ساخنا» فقلت له «طبعا ما دامت فيه الحياة» ثم قلت له «لم أسجن في هذا البيت المظلم وحدي فلا أخرج إلى حيث يعمل السجناء» فقال «أنت أجرب وأخاف أن تعدي السجناء بجربك» يعني الوطنية وبغض الأجنبي الظالم ثم أردف قائلا «إننا وضعناك في مأوى المردة من الجن» فقلت «لا يجدي ذلك شيئا بعد أن وقع التعارف معهم».

وقد ختمت فيه ستا وعشرين ومائة ختمة. وعند كل ختمة كنت أدعو على الظالمين وأدعو للوطنيين. وذات ليلة رأيت في ما يرى النائم كأن بيدي سيفا مصلتا وأنا أضرب به ذات اليمين وذات الشمال ثم التفت فإذا أعداء

الله كلهم عن يميني وشمالي صرعى مكشوفي العورات. فوالله ما لبثوا بعد خروجي من السجن إلا ثلاثة أشهر فأصبحوا صرعى كما رأيتهم. وأذكر أنه في الليلة التي أخبرني فيها أنهم شتتوا شمل الوطنيين بت أدعو بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر «اللهم ان تهلك هذه العصابة فإنك لن تعبد في المغرب» وبت باشام ليلة ما بتها قط.

والسيلون بيت طوله نحو المترين وعرضه نحو المتر ونصف وفي إحدى زواياه سطل... وقد يتركه الحارس يوما أو يومين معي لا يفرغه حتى يأتيني بما آكل. وقد أترك الأكل عمدا مدة حتى إذا عض الجوع على شرسوفي تناولت الخبز الذي معي فأجده خليطا من التراب والنمل والدود فعجبت من الموتى تأكلهم الديدان وأنا في قبري آكل الديدان فسبحان محول الأحوال.

كان القائد الذي نصب لنا الشبكة يشاركنا سرا في الحركة ويعين بالدراهم ولكنه لما ضغط عليه سيده المراقب قلب لنا ظهر المجن واختلق لنا جنايات لا أساس لها وجلب شهودا مرغمين ولكنهم لما وصلوا إلى المحكمة هربوا. أما شيخ البلد فلم يحضر مطلقا وامتنع من الشهادة فعزلوه من اجل ذلك. وكم حاول المراقب أن نقول له أن القائد كان يشاركنا في أعمال الوطنية لأنه أراد أن يضرب عصفورين بحجر. ضغط على القائد حتى فعل ما فعل وظن أننا حاقدون عليه فنفضحه ولكننا كنا اسمي مما يظن واثبت مما يظن واخلص مما يظن.

وكان وقع معي السيد الجيلالي الهنتيفي ووضع إلى جنبي في سيلون آخر يشبه سيلوني ولكن إخوته حاولوا محاولة واتوا بطبيب من البيضاء فأعطى فيه شهادة بأنه إن بقي هناك مرض ومات. وقد اشترى نفسه بما أرضى المراقب وبقيت وحدي. أما أصحابي الآخرون أهل المكتب فقد نفي

جميعهم وشردوا واخرجوا من ديارهم وأموالهم.

وأما أنا فقد أمروا رعاتي بترك غنمي وبقري تهيم على وجهها حتى فنيت. وبهائمي من خيل وبغال تركت في مرابطها إلى أن ماتت في محلها كأنها أذنبت معي ذنبا لا يغتفر. أما زوجتي فحملوها وابنها إلى مكناس والقوهما في بعض الأزقة ولم يعرفا إلى أين يسيران... وتركوا داري بمريرت مفتوحة فنهب منه أثاثي وفراشي وكان ذلك كثيرا ولما خرجت من السجن خرجت أفقر من ابن المذلق .

الثقافة العربية في البربر في عهد مولاي يوسف

كانوا يتعلمون كلهم ومنهم من كان يعلم حتى بناته... وكنت أعرف بعض الحلل منهم يعدون الذين لا يحفظون القرآن على رؤوس الأصابع حتى أنهم كانوا يعفون الأميين من نوبة البقر عكس ما تفعله الدواوير الأخرى مع طلبتهم. وأذكر سنة مر السلطان مولاي يوسف بهذه البلاد إلى مراكش سنة 1927 ليعرس لأنجاله وكنت حينئذ كاتبا لدى قائد مريرت فضربت الخيام على حافتي الطريق من مكناس إلى آزرو فمريرت فخنيفرة فتادلة فمراكش.

حل السلطان بمريرت وكان برنامجه أن يشرب بها شايا ويستريح قليلا ثم يتابع السير إلى خنيفرة حيث ينتظره الغداء. ولما نزل طافت به القبائل الزايانية شبانا وشيوخا وكلهم يقرأ القرآن ويرددون آياته الحكيمة. ولاحظ الشيخ أبو شعيب الدكالي هذه الظاهرة وكان وزيرا للعدل حينئذ فأومأ إلي فدنوت منه فقال «هل اقتبل صاحبك القائد سيدنا بالطلبة فقط؟ فقلت له «أتظن أن هذا الجمع والجم الغفير طلبة فقط؟ إنهم طلبة واعيان القبيلة في آن واحد» فاستغرب لذلك ونادى بالقائد فعرض عليه الحديث الذي جرى

بيني وبينه فاكد له ما قلته. وفورا قام الأستاذ الشيخ أبو شعيب وهمس في أذن السلطان وكان قاعدا على كرسي فاستبشر وانفتحت أساريره ونزل من الكرسي وجلس على الفراش وأمر بأطعمة الغداء لتقدم وطير الاعلام إلى خنيفرة أن لا ينتظروه بالغداء بل بالعشاء مساء وجعل يأكل ويأمر بتقديم الأطعمة للقبيلة. وارتاح لسماع قراءتهم ومكث هناك إلى أن كانت الشمس على رؤوس النخيل فارتحل ليبيت في خنيفرة....

الفرنسيون وانتزاع الأراضي

كان قائد الناحية أدب مأدبة لحكام الفرنسيس الذين جاؤوا من مكناس فما دونها واختار بحيرة أجدير شرقي خنيفرة محلا لمأدبته.

نزل الأضياف اللؤماء وأكلوا وشربوا ولذوا وطربوا وكنت حاضرا هذه المأدبة فلما انتهوا قام بعضهم ليهضم طعامه بالذهاب والجيئة بين خمائل البحيرة وظلال أشجارها الباسقة فمروا برجال القبيلة يأكلون الشواء الغريض ويشربون المياه الزرقاء تحت ظلال الأشجار جالسين على طنافس من صنع الربيع فالتفت فرنسي إلى رفيقه فقال «ألم تر هؤلاء المتسخين الجهال كيف يتمتعون بهذه المناظر ويأكلون هذا الشواء ويشربون المياه العذبة وأسيادهم بفرنسا لا يجدون ثمن نصف كيلو من البطاطس يطبخونها بالماء؟» فأجابه صاحبه «لا تعجل فما هي مهمتنا هنا؟ فإذا صبرت فسترى هؤلاء خولا لأولئك الأشراف وترى أرض هؤلاء ملكا لهم». سمعت ذلك وتعجبت أشد العجب كيف ذهب اللؤم ونكران الجميل بهؤلاء القوم إلى هذا الحد.... فحييت إلى أن رأيت مصداق جوابه فانتزعت الأراضي من أربابها وسلمت لشذاذ فرنسة وأفقر المغاربة فقدموا عمالا وإجراء لهؤلاء المعمرين ولله في خلقه شؤون....

وبمجرد ما سلم ابن عبد الكريم نفسه أخذ الفرنسيون في تطبيق مشروعين عظيمين يقوضان المغرب ووحدته في آن واحد. احدهما مادي والآخر معنوي فالمعنوي هو تهييئ ظهير 16 ماي 1930 والثاني تهييئ ظهائر تخلى بموجبها أراض فسيحة خصبة من أهلها وبأصح تعبير تنزع منهم ملكيتهم ويبقون فيها خولا للمعمرين الذين يملكون الأراضي بعدهم ويملكونهم معها. أما الأول وهو ظهير 16 ماي فقد أصبحوا يوطؤون له قبل إصداره بثلاث سنوات ويهيؤون أفكار البربر لقبوله إلى أن تمكنوا من ذلك طوعا وكرها وقد تقدم الكلام عن بعضه. وأما الثاني فبمجرد ما استسلم ابن عبد الكريم ظن الفرنسيون أن الجو خلا لهم فلم يبق إلا قسمة الغنائم فأخذوا يستصدرون الظهائر بإقطاع الفرنسيين أراضي الجيش وأراضي الدولة وأراضي القبائل وتتابع ذلك في مدة عامين. أصبح المعمرون على حافتي الطرق الكبرى من وجدة إلى مراكش وقد احتووا على مليون هكتار من خيار وأجود حقول المغرب وضايقوا من جاورهم فأخذوا أراضيهم طوعا وكرها ونزلت بالناس منهم مصائب يضيق عنها التعبير وتفصيلها يعد مبالغة وخيالا وامتحن المغاربة بالمعمرين امتحانا لم يتقدم في التاريخ مثله. ويكفيك مثلا على ذلك أن المعمر هو الشرطي الذي يأتي بمن يتهمه ويقدمه إلى القائد أو المراقب وهو الذي يقدر سجنه ولا يحق للمتهم أن يدافع عن نفسه ولا أن ينيب من يدافع عنه. ومنعت حكومة الحماية في غير المدن دفاع المحامين ليتسع المجال للمعمر والمراقب في غير مسؤولية ولا رقابة ولا دفاع ولا قانون حتى أن محمود عزمي المصري لما زار المغرب سنة 1947 صرح فقال «أمة بدون قانون» فصارت مثلا.

وهكذا ذهبت خيرة أرضنا إلى أيدي المعمرين وكم كتبت ونظمت من الشعر حول هذا الموضوع وكم كتب غيري حينئذ ...... وقد كشف

الغيب أن .... احتاط في إقطاعه تلك الأراضي لهم إذ إن ظهائر هذه الإقطاعات لم تكن مملكة لهم تلك الأراضي وإنما هو تسويغ فقط. ولكنه في إبانه كان شديد الوقع على الشعب جدا لأنه خسر أرضه وأثقل كاهله بضرائب الترتيب بينما خفف عن المعمرين تشجيعا لهم كما سخرت لهم الأيدي العاملة بأبخس الأثمان وكان من هرب من عملهم يأمر المعمر بسجنه إلى أن يرضخ ويقبل الرجوع إلى سيده. في هذا الجحيم عاش الشعب طول مدة 30 سنة.

عاش المغاربة بين نيران أشبها عليهم الاستعمار من كل جهة... والمعمرون من جهة وما لهم من سلطة... والقواد من جهة أخرى يحكمون بمجرد هواهم وبما يرضاه أسيادهم المعمرون والمراقبون. بهذا الكابوس الثلاثي دفع شبان المغرب إلى الهجرة والانخراط في الجيش الفرنسي والإسباني ليذودوا عن كيان المستعمر وليثبتوا قدم الاستعمار على أرض أوطانهم. لم تبق عائلة في البادية لم يتجند شبانها طلبا للرزق وهربا من الظلم الثلاثي ومن لم يقبل في الجندية هبط المدن وأكثر من سواد العملة..

سنة 1947

في هذه السنة كنت مديرا للمدارس الحسنية بفاس ولما كلفني صاحب الجلالة بإدارتها لم أجد في فني الجغرافية والتاريخ للمغرب ما يصلح أن يكون دروسا للتلميذ الابتدائي فألجأتني الحاجة إلى تأليف كتابين مدرسيين أحدهما لجغرافية المغرب وهو يشتمل على كبير وأوسط وصغير للمدرسة والثاني ملخص تاريخ المغرب موضح بالخرائط والوثائق وكلاهما فيه فضح للأعمال الاستعمارية. ولما شكا المديرون والأساتيذ من قلة الكتب

المدرسية جمع صاحب الجلالة مؤتمرا من المديرين والأساتيذ وأمرهم تحت إشراف مندوب المعارف مولاي العربي العلوي أن يوزعوا الفنون ليؤلفوا فيها كتبا مدرسية وعند التوزيع تحاموا كلهم الكتابة في التاريخ والجغرافية لأنهما لابد ماسان بالتاريخ الحاضر وهو صعب في نظرهم لما يترتب عليه من غضب المستعمرين ونظر بعضهم إلى بعض نظر الخائف الوجل فاقترحت أنا أن أؤلف فيهما وأخبرتهم أني قد ألفت فيهما فعلا فاستحسنوا عملي ولما تداولت المدارس الكتابين وانتشرا أسرها الفرنسيون في أنفسهم إلى حوادث 1953 الآتية فاهتبلوا الفرصة وقبضوا علي بدعوى أني حطمت في التاريخ والجغرافية عمل فرنسة في المغرب فكان الجزاء الحكم بعامين سجنا وسيأتي تفصيل ذلك عند ذكر الحوادث.

والمدرسة التي أديرها بلغ المحصلون على الشهادة الابتدائية فيها في ظرف 12 عاما نحو الألف وزيادة ولا تزال في كل سنة حتى الآن يتخرج منها ما بين 25 و40 وكنت خلال عمل المدرسة أكتب في الصحف منتقدا أعمال الاستعمار ومبينا للشعب ما يبيتون بالنسبة للسياسة والاقتصاد والتعليم وحتى بالنسبة للحدود التي اختلسوها والأعمال التي لم يكن الشعب على بينة منها فكتبت في الأطلس والمغرب ومراكش والرأي العام في المغرب وفي البصائر والإصلاح بالجزائر وفي النهضة في تونس كما أن لي خطبا كثيرة في الحفلات التي أقيمها لتفريق جوائز المدرسة وفي أيام الهجرة النبوية..... وسبب موتهما «يعني زوجته وولده منها» أني لما قبض علي سنة 1937 موافق 1356 حمل الجميع رشيد وجمال وأمهما وألقي بهما في مكناس تاركين دارنا مفتوحة فنهب كل ما فيها ونهبت الماشية والأثاث ومن شدة الفزع بفقدي وبترحيلهم إلى حيث لا يدرون انخلع قلب هذه الزوجة فأخذها البهر إلى أن ماتت فأثر مرضها على جمال الدين الرضيع فمات بدوره.

الوطنية

كتبت في ما تقدم تحت هذه الترجمة ما يناسب ذلك التاريخ وهنا أتعرض لبقية الكلام عنها فاقول:

منذ نفيت من مريرت سنة 1937 ـ1356 سكنت مكناسا فتحاماني الأصدقاء والأقارب لأنني عدو الاستعمار ولم يجسر احد على زيارتي ولا مواساتي بل قد كتب إلي بعضهم يستعطفني أن لا أزوره خوفا وهلعا. بقيت كذلك نحوا من شهر ثم حضر إلي بعض من كانوا مرتبطين بالوالدين برباط الصداقة والاحترام من تولال فاقترحوا أن أرحل إلى قريتهم لأخطب في مسجدهم الأعظم وأعلم صبيانهم نهارا وكبارهم ليلا. وقالوا نحن نعلم أن هذا العمل دون قدركم ولكن اشتغل بهذا ريثما يسهل الله عملا وأنت بعد في حل أن تذهب حيث يحلو لك.. فقلت لهم وهل أنتم في أمن من العدو بسبب مخالطتي فأجابوا هذا يهمنا نحن فاتكل على الله وارتحل فاتوا بسيارة وما بت إلا عندهم فأنزلوني في دار وحدي فأصبحت في أكرم مقام بين إخوة خلصاء... ولم تطل الإقامة في تولال إلا ثلاثة أشهر فجاء الفرج الذي سأقصه قريبا.

القائد وحكمه

في أثناء رحيلي وفي اليوم الثاني منه فقط بعث إلي قائد القبيلة بعد أن اجتمع بجماعة تولال ووبخهم على الإتيان بي وحملهم كل مسؤولية تأتي من قبلي فتحملوا بكل ذلك وضمنوه وتلك منة وشجاعة في ذلك الوقت أكبرتها فيهم ولا أزال إلى الآن أذكرها بكل ثناء. ولما حضرت أمام هذا القائد ومعه سيده الفرنسي قال «أنت فلان الذي من نعته وصفته كيت وكيت» فقلت «أنا ذاك» فقال «إنك قد نزلت بأرض لي عليها حكم وأن

ما يحيط بك كله عيون عليك فنرجو أن تنقل عنك هذه العيون ما لا يكلفنا مرة أخرى أدانتك» فقلت «عملي على المكشوف وإنما يسر أعماله من أتى منكرا أو يعمل ما يغضب الرأي العام والضمير الشعبي . أما أنا إلى الآن فلم آت شيئا ينكره الشعب مني بل ينظر الناس إلي بعين الإكبار فقال الفرنسي «ما زال رأسك ساخنا» . قلت «نعم لأنني حي ولو برد لكنت ميتا» فتبسم تبسم المخادع الذي يريد أن يخفي عداوته وراء تلك الابتسامة ولكنني مارست أمثالها فلم تعد تأخذ مني مآخذها وقال «على كل حال فانك أمام مسؤوليتك وقد ضمنك الجماعة» . فانصرفت متعجبا من خوف هؤلاء من أفراد لا حول لهم ولا قوة إلا ألسنتهم وإيمانهم بأحقية مطالبهم مع أنهم مجندون مال الأمة ورجالها ضدنا وأنهم قابضون على زمام الأمر بيد من حديد ولكن الأيام كشفت أن ما بأيديهم من حديد تذيبه وحدة الشعب وعزيمته وما بيدهم من نار تطفئها شآبيب من إرادته وما بأيديهم من مال انفق ولم يغن شيئا فأصبحوا كما ياتى وأشباح الخوف تحيط بهم وكأن ما في البلاد يتهددهم من أشجار وأحجار بله الأناسي الذين خبروا من سياستهم العلقم. وأني لا أزال أذكر يوم محاكمتي في مارس 1953 إذ عرضوا علي حياتي التي كتبتها بيدي وأخذوها يوم تفتيشهم منزلي فجعل القبطان يقرأها ويكاد يتميز غيظا وخصوصا عند مروره بهذه الجمل «فجعلت همي كله إيقاظ الشعب إلى ما ضاع من حقوقهم وتنبيههم إلى أنهم هم الأمة وأنهم هم مصدر الأمر والنهي ومصدر الثروة والرجال فيجب أن يسعوا ليجعل ذلك ويصرف كله في مصلحتهم لا أن يصرف ضدهم..».

كنا نخيف هؤلاء الفرنسيين وكان الخونة والمأجورون منا يهونون عليهم شأننا وينصحونهم باستعمال القوة ففيها وحدها الدواء ولكنهم وهم الذين خبروا أمر الشعوب في سياستهم لها وقراءتهم تاريخ الشعوب ما كانوا

لينتصحوا بما ينصحهم به الأغبياء منا لان ذلك لا ينتج إلا استفحال الأمر وانتشاره وكانوا عالمين بأنا واصلون لا محالة إلى غايتنا لأن دعوتنا كل يوم في ازدياد وأنصارهم كل يوم في انتقاص والحق وإن اعترضه عارض المرض فانه لن يموت والباطل وان ساعده نوع ازدهار فانه باطل لن يدوم.

لما خرجت في مارس 1937 من سيلون الحمام جئت مخفورا بحرسين يحمل أحدهما كتابا إلى رئيس ناحية مكناس في شأني وأوصاهم المراقب أن أمشي على رجلي إلى طريق خنيفرة ـآزرو حيث اكترى إن شئت لي ولهما من جيبي ولكن الحرسين ساقاني إلى حيث احتجبت عنا المراقبة فجعلا يركبانني بالتعاقب حتى بلغت الطريق وهناك ركبنا سيارة كار أنزلتنا بمكناس وتوا قدماني إلى جنرال الناحية فلما مثلت بين يديه قال: إن الحكومة أبوابها مفتوحة وآذانها مستمعة فاتركوا عنكم تشويش العامة وإثارتها وقدموا مطالبكم إلى الحكومة. فأجبته: أشكركم على عواطفكم وتنازلكم ولكن ألم يعلم جنابكم أن الحكومة أصمت آذانها عن صيحاتنا وأوصدت أبوابها دوننا ولو وفقت الحكومة إلى سماع شكاتنا وفتحت في وجوهنا أبوابها لزالت أسباب الشغب. فقال: إني أوصيكم بالهدوء وان الحكومة في المستقبل ستعامل المهرجين بدون شفقة ولا رحمة. فقلت له: المستقبل لله.

صرفني ودخلت على أولادي وأهلي وكأنما وقعت عليهم من السماء. ذلك لأن كل سجين وطني يجد لنفسه وسائط لدى المسؤولين يخففون عذابهم ويبلغون أخبارهم لذويهم غيري فإنني ما زارني أحد ولا قدر أن يزورني احد ولم يدر الناس أين كنت حتى خرجت من قعر مظلمة .

بقيت بتولال ثلاثة أشهر كنت خلالها ألقي دروسا في الفقه والنحو ليلا للكبار وأخطب يوم الجمعة في المسجد الأعظم بتولال وذات يوم قدم إلي الأخ الشريف العلامة السيد محمد بن محمد بن إبراهيم العلوي رسولا من

شيخنا العلامة محمد بن العربي العلوي وزير العدلية حينئذ يستدعيني إلى فاس لارتب بالأعتاب الشريفة بفاس إماما ومعلما للشرفاء وعبيد الحضرة. وفعلا قابلت صاحب الجلالة وتعرف على حالي وتاريخي وكان الوزير ابن العربي نبأه ببعض ذلك فإنه سأل عن أخلاقي وسيرتي فقال له: ليس فيه إلا عيب واحد هو أنه سياسي ووقع له كيت وكيت فابتسم صاحب الجلالة وقال: قبلناه على عيبه هذا. فارتحلت من تولال إلى فاس ودخلت إلى الدار العالية بفاس العليا فجعلت أعلم الشرفاء والعبيد وألقي دروسا خارج القصر في المسجد الأعظم بفاس العليا «فاس الجديد» مدة خمس سنوات وكنت أخطب في هذا المسجد يوم الجمعة. كنت أدرس الرسالة في الفقه وفن التجويد والألفية بشرح ابن عقيل. في هذه المدة غاب ملف أعمالي وسوابقي عن اعوان الاستعمار فهم يعرفون اسمي وسوابقي ولكنهم لم يهتدوا إلى ملفاتي بسبب إحراق بعض المراقبين كثيرا من الأوراق في الحمام حيث كنت سجينا في السيلون. وفي هذه المدة فقدت زوجي أم ابني رشيد لأنها عندما غيبت في السجن حملت هي وصغيرها رشيد وهي حامل، حملت إلى مكناس في حالة تندى لها وجنة العدالة والإنسانية فلم تستطع تحمل الصدمتين. فأصابتها فقعة كانت تئن منها... فولد لها جمال الدين الأول وهي في هذا الداء ... فصرت أعالجهما مدة عامين ولكنها هي ماتت منها سنة 1938 موافق 1359 وتبعها هو فمات سنة 1941 الموافق لـ1362 بالمرض نفسه وبعد علاج لم ينفع شيئا وقد رثيتهما معا في ديواني الذي صادره المستعمرون من صفرو.

في هذه السنة أي سنة 1361 الموافق لـ1940 شرع السلطان محمد بن يوسف في بناء المدرسة التي تحمل اسم ولي عهده مولاي الحسن ابنه البكر ولما تمت رشحني لإدارتها فدشنها في آخر هذه السنة في محفل فخم وقدمني

ومكنني من مفاتيحها أمام الجمهور قائلا: إنني متفائل من مدرسة أولى في المغرب تحمل اسم ابني ويديرها علوي مجاهد فأوصيك بالاجتهاد حتى تؤتي أكلا حسنا لتشجعني على بناء أمثال لها بالمغرب حواضره وبواديه.

نعم هي باكورة أعماله وهي أولى مؤسساته الوطنية وكانت عربونا على اعتنائه بالعلم ونشره وعنوانا على وطنيته وحب شعبه فلم يلبث أن بنى مدرسة مولاي عبد الله بالدار البيضاء ثم تابع سيره في تشجيع التعليم الحر الذي لولاه لما بقي للعربية في المغرب حياة ولكانت الحركة الوطنية عديمة الذكر ولكان الاستقلال الذي جاء عاجلا كلمة مفقودة المسمى وخيالا يتخيل دون ان يكون له حقيقة يسمع عند الشعوب ويرى ويلمس وعندنا لا يكون له وجود.

العمل المزدوج

في هذا العهد كنا نتابع عملنا المزدوج

- التعليم والتربية للنشء

- وإيقاظ الهمم وشحذ العزائم وتنبيه الغافلين من الشعب إلى ما يحيق به في الاجتماعات الخاصة والاجتماعات الدورية ومع طلبة القرويين و ت ب اتصالي بالوطنيين لا ينقطع. كنا نعقد اجتماعات سرية بحيث كان بعضنا يدخل من السطوح والبعض متلثم كالنساء تعمية على الجواسيس الذين كانوا لنا بالمرصاد وهكذا كنا نعمل في الاجتماعات الدورية مع أفراد الشعب والتشكيلات وكانت هذه الاجتماعات تكلل بالنجاح وكان الناس يقبلون عليها بتلهف لما يحيط بها من خوف ورقابة على حد قول من قال «أحب شيء إلى الإنسان ما منعه». وقد حاولنا أيام الرخاء أن نحصل مثل تلك الحشود فلم نقدر وهذا ما يصدق قولهم «محاربة الأفكار داعية إلى

انتشارها». ومن طبيعة الإنسان أن يتطلع إلى ما منع عنه وخصوصا إذا كان المنع للحريات العامة ولاسيما مع عرفان الشعب أن الحكومة تفعل ذلك لإطالة مدة تحكمها بالمغرب فأقبل الناس على الوطنية أفواجا في فاس خاصة لايلويهم خوف. ذلك أنهم شعروا أيضا أن المستعمرين يضيقون خناق اقتصادهم بشتى الوسائل والمحن تلم شمل المتفرقين. وهذا السبب نفسه هو الذي جعل التعليم الحر ينتشر بين العرب والبربر في البوادى والحواضر ودفع المحسنين والمخلصين والملك والشعب إلى تعضيده وإعانته حتى كانت منه تلك الجماعة التي سالت دماؤها من أجل استقلال المغرب وملأت السجون والمنافي ذبا عن حق المغرب في السيادة والحياة الكريمة فإن الفرنسيين اتهموا التعليم الحر بخلق الضغائن في الصغار وبأنه يبغض إليهم عمل فرنسة في المغرب ولم تقف عند حد الاتهام بل جعلت تتجنى على مديري هذه المدارس ومعلميها فتنفي وتسجن لأتفه الأسباب وتغلق المدارس.

نجاح التعليم الحر

رأت حكومة الحماية أن التعليم الحر جلب الشعب إلى صفه فحاولت بشتى الوسائل أن تصرف الناس عنه فبدأت أولا بتوظيف المتعلمين عندها فقط وتركت أهل الثقافة العربية في غمار الإهمال ثم أدخلت بعض التحسينات على تعليمها وبنت مدارس أخرى محاربة للتعليم الحر فنهض التعليم واتسع نطاقه نسبيا بسبب هذه المنافسة وإن كان غزا عقائدنا وعوائدنا وصبغ نشأنا بصبغة أوربية فإن أبناء الكبراء والأغنياء لما رأوا الوظيفة في جانب هذا التعليم راحوا يرسلون أبناءهم إلى المدارس الفرنسية ولم يقرؤوا حسابا لخسارتهم في أبنائهم وتفرنجهم وبيعهم بثمن بخس مخجل فإن الابن إذا سبقت إلى قلبه ثقافة أجنبية ولم يعرف من ثقافة بلده إلا السطحيات فكأنه بدل وصار

أجنبيا عن أمته وانقطعت الصلة بينه وبين ماضي قومه فيصبح لا يفكر إلا بتفكير ثقافتها ولا يعيش إلا حسب عوائدها وبين مؤلفيها وكتابها وفي تاريخها وجغرافيتها وأدبها فأي خير يرجى من هذا؟ ولقد نجح الاستعمار من هذه الناحية نجاحا ما عليه من مزيد بقدر ما نجح المجاهدون في التعليم الحر فلقد كان الاستعمار يسلط تلاميذه على تلاميذ التعليم الحر فيتتبعونهم سجنا وتشريدا ويتتبعهم الآخرون قتلا وتخريبا إلى أن انتهى الكفاح.

الحرب الثقافية

والحقيقة أننا وإن استقللنا اليوم فإننا لم نستقل أدبيا ولا لغة ولا دينا وما يزال الاستعمار يجثم بين أضلعنا ويتحكم فينا كما كان من قبل. وأصبح أبناء المغرب في حرب ثقافية. هؤلاء يرمون أبناء العروبة بالقصور والغباوة وعدم الصلاحية للسير بهم في ركاب الحضارة فكأن الحضارة عند هؤلاء لا تتم ولا تصلح إلا بلغة أجنبية وكأن العربية عندهم لغة الهمج الذين لا علوم لهم ولا حضارة. هكذا ينظرون إلى المثقفين باللغة العربية. وهؤلاء يرمون أبناء المدارس الفرنسية بالمروق من الدين وبالعقوق للغتهم وماضيهم وبكونهم أدعياء نسب غير نسبهم فهم يتبرأون من مغربيتهم العربية وليست فرنسيتهم بالتي تصلهم بنسبها وترضى بتبنيهم بين أبنائها. وهذا الشكل من الناس مزدرى لدى الشعب محتقر في نظر العرب وما فتئت هذه الحرب تفرق بين أبناء الشعب الواحد إلى أن حصل الاستقلال فاستصحب المتفرنجون هذه العداوة وهذه الحرب ضد المثقفين بالعربية فنزوا إلى مناصب الحكم بإعانة أحزابهم وضربوا حصارا على اللغة العربية وأصحابها بمنعهم من التسرب إلى دوائر الحكومة فما وظف إلا من يكتب ويتكلم الفرنسية كيفما كانت بضاعته فيها ذائدين أصحاب اللغة العربية من جميع الأعمال/ الوزارة

والإدارة والدواوين والعمالات والقيادات والباشويات ونظارة الأحباس إلا القضاء الشرعي لأنهم لم يجدوا منهم من هو صالح له.

التصادم

من أجل هذا الموقف أضرب طلبة القرويين عن الحضور في دروسهم احتجاجا على هذا الموقف المزري في رمضان 1375 ـ1956 لمدة شهر حتى نزلت وزارة المعارف عند إرادتهم فأعلنت أن شهادات المعاهد العربية تخول ما تخوله الشهادات الفرنسية مطلقا وفتحت لهم بابا إلى الشرق لمن شاء أن يتمم دروسه ويتخصص في علوم لا تدرس بالمغرب بالعربية ولكن جمعية من العلماء لم تكتف بهذا فأعلنوا سخطهم على هذا الموقف أيضا وأذيع في المذياع المغربي ولكن القابضين على زمام الحكم صم عما يذاع وينشر، مغترون بنشوة الرئاسة ولم يدروا أن هذا لم يكن ليخضع لهذا والاستعمار شاكي السلاح قاسي القلب وله خبرة كبرى بسياسة الشعوب فكيف يخضع لهؤلاء الذين هم و..... سواء ولم يدروا أيضا أن الشرارة الأولى التي اشتعلت في هشيم الاستعمار هي من هذه المعاهد وهي التي أيقظت أفكار الشعب وهيأته للنضال وكونت منه الرجال الذين دمروا معالم الاستعمار في شرخ شبابه وتماسك قوته فكيف ينامون اليوم على الضيم أو يرضون بامتداد الاستعمار على يد تلاميذه فلينتبه هؤلاء للكارثة بإعطاء العربية مقامها في بلادها وأن ينقلوا إليها ما يعوزها من العلوم التي لا تدرس بها وإن في الشرق لموردا للمترجمين والمعلمين الأكفاء وبذلك تنحل المشكلة ويزول الشقاق ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه.

تفريق الجوائز

جرت العادة كآخر سنة شهر ينيه أن نقيم حفلة للتلاميذ تفرق فيها جوائز على الناجحين وكان يحضرها علية الذوات من علماء وأدباء وأعيان .. وكان محظورا على المغاربة أن يطبعوا شيئا إلا بتاشير سلطة الاستعمار. وفي سنة 1946 ـ1365 دعوت للحضور في الحفلة ولي العهد الأمير مولاي الحسن فأجاب بالإنعام ثم دعوت لأخرى كريمة الملك عائشة شقيقة الأمير لتدشين معهد التعليم الحنيفية الخاصة بالفتيات فأنعمت بالقبول أيضا.

مخابرة الحكومة المحلية

وكان لابد لمن يريد العمل أن يطلب تأشير السلطة الاستعمارية على أوراق الاستدعاء فبعثت بورقة مكتوب عليها ما يلي: جناب المحترم الفاضل السيد... إن مدرسة ولي العهد الأمير مولاي الحسن تدعوكم لتشرفوا حفلتها لتفريق الجوائز التي سيرئسها شرفيا الأمير مولاي الحسن ولي عهد المملكة المغربية....

ولما اطلع مراقب المطبوعات على هذه الورقة استدعاني إليه وكان برتبة كومندار ولما قابلته كانت هذه المحاورة: كيف يسير التعليم عندكم؟ أجبت: كيف يسير من لا معين له؟ فقال: أتريدون أن نعينكم وأنتم أعداؤنا؟ فأجبت: إنكم غالطون في التقدير بل نحن معينون للحكومة فيما عجزت عنه ولذلك نستحق شكرها وإعانتها فقهقه قهقهة التعجب أو التهكم ولكنه يريد أن يخفي مصدرها فقال: إن الحكومة عاجزة عن الإتيان بكل شيء لعجزها المالي.... ولكنكم أيها الوطنيون لو جعلتم التؤدة قائدا في سير تعليمكم لما عجزتم واحتجتم إلى المعونة فإنكم تطيرون بالنشء طيرانا. فقلت له: نعم نحن مضطرون لهذا لكثرة الأطفال المشردين والذين لا

يجدون مقاعد لهم في مدارسكم وفي مدارسنا فقال: وهل في برامجكم أن يتعلم الشعب كله؟ فقلت: نعم فقال: وإذا تعلم الجميع فمن أين العمال والفلاحون والصناع؟ فقلت: هم هؤلاء المتعلمون وهل عرفت في فرنسا فلاحا أو عاملا جاهلا؟ فقال: أتطمعون أن تكونوا كفرنسا؟ فقلت: وكيف لا وهي حاميتنا؟ أفلا يحق لنا ان نطمع أن نسير في الطريق الذي سارت فيه يوم كانت في الانحطاط مثلنا؟ فافحم وانتقل إلى المقصود بالذات فقال: بلغتنى منك ورقة تريد طبع آلاف منها ولكنى لاحظت فيها عبارة أريد أن أراجعك فيها. قلت: ما هي قال: وصفك لمولاي الحسن بولي العهد. قلت: وأي بأس فيها؟ فقال: ألم تعلم أن ولاية العهد تنعقد بإجماع العلماء والحال أن هؤلاء لم يفعلوا شيئا في هذا الموضوع فقلت: ليس للعلماء ههنا مجال فقال: وكيف ذلك؟ قلت: إن ولاية العهد حق من حقوق الملك يولى من شاء متى شاء ويعزله إن أظهر له عدم اللياقة والدليل عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وأبو بكر عهد وعمر عهد وأقرب دليل أن السلطان مولاي الحسن ولى مولاي محمد بكره ولما رجع من تافيلالت سنة 1311 عزله لعدم لياقته وخروجه عن قوانين الملك ثم أردفت: لعل ما ملأ ذهنك من هذه المسألة هو علم عبد الحي الكتاني الذي يزودكم به فقال: وحيث كان الأمر كذلك فلم عهد مولاي يوسف للأمير مولاي ادريس ولما مات لم ينفذ هذا العهد؟ فأجبته قائلا: هذا السؤال موجه إليكم وأنتم الذين تجيبون عنه فنشز متعجبا وقال: نحن... فقلت: نعم أنتم وذلك أنكم كنتم تظنون أن مولاي ادريس صعب المقادة نظرا لتربيته الخاصة وأن سيدي محمد الذي كان سجينا حين وفاة أبيه سيكون طوع أمركم في كل ما تريدون ولكن الله صنع للمغاربة بيدكم لتعلموا عجزكم عن معاكسة الأقدار. فاحمرت عيناه وقال: كنت عازما على التسامح في هذا لولا صراحتك الشديدة. أما الآن فلست بمبيح

لك طبع هذه الاستدعاءات فقلت: ذلك لك. أما الناس فسيدعون بطرق شتى. وفعلا استدعينا الجماهير وحضر أركان الاستعلامات وفيهم محاوري فعجب من هذا التوفيق وأسرها إلى الوقت المناسب . وكانت حفلتان بدار الجلاوي بالدوح إحداها لولي العهد صباحا وأخراها ليلا رأستها الأميرة عائشة وكان الملك يتفرج على سطح الدار وفيهما منحنى صاحب الجلالة جائزتين إحداهما بيد ولي العهد والأخرى بيد الأميرة عائشة.

بدء تفاقم الخلاف

كنت كما تقدم من أولى أعضاء الكتلة الوطنية ومن مؤسسيها ثم أحد الأعضاء في الحزب الوطني عند الانقسام سنة 1936 ثم في حزب الاستقلال المؤسس سنة 1944. ولما نزلت فاسا كنت عضوا في لجنة التعليم فكان حديث الأعضاء يدور دائما حول العنصرية الضيقة فكان ذلك يضايقني وكنت ممن لا ينافقون. ومن ظريف عبارة أهل فاس أنهم يسمون النفاق مرونة والصلابة في الحق والصراحة به شراسة فانقلب مدلول الألفاظ فأصبح المذموم ممدوحا والممدوح مذموما فإن بعض الوطنيين لا يقيم وزنا للأخلاق ويقول «إنها أمور شخصية لا تهم إلا صاحبها وكذلك ما حل شرعا أو حرم» فكنت أشمئز من انتمائي إلى قوم هذا مذهب بعضهم في الدين. هذا الدين الذي قامت الحركة الوطنية أول ما قامت على الذب عنه وإصلاح ما أفسدت الحوادث منه فكان الدين أحد شقي الإصلاح كما مر «في الجزء الأول» الأول الإصلاح السياسي والثاني الإصلاح الديني. ومن أمثلة هذه التفرقة اننا كنا يوما ندرس كيفية تقريب طلبة القرويين إلى طلبة الكلية الإدريسية فقال أحد الأعضاء وهو ....: وبعبارة أصح نريد أن نؤلف بين الشعب الفاسي...... فقلت له: يا سبحان الله.. أليس في

القرويين والكوليج آفاقيون؟ ما هذا؟ إنكم تدفعوننا دائما إلى عدم الثقة في نجاح أعمالنا ما دامت هذه التفرقة تأخذ بتلابيبكم فانهال عليه الآخرون باللائمة وطلبوا منه الاعتذار وسحب الكلمة فاعتذر وسحبها ولكن علمت أن ذلك منهم إنما كان ترضية واتقاء للشقاق فقط وإلا فهم مشبعون بهذه الفكرة.

الفروع

بعد استتباب أمر المدرسة الحسنية فتحت لها فرعا بسيدي منصور بباب الجيسة وفرعا آخر إزاءها بدار كانت مدرسة فضممتها بقرار وزيري ثم فتحت لها فرعا آخر بفاس العليا بجامع الزهر مدة ثم نقلتها إلى درب القاضي بدار الغريسى ثم بنيت الفرع الملاصق لها أي الحسنية على قبور قديمة خرب بناؤها من مالي الخالص بلغ نحو المليون ومائتي ألف فرنك وكانت المدارس كلها تنافسني ومنها من كان يواليني وقد اقتبسوا كلهم دروسي التاريخية والجغرافية......

الزيتون

كنت في هذه المدة أكتب في الجرائد حول احتفاظ المغاربة بأرضهم لئلا تصير أرضنا فلسطينا أخرى وحيث إن المرء لا يكون لكلامه وقع إلا إذا قام هو بما يأمر به ويشير به وإلا ذهب نصحه وإشارته أدراج الرياح. لذا تجشمت ضيق العيش لأوفر ما اشترى به أرضا وأنقذها من الاستعمار فجمعت ما شاء الله وبعت نصيبي من داري بمكناس فاشتريت أرضا على بعد 24 كلم على طريق فاس ـ صفرون وتبعد عن صفرون بأربع كلم وهما قطعتان إحداهما اشتريتها من فرنسي يسمى فرير جان والثانية من يهودي

يسمى ابن سمحون وبنيت فيها دويرة وجعلت أغرس كل سنة زيتونا على قدر من أخذ الشهادة الابتدائية من مدرستي فبلغ الزيتون نحو ثلاثة آلاف زيتونة وهذا هو العدد من التلاميذ الذين أنجبتهم مدرستي إلى يوم مغادرتي لها سنة 1956.

الحرب الكبرى الثانية

أعلنت آخر شتنبر 1939 فسرى الهلع والخوف في طول البلاد وعرضها وجعل الناس يفكرون في المصير فكنت أقول لهم: نحن في بطن الأفعى فإن ماتت أو قتلت ربما خرجنا من بطنها سالمين وربما الأخرى فإن كانت الأولى نتلو قول الله تعالى «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» وإن كانت الأخرى فقد قال ابن الزبير: اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي. فمم نخاف؟ ألنا قصور تهدم بالقنابل أم أموال تجمد في الأبناك أم مناصب نخسر مرتبها فلماذا نخاف إذن؟ المغاربة عبدان مسخرون وأرضهم نهب للأعادي وأحرارهم في السجون والمنافي.

الاقتصاد

وبمجرد ما أعلنت الحرب وضعت الحكومة الحامية يدها على جميع مرافق البلاد وحرمت الفلاحين من جميع محصولاتهم من بقرهم وخرافهم وصوفهم وزرعهم وزيتونهم وفواكههم ومن كل ما ينتجونه وقدمته لقمة سائغة للجنود وياليتها وقفت عند هذا الحد بل جعلت بطاقة التموين طبقتين طبقة الفرنسيين ومن في معناهم من الأجانب لهم بطاقة تشتمل على 30 مادة من مواد العيش واللباس وطبقة الشعب المغربي له بطاقة لا تشتمل إلا على ثلاث مواد هي الطحين الأسود والسكر والزيت فقط فنال الناس من

ذلك بلاء عظيم افتقرت فيه أقوام وتمولت على حسابهم أقوام آخرون كان المستعمرون يستأجرونهم للجوسسة وغيرها فيعطونهم بطائق زائدة على ما عندهم واعرف في فاس وحدها أسراً لا ورقة لها مطلقا وإنما تشتري ما تعيش به من السوق السوداء. وويل للفلاح إذا سرق شيئا من متاعه فإنه يحاكم ويحكم عليه بأقسى العقوبات.

موقف المغرب

أعلن السلطان الحرب ضد النازية إلى جنب الحلفاء ونادى بأن لا يتعرض بشيء مدة الحرب وبأن يتعاون مع فرنسة وأن لا يعرقل أحد المجهود الحربي ثم تقدمت طائفة من الحزب الوطني حينئذ إلى الإقامة العامة فقدموا لها تصريحا قائلين فيه: «كنا نطالب فرنسة بتعديل موقفها معنا فتصلح سياستها إصلاحا يرتقي بنا إلى الاستقلال. أما الآن والحرب قائمة فإننا سنوقف نشاطنا السياسي تضامنا مع فرنسة إلى نهاية الحرب». ونشر ذلك في جريدة السعادة بعبارات تهكمية إذ قالت: حضر إلى الإقامة العامة جماعة من ذوي الجلابيب ثم ساقت ما تقدم. ومع تهكمها فقد كان لذلك وقع حسن في فرنسة وكان له تأثير كبير على المجهود الحربي. ونحن إذا درسنا هذا العمل هل هو خيانة للمبدأ الوطني أو هو سياسة تجب متابعتها حينئذ لما تقتضيه الظروف السياسية فالجواب في نظري ولعلى أكون مصيبا كما يمكن أن أكون مخطئا أن الظروف التي قدموا فيها ذلك تقضى به لأن الظرف ظرف حرب عالمية وفي استطاعة الفرنسيين أن يلقوا عليهم القبض وأن يتصيدوا لهم أحوالا جنائية ولا يكبر عليهم أن يلفقوا ادعاءات تلحق بهم القتل أو السجن الطويل فيتم للمستعمرين مرادهم فيهم وهم كانوا يحرقون عليهم الارم فكان ما فعلوه حكمة سكنت احتراز من كان يحترز

منهم وأخرست السنة الكائدين لهم وأيضا فان كل حركة يقومون بها حينئذ قد يستغلها أعداؤهم ويصفونها بأنها عرقلة للمجهود الحربي فيتمكنون من الإيقاع بهم وكل هذه الاعتبارات تقضي بإعلان المسالمة حينئذ. أما القول بأن عملهم ذاك كان تخليا عن مبدئهم وخيانة لوطنيتهم فهو قول مغرض كان ينفثه أذناب الاستعمار من المغاربة لينفروا الشعب منهم ولكن الشعب كان عالما بما يأتي وما يذر لأن هؤلاء الرجال لم يجرب عليهم الشعب في مدة ظهورهم بالمظهر الوطني خيانة ولا نفعية ولا تذبذبا. والسياسة كما لا يخفي ليس لها قواعد ثابتة ولا مناهج مسطرة ولاسيما لمن هم في قبضة يد أجنبية حديدية لا ترحم ولا تعتبر حق المتظلمين.

مرجان

كنت في الأعتاب الشريفة أعلم الأشراف والعبيد نحو الخمس سنوات ما عرفت فيها خارج القصر إلا في فترات من سنة 1937 إلى سنة 1940 وبعض سنة 1941 وكان بالدار العالية عبد خصي يدعى مرجان وكان له محبة عظيمة في القرآن الكريم وحملته وخصوصا مجوديه وكانت في هذه الصفات كلها ولي اليد الطولى في فن التجويد فكنت إذا أنهيت الاشتغال بتعليم الفتيان أتلو ما تيسر من كتاب الله مرتلا مجودا فكان يجلس إلي ويجعل يبكي من خشية الله وكان ذلك منه عن صدق نية ورسوخ إيمان فوقعت من قلبه موقعا وكان يواسيني أيام الحرب الكبرى الثانية كلها فكان يبذل لى من مواد السكر والشاي والطحين الشيء الكافي وكان ذلك مسترسلا منه حتى بعد أن عينني صاحب الجلالة مديرا للمدرسة الحسنية. وفي أثناء وجودي بهذا القصر ماتت أم رشيد زوجي ففكرت في التزوج وكان بعض الشريفات أخذت ابني رشيدا وجمال الأول وختنتهما وكستهما ولم تقصر في البرور

بهما جزاها الله خيرا. قلت فكرت في التزوج وأدى بي التفكير أن أكاشف مرجان المذكور تفكيري وأن أستشيره.

البحث عن زوجة

ثم شرعت في البحث عن زوجة فجعلت كلما سمعت بفتاة أو شابة أدرس وسطها وثقافتها وماضيها حتى خطبت نحو عشرة نسوة فلم تتيسر واحدة منهن وجعلت النساء ترد إلى بيتي يخبرنني ويحرضنني على من يرسلهن فأتريث..... تعبت وسئمت من البحث عن امراة وكان لي صديق اسمه عبد الله حجاج تلمساني النسب فجلست إليه في باب دكان بعين علون «علو» فمازحني قائلا: لقد ارتحت للتأيم فأراحك الله. وكان بلغ مني الجهد مبلغا كدت اياس معه من وجدان زوجة لا لقلتهن ولكن لعدم الوقوع على من توافق ما أريد فلما قال حجاج ما قال تذكرت أن له بنتا كبيرة جميلة مدرسة ذات أخلاق وعرض ظاهر ووسط نظيف فقلت له: لست مرتاحا للعزوبة كما قلت ولا أراحني الله وأني لفي جحيم من العزوبة لأني ما ألفتها منذ كنت ابن عشرين سنة وقد تذكرت ان ابنتك فلانة وأنا خاطب لنفسي منك على خلاف عادة البلد وقد حملني على مواجهتك بذلك ما بيننا من الصداقة والوداد فاربط هذه الصداقة بالصهر ليتم لنا التواصل الدائم فأجاب قائلا: ويلاه لو كنت أعلم ويلاه لو كنت أعلم فقلت له: ماذا تعلم؟ فقال: لو كنت أعلم أنك تريدها ما تراكنت مع فلان بالأمس على أن يتزوجها وليس يجمل بي أن أعود في وعدي له بالعقد له معها. ثم تكدر وفكر كثيرا ثم قال: والله يا فلان لو علمت أنك ترغب مصاهرتنا لما قدمنا عليك أحدا ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن ولكن إذا فاتتك ابنتي فلا تفوتنك تلميذتها فلانة فقلت له: وكيف وسطها وبيتها فمدح وما قصر فقلت له:

لابد من رؤيتها فقال: لك ذلك فوعدني ليوم الامتحان وكنت من الممتحنين فلما حضر الفتيات للامتحان نبهني عليها فتأملتها وهي ابنة أربع عشرة سنة فرضيتها فخطبها هو وتم العقد وكنت ما زلت بالقصر الملكي ومرجان رئيس حريم القصر يتبع خطى بحثي بدقة فلما علم بالعقد والصداق أدى الصداق من جيبه وزاد فأدى جميع ما يسميه أهل فاس في عرفهم بالصبوحي .... كل ذلك أداه بسخاء وبغير منة ثم قال: إن ما فعلته الآن أحسن لك وأقر لعينك.

صدقات أهل فاس

لا يخفي أن الشريعة الإسلامية لم تحدد قدر الصداق التصاعدي وقد حدد أقله بعض العلماء كمالك في ربع دينار وأما أكثره فلا حد له. وقد ورد في القرآن الكريم في تمليك المرأة صداقها قوله تعالى «وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا» فالتعبير بالقنطار مبالغة في كونها تملكه ولو كان قنطارا. وقد لامت امرأة عمر بن الخطاب في عزمه على تحديد الصدقات فاحتجت عليه بهذه الآية فرجع عن ذلك. وعلى مبدإ هذه الحرية في الصداق وعدم تحديده وإسناد تحديده إلى إرادة الزوجين أو نوابهما درج المسلمون من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا. ولكن الزمان دار دورته وظهرت كماليات في اللباس وفيرة فارتفعت مقادير الصداق تبعا لغلاء سوق التحف كما تمنع الآباء الأغنياء عن تزويج بناتهم إلا بما يبهظ الأزواج من مقدار الصداق وما يتبعه فانصرف جل الشبان لغلاء الصداق إلى التعزب وكاد الحال يتفاقم فقامت جمعيات من الرجال وأخرى من النساء تحارب فكرة غلاء الصداق الذي جعله الشارع دليلا على رغبة الزوج في العشرة وبناء الأسرة لا ثمنا للتبضع كما يتشدق به بعض المتفقهين الذين يسيئون إلى

الشريعة الطاهرة ومنهم من يقول في النفقة انها في مقابل الاستمتاع فيقال لهؤلاء: هل الاستمتاع لا يكون إلا من جهة الرجل؟ فإن قالوا نعم جهلناهم وإن قالوا يكون من الجانبين قلنا: وأين مقابل استمتاع المرأة؟ فكيف يكون لاستمتاع الرجل ثمن ويكون استمتاعها هي بالمجان؟ بل الحق أن النفقة في مقابل الرياسة واشتغال المرأة بما يقيم أودها عن العمل الذي يدر عليها المال كالزوج.

والحق أن تجار المغرب لا رقابة على ما يجلبون من غريب الأثواب الباهظة الأثمان ولا يحسبون حسابا للميزان التجاري الوطني الذي ينوء تحت كلكل ما يجلبون ثم إن النساء من جهتهن يتهافتن على كل منمق براق ويكلفن بذلك اقتصاد الأزواج تكليفا مرهقا فيختل توازن الدخل والخرج في البيوت وكادت الحال تودي بالاقتصاد العام إلا أن المصلحين من الوطنيين حاربوا هذه الفكرة محاربة كان لها وقع حسن في نفوس الفتيان والفتيات فخفت وطأة ذلك وعاد الأمر إلى نصابه. والأثواب التي ذكرنا لا ترجع إلى اللباس وحسب بل الفرش وتلبيس الحيطان والأواني والأثاث التي تتنافس في إيرادها إلى بيوت الأزواج نساؤهم فلا تمر على ذلك أيام حتى يصير خلقا باليا يحتاج إلى تجديد فتضيع بذلك أموال تنتقل من المغرب إلى جيوب أرباب المصانع في الخارج وهكذا تمص دماء المغرب من هذه الناحية بخروج الناس عن حد الاعتدال.

سير المدارس

تمكنت من تسيير هذه المجموعة من المدارس بحزم وعزم فظهرت نتائجها الحسنة فازدحم الراغبون على بابها لعل كل واحد ينال لابنه أو بنته مقعدا فيها وطار لها صيت وشهرة . الأمر الذي جعل المستعمرين

تقض مضاجعهم بعملي المتواصل فأصبحوا يتحينون لي الفرص للإيقاع بي واطلعت على ذلك ولكني رجعت إلى نفسي وحاكمتها إلى أن الله هو الفاعل وأن ما يصيبني لا يخطئني احترزت أو لم أحترز وإن لم يخطئني لم يكن ليصيبني فاعتمدت على الله وسرت في طريقي التي رسمتها وتركت المستعمرين يدبرون ما يشاؤون وكان بعض من يسمون أنفسهم وطنيين مخلصين تنزل بهم أنانيتهم إلى الوشاية بي لدى المستعمرين وإغرائهم بي وكل ذلك كان يزيد في معنوياتي ولاسيما حين يطلع الناس على شدة عداوة الفرنسيين لي. وهؤلاء الذين يسمون أنفسهم وطنيين ويشون بي قد ضايقتهم في مجال التعليم فلم يستطيعوا اللحاق بي فشمروا لمحاربتي ولو ببيع ضمائرهم للمستعمرين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

المؤامرة والحفلة المنحلة

ومن كيدهم أني أقمت حفلة كبرى لتفريق الجوائز على عادتي كل سنة فدعوت لها من جملة المدعوين أستاذنا محمد بن العربي العلوي بدار ابن العباس الحلو بالزربطانة فلما تكامل عقد المدعوين هجموا على الدار ودخلوا بغير دعوة وخلفوا فوضى خفت منها على أرواح التلاميذ فأخرجتهم إلى جنينة الدار حتى أمنت عليهم ثم أعلنت حل الحفلة وعدم إتمامها فألح علي ابن العربي المذكور لإتمامها فامتنعت ونفذت قراري بحلها. وكان الخبثاء قد وضعوا الماء القاطع على رتاج مصراع باب الغرفة العليا لتقع على ابن العربي ومن بجواره وعلى التلاميذ فتقتل بعضهم ويقتل الناس برفسهم التلاميذ الصغار وقد خيب الله ظنهم وأفشلت وقايته سبحانه تدبيرهم إذ ما كاد الناس يخرجون وتفرغ باحة الدار حتى تداعى المصراع من علو نحو عشرة أمتار وكان وزنها نحو قنطار ونصف وطولها نحو ثلاثة أمتار

فسقطت على موضع شيخ الإسلام بعد خروجه منه وخروج الناس جميعا إلا من بقي معي من المعلمين وأهل الدار وبمجرد وقوع المصراع أسرع رب الدار يهنئني ويدعو لي ويقول لي: هذه من كرامتكم وفراستكم الثاقبة ووالله لو سقطت والناس في الدار لقتل من التلاميذ أكثر من نصفهم بالرفس فضلا عمن يقتلهم المصراع عند سقوطه . ولما سمع الناس الخارجون ما وقع رجعوا يهنئونني فازدادوا بي غبطة ومحبة بينما احتقروا تلك الفئة التي كانت تدبر تلك المخازي . وهكذا كنا مع بعض الناس في فاس نعيش في بركان ومع ذلك فقد نصرني الله عليهم إلى أن جاء الاستقلال. وقديما قال العامة «مت ما تصيب اللى يقتلك» أي مت لا تجد قاتلا.

عام 1944

تقدم أن الوطنية خمدت ردحا من الزمن بعد إعلان الحرب الكبرى الثانية ولكنها انتعشت بعد هزيمة فرنسا وبعد أن أصبحت تئن تحت نير الاحتلال الألماني فانقسمت على نفسها فقامت حكومة فيشي برئاسة الجنرال بيتان وحكومة دوكول في لندن أي في المنفى سنة 1940 ـ41 وكان شمال إفريقيا يتأرجح بين هذين التيارين إلى أن قتل فيكان في الجزائر ومنذ مقتله ترجحت كفة حكومة دوكول التي انتقلت إلى برازفيل في إفريقيا السوداء وشد عضده من أمريكا الولايات المتحدة ثم انعقد مؤتمر آنفا المشتمل على روزفلت وتشرشيل ودوكول ومحمد بن يوسف ووعد هذا الأخير باستقلال بلاده عند انتهاء الحرب لأن هذه الحرب لهذا قامت. في هذه الظروف مشى الوطنيون بعضهم إلى بعض وتشاوروا: هل الظروف ظروف طلب إصلاحات أو ظروف طلب الاستقلال فكنت ممن استشير فأشرت بطلب الاستقلال ذاكرا أن أيام طلب الإصلاح مضى إلى غير رجعة

وفرنسة لم تظهر فيه أي استعداد لإجابة ندائنا إذن فمن البله أن نعود إلى الوراء والزمن يجري إلى الأمام فاستحسنوا رأيي وأردفت أن هذا سبيل إلى القتل والنفي والسجون سواء طلبنا الإصلاح أو الاستقلال فالأولى بنا إذن أن ننفي ونشرد ونقتل على الخطة الكبرى والنهاية الأسمى ثم أنشدت:

فموت المرء في أمر صغير   كموت المرء في أمـر خطـير

فضحكوا مما ذكرت استحسانا وأجمع رأيهم على طلب الاستقلال.

وقد أخبرني أكبر قاض بالمغرب وهو ممن وقع وثيقة الاستقلال أن الملك محمد بن يوسف هو الذي دعا رؤساء الوطنيين آخر سنة 1943 وقال لهم: إلى متى وأنتم تطالبون بالإصلاحات في إطار الحماية وكأنكم إنما تطلبون التموين ولا يقف عند هذا الحد إلا من لا يعقل. إذن يجب أن تعلنوها صيحة بالاستقلال وأنا من ورائكم. وزاد هذا القاضي: إن فكرة الاستقلال ما كانت تخطر ببال أحد منا حينئذ حتى ندبنا إليها صاحب الجلالة ولولاه لسرنا طول الطريق على طلب الإصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية كما في المطالب المغربية ولكن تنبيهه إيانا ووعده بنصرنا ألهب حماس المواطنين فكانت تلك الثورة في يناير 1944 فهي نتيجة لتحريض صاحب الجلالة وفكرته الاستقلالية. وفي غده اتصلت جميع الفروع بأهم المدن المغربية وكتبت وثيقة الاستقلال فوقعها البارزون من الحزب وكنت ممن وقعها وكنت في الوفد الذي قدمها. وفي غداة اليوم الذي قدمت فيه وثيقة الاستقلال كنت عند شيخنا ابن العربي العلوي وهو وزير العدل فقلت له هذه وثيقة الاستقلال قد قدمت فما موقف حكومة صاحب الجلالة فاجابني متمثلا بقول دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

فعلمت حينئذ أنه مقدم على طور في حياته دقيق وأنه سيضحي بمنصبه

ثم بشخصه وكذلك كان فإنه كان لسان الوطنية المغربية عند دراسة الوثيقة حين أمر صاحب الجلالة بدراستها وهو الذي فضح نيات المقري والجلاوي ومن لف لفهم ممن يوالون فرنسة فإنه لما سمع الجلاوي بتقديم الوثيقة انزعج وظن أن الأمر باتفاق السلطان مع الأمريكان وهذا كان ظن الإقامة العامة فلما حشر الجلاوي أنفه مع الوزارة في دراسة الوثيقة وسال هل هنا دولة أجنبية تعيننا فأجيب بأن الإعانة من الله وحده والإيمان الصادق بحقنا في الحياة الحرة قال متهكما: كنت أظن أنكم معتمدون على قوة عظيمة فإذا بكم تعتمدون على الطواجن فقط. وفور هذا الكلام خرج واتصل بالإقامة العامة فقال: افرخوا روعكم فإن القوم لا مستند لهم ولا وعد من الخارج بالإعانة فما عليكم إلا أن تظهروا بقوتكم فتسكن هذه الهيعة الصاخبة.
وكانت الإقامة العامة وعدت السلطان بالموافقة بعد استشارة باريس ولكنها لما شد أزرها الجلاوي عادت في وعدها. ولم تلبث إلا يسيرا فأوقفت ابن العربي العلوي وأبعدته إلى الصحراء وولت الحجوي مكانه وجعلت تلقي القبض على البارزين من حزب الاستقلال الجديد ـ وهو الذي تكون مع وثيقة المطالبة بالاستقلال بانضمام عناصر من المدرسة الفرنسية وغيرهم ممن لم يكن منخرطا في الحزب الوطني ـ ثم كانت مظاهرات عظيمة دامت بفاس وسلا والرباط نحو الخمسة عشر يوما حاول فيها الفرنسيون حل الإضراب بكل وسيلة فلم يحل حتى انتهى الأمد المقرر ومن وسائلها لحل الإضراب طواف الجيوش في الأزقة ودخولهم إلى دور الوطنيين والقبض عليهم ونهب ما في دورهم من أثاث وحلي ونقود وحشرهم في المعتقلات والمنافي وقد قتلوا صبرا ما يزيد على عشرة رجال حول القرويين. وفي يوم من أيام هذا الإضراب كنت مع بعض المعلمين في المدرسة فبينما نحن في الغرفة العليا منها والمطلة على شارع زقاق الحجر إذ هبطت كوكبة من الجنود في أيديهم

المفرقعات اليدوية والرشاشات السريعة فلما وصلوا أمام المدرسة رموها بثلاث مفرقعات فانفجرت وتطايرت شظاياها حولنا بعد ما كسرت زجاج النوافذ وكنا ستة نفر فسلمنا جميعا ولم يصب أحد منا بأذى ودام ذلك طول المدة المذكورة وكم قتلوا من نساء في السطوح وطلعوا على سطوح الناس كرها وبنوا عليها استحكامات لصب نار مدافعهم على من أرادوا رداه وحلقت طائراتهم على السطوح مساء وصباحا صابة على المتظاهرين نيران رشاشاتها ورجمت القرويين بما لا يعد من الرصاص وبنوا بين الأحياء حواجز بالأسلاك الشائكة وراءها الجنود مدججين بالسلاح ينتظرون الأمر بإطلاق النار. ثم عمدوا إلى ماء النهر فحولوه عن مجراه وقطعوا الماء البلدي وسدوا الأبواب الخارجية فلا يدخل أحد ولا يخرج إلا أذنابهم ومنعوا دخول الخضر والطحين والوقود فاشتد البلاء واستطار وكانت الكارثة محققة لولا لجنة الإسعاف التي خففت من الوطأة ما استطاعت كما قطعوا الضوء الكهربائى وما تركوا شيئا من النكاية عرفوه إلا أتوه ونفذوه فلم يزد الناس ذلك إلا إيمانا بحقهم وعدالة مطلبهم وكل ما وقع في فاس وقع مثله في سلا والرباط وأكثر وقتلوا جماعة منهم صبرا في حصن تمارة.

لطف خفي

ألقوا علي القبض يومين وكانوا لا يعرفون من هويتي شيئا وسألوا الجهة التي كنت فيها وهي الحمام فبحثوا فلم يجدوا لملفي أثرا لأن بعض المراقبين الذين جاؤوا بعد نفيي إلى الحمام أحرق جميع أوراق السياسة التي وجدها مكدسة قائلا: ليس هنا إلا الكذب. فأخبروا استعلامات فاس بأنهم لا يعلمون عني شيئا فأطلقوا سراحي ثم شمرت إلى الإسعاف الفردي بكل ما قدرت عليه فزرت المعتقلين في المندوبية وقدمت لهم الثياب والسكر والدراهم. وكيف خلصت إليهم مع الحصار الشديد؟ كنت أذهب إلى

الحاجز وأقول للجنود: إن داري وراءكم. فيسألون المقدم وكان مقدمو فاس يحترمونني فيصدقونني مع كذبي فيفسحون لي إلى أن أخلص إلى المندوبية وهكذا أفعل في رجوعي.

طلبة القرويين

ومن جملة اضطهادات الفرنسيين للمغاربة في هذه المناسبة جمعهم لطلبة القرويين الآفاقيين وسجنهم ثم بعث كل واحد منهم إلى مسقط رأسه حيث حكم عليهم بمدد مختلفة في أرض لم يذنبوا فيها ولا أجرموا وضيق عليهم أشد الضيق أكثر من جناة الحروب. وممن لم تقع عليه يد الاستعمار من الطلبة مصطفى العلوي الذي كان معلما عندى «هذا هو مصطفى العلوي الذي تولى إدارة دار الحديث ومناصب مشابهة من بعد. رحمه الله ـ أحمد العلوي» فإنه أوى إلى بيتي واختفى فيه نحو الشهر وكان المستعمرون أوعدوا كل من آوى طالبا وظهروا عليه أن يقرنوه معه إلى السجن وكان مصطفى المذكور يهم بالخروج خوفا على أن يظهروا عليه عندي فأقول له: والله لا تخرج حتى يسوقوني معك فاطمئن على نفسك. وذات يوم طلب الخروج ليرقب الحالة عن كثب فسمحت له بذلك وذهب إلى صفرون إلى أحد أقربائه فلما شعروا به حاولوا اعتقاله ولكنه اختفى في جنان صفرون وخرج منه مترقبا فلم أشعر به إلا داخلا وحكى لي ما لقي فأقام حتى سكنت الهيعة ورجعت المياه إلى مجاريها.

القرويين وابن يوسف وفروعهما

قدمت في ما مضى للشعب المغربي وللعالم ثقافة حفظت ما اندرس من معالم العلوم سواء منها الدينية أو الأدبية أو العلمية التي كانت نواة للنهضة

الأوربية الحديثة ولاسيما في الرياضيات والفلسفة فدارت عليها أدوار الزمن فجمدت وزمنت بسبب انكماش المغرب على نفسه وانقطاعه عن الاتصال بالخارج بسبب الحروب الصليبية التي شنت عليه نحو 600 سنة فرحلت سفينة العلم والتعليم عن مثل ما كان عليه المغرب وبقي المغرب بمعاهده وعقليته يعيش بعقلية القرن الرابع والخامس. وأصبحت للكتب التي تدرس قداسة مثل ما للقرآن الكريم. هي كتب وضعت للمراجعة والتفنن فوضعت للدراسة ومتى ينهيها الطالب إذا حاول دراستها وكيف ومتى يتمها المدرس ثم إن الكتاب قد تكون له شروح وحواش ولا يصبح المدرس مقتدرا إلا إن حشر للتلميذ كل ما قيل ويقال حول المسألة فيخرج الطالب من هذا الموضوع بيدين إحداهما فارغة والأخرى لاشيء فيها.

التدريس

ثم إن المدرسين فيها لا يفرقون بين المبتدئ والمنتهي والمتوسط بل يسلكون طريقة المحاضرة والإملاء لجميع الطبقات وكان الأستاذ إذا لم يأت مستظهرا للدرس لا يحسب في صف الأساتيذ وقد يأتي التلميذ من بلد بعيد ليستفيد وقد يحضر الدروس العام والعامين فلا يفهم من عبارات شيخه شيئا حتى إذا فتح عليه وأراد الرجوع إلى أهله لينذرهم بعلمه وجد نفسه غير قادر على العيش مع قومه لطول مكثه بفاس ولتقدم سنه ولاستيحاشه من البادية لألفه الحضر فيضيع بذلك القصد من سفره إلى التعلم والعلم.

العلم للعلم

وقد جاءت هذه الكلمة فعاقت الطلبة عن النظر في المستقبل وسدت أمامهم أبواب الأمل وأصبح عندهم غاية لا وسيلة فانعكست الأحوال

وقصرت الهمم وانحطت الطبقة المثقفة بهذه الاعتقادات وتأخرت وتأخر الشعب تبعا لها ولقد أدركت من هذه الطبقة ثلة من الطلبة أسألهم كم لم هنا فهذا يقول أربعون سنة وهذا يقول ثلاثون وأقلهم يقول عشرون فدهشت من أخبارهم واستعذت بالله أن أسجن هذا الزمن كله وهذا كما لا يخفى مرض نزل بالجهاز التعليمي عندنا وأزمن وصعب على المصلحين علاجه وقد فطن محمد بن عبد الله العلوي ملك المغرب لهذا الداء فأصدر تعليماته التحريرية للقرويين وغيرها ولكنه لم يكد يموت ويرتقي على عرش المغرب سليمان ابنه حتى رد الحالة إلى ما كانت عليه وشجعها.... بأن جعل للقرآن ضرة فأوقف أوقافا على حفظ المختصر وأمر به أن يتلى كما يتلى كتاب الله. ولا لوم عليه لأن ثقافته كانت من هذا النوع فلا جرم أن يشجعها ويدافع عنها ثم جاءت الحماية والداء مستحكم والمرض مستفحل فوجده المستعمر آلة يجهز بها على المغرب فشجعها وأحاطها بأبواق من العلماء يدافعون عنها مع أنها داء ينخر في جسم ثقافة القرآن ومدنية الإسلام.
وفي عهد ابن يوسف زعيم الإصلاح والاستقلال حاول إصلاح المعاهد وفي مقدمتها القرويين فنظم دروسها وأدخل تحسينات لا بأس بها لكنها عديمة الجدوى لما يعترضها مما لم يقدر على إصلاحه أو لغش القائمين على التعليم بها. مثال ذلك أن النظام وضع ولكن الكتب هي الكتب يجب أن تختم وختمها يستدعي طولا فالأستاذ يكلف بختمها بما لا يطاق والتلميذ إن أتمها على طريقة المسرودات قد لا يحصل منها شيئا فإذا جاء الامتحان يكون عدم نجاحه أرجح ورسوبه أقرب إلى التقدير فيلجأ التلاميذ إلى حيل ليقفوا بالأستاذ دون الإتمام ليضيق المقروء ثم إذا حل وقت الامتحان يختلف التلاميذ واللجان هل الامتحان في المقرر أم المقروء وتقوم ضجات كبرى يتدخل فيها السلطان وتنتهي بالامتحان في المقروء. والمقروء في الفن كله

لا يعدو أربعة أو خمسة أوراق وهكذا يخرج أقوام يعلم الله والناس أنهم أشباه العوام إلا من كون نفسه خارج المعهد. فتأخرت سمعة المعاهد الدينية وتقدمت المدارس الفرنسية على حساب تلك ثم إن الإدارة لا يوظف فيها إلا من له ثقافة فرنسية فانهال الناس على تعليم أبنائهم في المدارس الفرنسية وأصبحت معاهدنا القديمة تموت لنفسها حتف أنفها بل يقتلها قومها بما جروا عليها من الزمانة والجمود وهي وإن حافظت على اللغة العربية وآدابها في شخص روادها من الطلبة فان الزمن لفظهم ولفظ معارفهم وأصبحوا يعتبرون كالأميين خصوصا بعد الاستقلال وأصبح أهل المغرب يودعون الثقافة العربية في غير إشفاق ولا رحمة كأن لم تسد لهم يوما ما يدا بيضاء أو كأنها أتت إليهم ذنبا لا يغتفر. وقد كنت كتبت سنة 1947 سلسلة مقالات حول تنازع البقاء بين اللغة العربية واللغة الفرنسية يوم كان الاستعمار يصول ويجول وقد أوذيت من أجل ذلك بما يعلمه الله والناس فلماذا أكتب اليوم؟ ولمن أكتب؟ ولعل كتابي هذا لا يكتب له الطبع حتى لا يبقى في المغرب من يقرأ العربية «ما زال في المغرب من يقرأ العربية ولكن القائمين على الأمور يثيبون من يطاردها فأصبحت لا ترى أثرا لها على واجهات المحال التجارية وفي الشوارع كشوارع الرباط العاصمة ـ أحمد العلوي».

طبيعة متأصلة

إن من الطبائع المتأصلة في البشر تقليد الغالب في عوائده ولغته وغيرها فإذا رآهم متمسكين بمقوماتهم وامتنعوا عن الاندماج فيه يعمد إلى باب الرزق الإداري فيسده فيجعل الدواوين بلغته ويسد الباب أيضا في التجارة الخارجية بتدوينها باللغة الأجنبية ومنع التوظيف والعمل والتجارة الكبرى إلا بلغته. وقد صبر الشعب المغربي كثيرا على لغته وثقافته وتعصب لهما

تعصبا كبيرا إذا استثنينا أبناء الموظفين منهم والأغنياء لأن هؤلاء سلموا في لغتهم وثقافتهم مبكرين وطال صبر الشعب وأخيرا أعياه الصبر فصار يسقط في أحضان هذه اللغة زرافات حتى أصبح المغرب عبارة عن أمة فرنسية بلغتها وزيها وبعوائدها وأصبح هذا العهد راس عهد جديد يحق أن يجعل بداية لتاريخ ونهاية لآخر كما يقول ابن خلدون. أكثر الفرنسيون من المدارس الفرنسية في البلاد وحارب التعليم الحر ما قدر له لينقذ ما يمكن إنقاذه ولكنه غلب على أمره لقلته وضعفه المادي لعدم تكافؤ قوى المتحاربين.

نجاح وخسارة

ولئن خسر الاستعمار في الميدان السياسي خسارة كبرى وخاب خيبة فادحة فإنه ربح ونجح في الميدان التعليمي والثقافي نجاحا ما عليه من مزيد. خسر في السياسة خسارة جعلته يسلم استقلال البلاد لأصحابها ولكنه ربح ربحا باهرا في بقائه في قلوب هؤلاء المستقلين وأفكارهم وعقائدهم فبعد الاستقلال اصطبغ المغرب بصبغة غربية بحتة في دواوينه وفي عمالاته وفي وزاراته وفي قضائه وفي اقتصاده وفي كل شيء من مظاهر حياته . الشيء الذي كانت تحلم فرنسة بإدراكه في مائة سنة حققه المستقلون في ظرف ثلاثة أشهر من استقلالهم وأبعدوا من الإدارات كل مثقف بالعربية وحدها أو أبعدوه إلى الأطراف.

مؤامرة

ومنذ أول يوم في الاستقلال جعل المرتقون على كراسي الحكم الدواوين والوزارات حمى لا يرتاده الا المثقف بثقافتهم وأشهروا حربا عوانا على غيرهم من المثقفين بالعربية وطهروا الإدارات حتى من أولئك

المخلصين للوطنية والذين كان الاستعمار وظفهم في الدواوين ذرا للرماد في الأعين بهم. أما الوطنيون الخلص الذين بني الاستقلال على أكتافهم فيكفيهم أنهم ضحوا في سبيل الله وليذهبوا إلى بيوتهم حيث ينتظرهم ما لم يكن ينتظرهم أيام الاستعمار من قتل ونفي وتشريد ومجاعة. وهذه نبذة سقتها هنا استطرادا بمناسبة ذكر القرويين ومآلها وسيأتي هذا مفصلا في محله إن شاء الله.

عود على بدء

أمليت ما عقلته بحفظي من حوادث عام أربع وأربعين وتسعمائة وألف. أمليتها من حفظي وبعد إملائها بأيام وجدت صحائف من مسوداتها لا أدري كيف لم تصل إليها يد العدوان بعد ذلك التفتيش المتكرر على محلاتي مرارا فأحببت أن أثبتها هنا لما فيها من التفاصيل الدقيقة ولكونها كتبت والحادثات طرية ترى بالعين ويباشرها كاتبها بنفسه وإليكها فيما يلي:

دخل المحرم الفاتح لسنة 1363 فكان فاتحة الحركات المباركة الاستقلالية ففي يوم الثلاثاء 14 محرم 1363 الموافق لـ26 دجنبر 1943 انهالت وفود من المغرب جميعه تحمل إلى الملك عرائض بطلب إعلان الاستقلال ومن أفرادها الحاج أحمد بلافريج والديوري القنيطري وعبد الله إبراهيم المراكشي والهاشمي الفيلالي من فاس والغريسي من آزرو وكنت حاضرا هذا الوفد وفيه قال الهاشمي الفيلالي «قد أعطيناك مادة كبرى لتاريخك الذي تكتبه فدون واكتب وأنت شاهد عيان» فمثلت معهم أمام السلطان فأخذ نصره الله منهم العريضة غير مفاجئ بها وأعارها الدرس والتمحيص وجمع لها وزراءه زهاء أربع ساعات فوقع الإجماع منهم على تحبيذها وتنفيذ بنودها ثم جمع نصره الله العمال والقواد من أطراف المغرب ليوحد معهم الرأي

ويختبر من عساه يكون له نظر يخالف ما طرح على بساط الدرس والبحث وفي اليوم التالي انهالت على الملك وفود حواضر المغرب بعرائض تؤيد ما تقدم به الوفد الأول منهم العلماء والمدرسون والأشراف والعدول والتجار وغيرهم ومديرو المدارس والمعلمون ورغم أني في صف المديرين للمدارس فقد اقتضى نظر الحركة أن أصحب وفد الأشراف. والحاصل أن كل من له حيثية أو هيأة تقدمت إلى الملك بالتأييد رافعين إليه عرائض بذلك. دخلنا عليه نصره الله فقلت إننا معاشر أهل البيت الشريف بالمغرب متضامنون مع سيدنا نصره الله في تحرير البلاد ونوافق على العريضة التي قدمها اليكم حزب الاستقلال يوم الثلاثاء فأجاب نصره الله بكلمات كلها شذرات ذهبية تدل على نفس عالية وتفان في حب أمته ووطنه ودينه وعلى رزانة وأناة وحساب للعواقب وحنكة وتعقل. قال نصره الله: «هل إذا طالبنا بحقوقنا نكون بذلك أعداء لأحد من الأجانب؟ فرنسة أو غيرها؟ نعم إن فرنسة صديقتنا ولكن مع صداقتنا لها لا نترك حقوقنا تضيع بل لابد من إدراك تلك الحقوق في دائرة لا تمس أحدا في ما له وهل إذا تقاضيت من أحد دينك يعاديك بل بالعكس إذا أدوا إلينا حقوقنا يجدوننا لهم أعضادا عند الاحتياج وقد برهنا على ذلك غير ما مرة سنة 1914 وسنة 1939 بفرنسة وسنة 1943 بتونس وكورسيكا وإيطاليا ولا يعاب من كان في الحضيض وأراد الصعود إلى حيث كان أولا مرة أخرى. وقد قالوا لي ما هو موقفك؟ أهو صداقة أم عداوة؟ فقلت لهم فرنسة في كفي الشمال وأمتي في اليمين ومع ذلك فالأمة بالملك والملك بالأمة فإذا لم أراع حقوقها أكون قد خنتها وظلمتها حقها. فقاطعه بعضنا قائلا: نحن عبيد سيدنا فقالك بل إنما أنا كأحدكم أبتموني على شؤونكم وأمنتموني إياها فيجب علي أن أحافظ على سلامتها وأن أسيرها تسييرا يوافق الأمانة والإخلاص ويجب أن نتوصل إلى الصعود إلى

مرتفع لنتنسم الهواء الطلق كغيرنا من الأمم».

ثم حض نصره الله على لزوم السكينة والهدوء وأردف: « إننا سننال بحول الله فوق ما نظن وانهم لابد مهيجون وداسون من يثير ثائرتكم فتعقلوا إذا ما وقع شيء من ذلك وإن قام مهيج فاقبضوا عليه ووجهوه للمراجع المسؤولة وقولوا لهم: هذا أراد الفتنة . واطمئنوا على أني سأبالغ جهدي في تحقيق ما تصبون إليه والله حسبي وهو رقيبي على موقفي. ثم ودعناه... وكنا نقرأ على جبينه ما سيقوله قبل التفوه به فتارة ألما وتارة أملا.

صدق الرجل وزعامته

هذه الظروف وما سبقها بسنوات برهنت على أن المصلح الوحيد والوطني المخلص والسعد الطالع للمغرب هو محمد بن يوسف وأنه هو الزعيم الحق والرسول الذي بشر بالاستقلال وعمل له منذ سنين قبل هذا الإبان فقد بدأ أولا بالأسس وترك المجال للسياسيين يهيئون الشعب لتحمل المسؤولية فبدأ ببناء المدارس الحرة وشجع عليها ونظم المعاهد الكبرى وأمر بالمشاريع الكبرى وشجع عليها ووجه البعثات إلى الخارج وانفق عليها وجمع الشعب حوله وحبب إليه التعاون والاتحاد ولم يحتجب عن أحد وتعرف إلى آمال الشعب وآلامه وجر ذيول النسيان على المتزعمين. ولا يخفي أن وطنية المسؤول الأكبر وتقدمه إلى ميدان العمل والمطالبة تميل الكفة لصالح الوطن في أقرب وقت وتضيق مسافة المحنة وتقصر أمد الامتحان وكلمة منه أفضل من لغط الشعب طول الزمن فإن فرنسة ألفت من الشعب وألف منها صفتين: الأولى هيجان الشغب للمطالبة بالإصلاح وفي ضمنه الأحزاب والمتزعمون والثانية مقابلة فرنسة الهياج بالعنف والتصلب وبالسجن والتشريد وبالقتل ومصادرة الأموال فتخمد جذوة الوطنية حينا فإذا كانت مناسبة أخرى هب

الشعب كالأولى فيقابل بمثل الأولى وهكذا زهاء ثلاثين سنة فلما نزل محمد بن يوسف إلى الميدان سنة 1940 وقف الفرنسيون منه موقف المتحير المخبول وأصبحوا يضربون أخماسا في أسداس مما دهاهم منه وعلموا أن الجد قد جد وأن أيام الانتقام والإرهاب قد مرت إلى غير رجعة وان الامر لا يعدو خطتين اما القضاء على ابن يوسف نهائيا ليفرغ لهم الجو كما يحسبون واما ان ينزلوا عند ارادته فحاولوا مساومته في باريز سنة 1950 كما ياتى فلم يظفروا منه الا برشح القربة، عندها تآمروا ضده المؤامرة الشنعاء ب 20 غشت 1953 الآتية مفصلة.

والحاصل اني لست هنا مؤرخا لدولته ولا مادحا له يشهد الله ولكني مدون بعض ما اعرف ووالله لو اردت ان استقصاء وتفصيل وطنيته وعمله ما كفاني لذلك مجلدات ضخام وسأتعرض في كل مناسبة لبعض مزاياه وربما انتقدته في بعض المواقف ولكن انتقادي قد يكون مخطئا لأنه مبني على فهمي ولعل له عذرا في ما أنتقد فيه ولا أعرفه......... وبعد محاولة من المقيم كبريال بيو لصرف السلطان عن فكرة الاستقلال وتأييد الشعب في مطالبه وتقليل أهمية القائمين بها قال له: لعلك تصبح مسؤولا عن الفتنة ان شجرت فأجابه: لست مسؤولا عنها لأن القوة إليكم ولكني أكون مسؤولا مادمتم تاركين الناس هادئين يطلبون حقوقهم بالطرق السلمية فإذا تركتموهم فأنا حينئذ مسؤول عن الفتنة إن بدأوكم بها وما أظنهم بادئين. ثم زاد المقيم: إن وزراءكم لم يجمعوا على فكرتك. فجمعهم وخطب فيهم قائلا: من كان منكم لا يرى ما يراه الشعب فليرفع به عقيرته ولا يخافن أحدا فقالوا جميعا: نحن وراء سيدنا أين ما كان . فامرهم بالذهاب إلى الإقامة العامة ليخبروا المقيم العام بأنهم متضامنون مع السلطان فذهبوا وصرحوا بالموافقة.

المشاورة حول الوثيقة

ثم أمر السلطان وزراءه أن يعقدوا مجالس مع الوطنيين لدرس الوثيقة هل تؤخذ برمتها أم يؤخذ ما يمكن وانتظار وقت ما لا يمكن وهو ما يعبر عنه بالإصلاحات فانعقد مجلسهم بدار بركاش وزير الأحباس حينئذ وتداولوا حول المسالة وانتهوا إلى أنه لا يمكن إلا الاستقلال وطلب ما في صلب الوثيقة برمته ورفعوا بذلك تقريرا.

بدء الحوادث ورد الفعل في 2 صفر 1363 ـ 28 يناير 1944

حضر وزير خارجية فرنسة التي في المنفي فاقتبله صاحب الجلالة سيدي محمد بن يوسف وتبادلا خطبتين وديتين في الظاهر وبمجرد افتراقهما امرت السلطات الاستعمارية بقطع الطريق على جميع الوفود القادمة إلى الرباط بقصد جلالة الملك ونكلوا بمن وجدوه مسافرا ثم بدأت الحوادث بمراكش فقبض على ثلاثة عشر رجلا من أعيان المدينة المتضامنين مع السلطان حول الاستقلال وكان الجلاوي في طليعة المحاربين لفكرة الاستقلال وفي الليلة الموالية قبض على وطنيين بالرباط وأوقف الوزيران السيد محمد بن العربي العلوي وأحمد بركاش وفي الوقت نفسه قبض على وطنيين بفاس ثم تتابعت الاعتقالات والاضطهادات والقتل والنهب والترويع بكل أنواعه ففي يوم السبت 3 صفر 1363 ـ 29 يناير 1944 وقع الإضراب العام وعم عواصم المغرب وتظاهر الناس والتجأوا إلى القرويين يتضرعون إلى ربهم ويستنكرون الأعمال الوحشية التي ارتكبها الفرنسيون انتقاما من المغاربة المطالبين بحريتهم وبحياة كريمة وتليت خطب لتثبيت الشعب وتحريضه على القيام بالواجب وإسعاف المجهدين والجرحى والمحتاجين. وفي هذه الأثناء أرسلت الحكومة جيوشها فسدت الحارات على الناس وتركوا الناس يموج

بعضهم في بعض ووقع في المدينة هلع عظيم. وقد تقدم ان المقري والحجوي والجلاوي مالأوا الفرنسيين وأعانوا بما قدروا عليه ماديا ومعنويا بينما عارض ذلك مثل ابن العربي وبركاش فكان مصيرهما العزل والتغريب وبهذه المناسبة مد الفرنسيون أيديهم إلى أموال الناس وأمتعتهم ونهبوا وأشاعوا الفساد كعمل المنتقم أو اليائس الذي يريد أن يرجع من الغنيمة بما |أمكن وأفقروا الناس وأجاعوهم ولو حاولت تفصيل ذلك لعده من يأتي بعدنا مبالغة وتصوير خيال وتسمين ذا ورم ولكن الواقع الذي رأيناه وشاهدناه هو ذاك.

وفي يوم الأحد 4 صفر 1363 - 31 يناير 1944 تقدمت جماهير من أهل الرباط إلى الإقامة العامة تطالب بسراح أحمد بلافريج واليزيدي فأطلقوا لهم هذا الأخير وقالوا لهم: إن خبر أحمد بلافريج تجدونه بالقصر فهرعوا إلى القصر الملكي فقابلهم المعمري وزير القصور الملكية وكلمهم ولكن العامة ألقي إليهم أنه يقول: إن بلافريج ألماني فأجابوا: إن كان ألمانيا فكلنا ألمانيون. ووقع سوء تفاهم في المحاورة فشاولوا المعمري وطرحوه أرضا وضربوه بهراويهم حتى أفقدوه صوابه وأدموه حتى أشرف على الموت والملك ينظر إليهم من الشباك فطلع إليه أمير حرسه يستأذنه في إخراجهم ولو بالقوة فنهاه ثم جلسوا أمامه فقرأوا سورة الفتح ثم خرجوا وحمل المعمري إلى المستشفى فلما أفاق ونقه وعقل سألوه أن يسمي لهم من بدأ بضربه وإهانته ليقتص منهم فأجابهم بأنه جعل من ضربه أو سبه أو أهانه في حل سواء حيي أو مات فعجب الفرنسيون من هذا الموقف الشريف ولم يصب أحد بسببه بأذى.

أفظع وحشية

وفي عشية هذا اليوم قبض على جماعة بفاس كما قبض على مكتب قدماء التلاميذ بفاس وهم جماعة وفي الليلة الموالية احتل عسكرهم المدرسة المحمدية وفندق وشارع الشماعين وجميع الشوارع الرئيسية في المدينة وقطعوا المرور على الناس وأشهروا السلاح في وجوههم. وفي يوم 3 صفر 1363 ـ30 يناير 1944 احتلوا أزقة المدينة وسطوح الدور البارزة والمدارس وسطوح المساجد والفنادق ودور السلع وكل محل عام بجنود مدججة بالسلاح وأكثريتهم من السودان وحفروا الخنادق وغرسوا الأسلاك الشائكة وعبأوا كواكب الجند على كل منعطف . الأمر الذي يدل على أنهم مصممون على القتال. ولكن من يقاتلون؟ يقاتلون أولئك الذين لا حيلة لهم إلا الالتجاء إلى المساجد يدعون ربهم في كشف الغمة التي حلت بهم ويتضرعون إليه أن يحميهم ويحمي المعتقلين ظلما وعدوانا وليس بأيديهم أي وسيلة من وسائل الدفاع إلا إيمانهم بأحقية مطالبهم التي يحاولونها بالطرق السلمية وهذا الإيمان لا تقهره حرابهم المسنونة ولا قنابلهم المتفرقعة . وفي هذه الأثناء حلقت فوق المدينة طياراتهم في ارتفاع قريب جدا يرهبون الناس بإمطارهم إياهم رصاصا من رشاشاتهم وفيهم النساء والصبيان والعجزة وما أزفت الساعة الحادية عشرة حتى بدأ المعتدون يطلقون الرصاص على المسالمين في الأزقة وفي المساجد وعلى نوافذ الدور فأينما وليت وجهك تجد كواكب منهم تطلق شواظا من نار ونحاس فأصبحت فاس كأنها موقد نار أو جحيم بوار فسقط في هذه الساعة اثنان وثلاثون قتيلا دون الجرحى والجرحى نحو الثمانين رجلا وفي غداة غده أصبحت رشاشات الأعداء تصلى الدور المغلقة على أصحابها وتسدد إلى السطوح على النساء والأطفال وحلقت طائرات فوق المدينة واصلت سطوح المدينة وابلا من

مدافعها. ومن هذه الأعمال الوحشية أني كنت مع خمسة معلمين بالمدرسة الحسنية بزقاق الحجر فهبطت كوكبة من الجنود ونحن في طبقها العلوي فلما حاذوا المدرسة ألقوا إليها عدة من القنابل اليدوية بقصد أن تدخل من النوافذ ولكنها وقعت كلها حول النوافذ ولم تدخل واحدة منها إلا شظاياها فقد كسرت زجاج النوافذ وهزت علينا سقوف المدرسة حتى ظننا أنها خرت بنا ولكن الله سلم فنفضنا عنا غبار الموت وجلسنا ننتظر الإعادة منهم كالمنتظر للموت المحقق ولكنهم هبطوا ظانين أنها فارغة. هذا شأن كل دار مشهورة في فاس أو محل عمومي. فتأمل رعاك الله أي وحشية هذه وأي قسوة تقاس بوحشية من عمد إلى العزل فأخذ يجرب فيهم سلاح أسياده الأمريكان المستعار وهل سمعت أحدا سدد سلاحه إلى العزل والنساء والعجزة والصبيان من غير ان يقاتلوا أو يثيروا فتنة. علام فعلوا كل ذلك؟ على انهم طلبوا استقلالهم وحياتهم الكريمة بطرق سلمية لم يقلقوا فيها أمنا ولا شوشوا راحة ولا منعوا واجبا ولا حرضوا على شيء من ذلك. اللهم فاشهد فإنك خير الشاهدين وانتقم فإنك خير المنتقمين. وما زالوا مع ذلك يلتقطون الوطنيين إلى السجون والمعتقلات وإلى حد كتابة هذه السطور أنتظر أن يدخلوا علي ليأخذوني أيضا. وقد فعلوا ذلك كما قدمت وأطلقت بعد حين.

وبعد مراجعات مع العلماء نحو أسبوع كلما دعاهم الجنرال سوفران الاشل يطلب منهم حل الإضراب يجيبونه بسراح المعتقلين فيطلب منهم دية قتيل القرويين وسلبه ومسدسه وغرامة الحرب فينفصلون عن غير شيء. وكان ممن تصدر للكلام في هذه المؤتمرات مولاي أحمد الشبيهي والسيد محمد بن عبد الرحمن العراقي. ولما يئس منهم حولوا نهر فاس عن مجراه وقطعوا الماء البلدي عن المدينة وحاصروا أبوابها لئلا يدخل إليها الطحين والخضر

والوقود فوقع الناس في شدة وبلاء وقام المحسنون بالإسعاف فخففوا ما شاء الله أن يخففوا إلى أن قبض عليهم يوم 11 صفر 1363 – 7 فبراير 1944 في نحو أربعمائة معتقل . تركوا الناس حتى دخلوا مسجد الرصيف فطوقوه وقبضوا على كل من فيه جملة.

وفي يوم 15 صفر 1363 – 11 فبراير 1944 أغلقوا المساجد ومنعوا الناس من صلاة الجمعة ولم تكن قطعت منها منذ الف سنة إلا في شدائد مثل هذه. ثم ألقي القبض على جميع العلماء المفاوضين وغيرهم في يومي 17 صفر و18 منه الموافقان لـ 12 و13 فبراير. ولما انتهوا من إخلاء المدينة من رجالها شرعوا في الهبوط إلى الدور ينهبونها ووضعوا لذلك برنامجا منسقا يوما لدور التجارة في الحي الفلاني ويوما للحي الآخر ويوما للقيسارية ويوم كذا لدور ذوي فلان وذوي فلان ثم نفذوا ذلك بكل دقة كأنهم يقتسمون غنائم الحرب ولم يتركوا في الدور والمتاجر والقيسارية نقيرا ولا قطميرا إلا محل من كان مواليا لهم. ثم أمروا أهل البادية قوادا وأشياخا أن يعتقلوا كل مدني وجدوه في ترابهم فكان يرد في كل يوم وفود المعتقلين ثم أتى دور طلبة المدارس فإنهم طوقوا مدارس الطلبة الآفاقيين بفاس ونهبوا كل ما وجدوه في بيوتهم وباعوا كتبهم وأمتعتهم بالمزاد وألقوهم في غيابات السجون وبعد التعرف إلى أنسابهم بعثوا كل طائفة إلى قبيلتها مع توصية بتعذيبهم وإدانتهم وظنوا أنهم أحسنوا صنعا ولكنهم بعثوهم رسلا للوطنية يؤدون رسالتهم بحالهم وأقوالهم وهكذا شأن الاستعمار فكلما نفى أحدا إلى جهة كان هذا المنفي رسولا للوطنية ينشرها حيث ذهب فعمت وازدهرت وأثمرت أحسن الثمرة وكانت السبب في فك الغل عن أعناق المغاربة أجمعين.

أشلاء الشهداء

صبيحة ليلة الوقعة جمع الناس أشلاء الشهداء ليدفنوهم في موضع واحد فعارضهم رئيس البلدية مصحوبا بالجنود والدبابات والرشاشات وأمرهم أن يفرقوهم في الدفن ولا يجمعوهم ووقفوا حتى ردموا تلك القبور ورجعوا بتوابيت الشهداء إلى مسجد الأندلس وفي الليل دفنوهم سرا في موضع واحد متحدين بذلك معارضهم رئيس البلدية المذكور. وسقط في يده لأنه لا يقدر على نبشهم وتفرقتهم لما فيها من سوء السمعة. والمنع منه كان سببه أن هؤلاء الشهداء إذا دفنوا في موضع واحد يصبحون سببا للهياج في كل سنة وذكرى الأمة لهذه الحوادث الدامية وهذا غاية في التهاتر وتحدي الشعور. الا يكفي في ذكرى المآسي فقدانهم لحريتهم المصاحب لهم في السوق وفي الدور وفي المدارس وفي الحقول وفي النوم وفي اليقظة؟ فكيف يكون هؤلاء الشهداء وحدهم ذكرى للمأساة؟ والمأساة الكبرى والدائمة قائمة وهي فقدان الحرية. أما الموتى فقد أدوا واجبهم وأفضوا إلى ما قدموا.

نتائج هذه المذابح وأشباهها

لما واجه الشعب الحقيقة وعلم أن السلطان في جانب الوطنية وأنه أصبح حامل راية الاستقلال آمن بنجاح قضيته...... ذلك أن معظم الشعب كان الفرنسيون يشيعون بينهم أن الوطنيين قلة غير قانونية وأن السلطان لا يوافقهم فاستكان الشعب زمنا طويلا لأنه كان لا يرى من السلطان مظاهر التأييد لمطالب الوطنيين فلما أصبح السلطان يلقى على مسامع شعبه خطب العرش يستعرض فيها الأعمال التي أنجزت والتي يجب أن تنجز وأصبحت خطبه تشبه خطب الوطنيين ومن جنس كلامهم اضطر بحكم الاقتناع إلى

السير في ركاب الوطنية التي يدعو اليها السلطان فانهار السياج السميك المتين الذي وضعته الحماية بين الملك والشعب وأصبح الناس كلهم وطنيين بالطبع ولاسيما لما نفوا من المدن من نفوا من الطلبة وغيرهم وكان هؤلاء يحملون الأفكار الوطنية فأشاع كل واحد ما يحمله حيث القى عصا التسيار. أضف إلى ذلك ان الفرنسيين منذ حوادث 1944 بدأوا ينتهكون حرمة الملك بعدما كانوا يعظمونها فعلم الناس أنه يجب عليهم الوقوف إلى جانبه لأنه وكيلهم المقتدر وحارس شؤونهم الوفي. والحقيقة أن الوطنية كانت تتأرجح منذ 1930 بين مد وجزر إلى أن نزل السلطان إلى الميدان عام 1940 فرجحت كفة الوطنية رجحانا ما له من مثيل. الأمر الذي دفع الفرنسيين اليائسين إلى فعلتهم الشنعاء سنة 1953 الآتية والتي كانت السبب الرئيسى في تعجيل الفرج وزوال المحنة.

هذا وما رأيت وطنية قامت من الشعب صرفا وأيدها حاكم بلادها تأييدا صرفا فنجحت نجاحا صرفا مثل وطنية المغرب. ولقد صدق شكيب أرسلان رحمه الله في قوله: إن وطنية المغرب الله مديرها فقيل له : وكيف ذلك فأجاب: إن عمل الوطنية المغربية بسيط في حد ذاته ولكن دويه في الخارج يكون له تأثير لا مثيل له. ولقد صدق رحمه الله. ويذكر أن دوكول الفرنسي لما اتصل بتشرشل بمراكش وشاوره في مد اليد للوطنيين المغاربة أجابه بقوله: إن المغاربة نفعوكم في حربين كبيرتين ونفعونا وما رأينا منهم إلا الخير فالأحسن أن تبقوا معهم على وجه جميل. فلما ألح عليه قال له: «اعلم أن العالم العربى اليوم كالطبل إذا ضربته من هذا الجانب رن من الجانب الآخر فاحذروا أن تحدثوا ما يضر بكم في المغرب». ولكن غطرسة الفرنسيين لم تتركهم ينتصحون بنصيحة عجوز السياسة العالمية تشرشل فوقعوا فيما حذرهم منه فكانت على المغرب بردا وسلاما.

بعد هدنة 1940

لما انهار دفاع فرنسة في هذه السنة 25 جوان أواخر ربيع 1359 طلبت هدنة من ألمانيا ولم تستطع فرنسا ان تدافع عدوها إلا ستة أيام بما في ذلك انجلترا فأجيبت إلى الهدنة وأرجئت شروط الصلح إلى نهاية الحرب. ومن شروط الهدنة بقاء ما وصل إليه جيش ألمانيا تحت الاحتلال الألماني وأن لفرنسة أن تؤسس حكومة في فيشي يرئسها الجنرال بيتان لأن الألمان لم يرضوا أن يتحادثوا مع أفراد الحكومة التي أشهروا عليهم الحرب وقد فروا أيدي سبا، وظلت جميع البلدان التابعة لفرنسة قبل الحرب على حالها إلا سوريا ولبنان فإنهما أعلنتا استقلالهما هذه السنة بعد عراك عنيف تدخلت فيه لندن ضد فرنسا لتسلم بتحريرهما فحررتا واستقلتا. ثم هاج بعض مثيري الفتنة ومنهم نوكيس ورجا من السلطان أن يوافق على الثورة على الألمان وعلى فرنسة بيتان فأجابه السلطان بان المغرب مرتبط بفرنسة التي في أوربا وأما أنتم فممثلون فقط فإذا كان لابد من قطع علاقاتنا مع فرنسة فلأجل أن نستقل لا لنصبح تابعين لفرنسة التي في إفريقيا أو غيرها. وبذلك أصبح شمال إفريقيا بعيدا عن الاضطراب العام وإن كان الاضطراب الداخلي وتكالب الحماية على ابتزاز أموال الناس وسلبهم من كل ما يطلق عليه اسم مال قائما. صرحوا للناس أنهم لا يملكون مع الحكومة شيئا وأن كل ما بأيدي الناس رهن باشارتهم ومنعوا تسرب منتوجات مقاطعة إلى أخرى وأدخلوا على الناس صعوبات وضيقا كبيرا في ضرورياتهم وأجاعوهم إجاعة ما عرفت السنون مثلها. وكان الرجل يكون له مال كغنم أو بقر أو صوف أو زرع أو غير ذلك في مقاطعة أخرى فيحرم منها وتصادره حكومة الحماية علنا.

كانوا وظفوا على الناس في أول الأمر ثمانين في المائة مما يملكون وما لبثوا أن وظفوا عليهم المائة في المائة سنة 1942 فالصوف كله لهم

والخراف والزيتون والزرع كل ذلك لهم فلحق الناس من ذلك بلاء شديد وجهد عظيم حتى ترك الناس أسباب العيش من حرث وتربية ماشية وعناية بالزيتون وساءت حالة الأمة إلى حد يبعث على اليأس. ثم احتكروا التجارة الداخلية والخارجية وشاركوا الناس في أعمالهم وأصبحوا يبيعون حتى أبسط الأشياء كالحطب والفحم والقش. وهذا كله جره علينا غرامة الحرب لجيش الاحتلال الألماني الذي فرض عليهم.

نتائج هذه الحال

نحن إذا استثنينا صنائعهم الذين تخموا بمصانعته نرى الشعب قد علا وجوهه شحوب وتجعيد وصفرة وغبرة نتيجة لسوء التغذية أو لعدمها مطلقا وخصوصا في البوادي وأطراف المدن والأحياء الفقيرة. تلك هي السحنة التي ترى عليها الناس في هذا العهد ولا تجد أحدا إلا متلهفا يلهث وتسرب اليأس إلى النفوس وساءت الأخلاق وصغرت الهمم بسبب المجاعة ومسخ منظر المغاربة الذين عرفوا بالنظافة والهندام الجميل فأصبحوا في أسمال قذرة وأطمار بالية وأوساخ منتنة لعدم الصابون واختصاص الأسياد وأذنابهم به فتسبب عن ذلك تفشى مرض الوباء الذي كانوا يسمونه التيفوس وسرت عدواه فأتى في نصف سنة على نحو خمس السكان وخصوصا من الشبان الأصحاء العاملين فلا تمر بشارع إلا لقيت عدة من التوابيت للموتى وكان معدل من يدفن بفاس خلال الستة اشهر من سنة 1942 نحو 50 دفينا في اليوم والأسياد لا يزدادون إلا قسوة وتشددا ومصادرة لأموال الناس وفي ذلك أقول من قصيدتين أولاهما:

دعاني هنا فالخطب حولي مشدد … وهيأة قومي في اجتماع تبدد

وفي كل حي للعويل مناحة … وفي كل يوم للرزايا تشدد

تطوف إن جبت البلاد شوارعا يطوقها السؤال ماش ومقعد
بشفرته قد أعرق الجوع نحضهم واعلمهم سيما الذين تقددوا
كأنهم العيدان يلحى لحاؤها مآلهم في الفرن كسر وموقد

إلى آخرها وهي نحو 57 بيتا تركتها لتدوينها في ديواني ولطولها ومن آخرها:

تضيق بموتانا المقابر أينما مررت بنا هالاك نعش وملحد

ومررت مع أحد المتعلمين بجنان أبي الجنود في هذا الوقت فجعل يمدح يد الإصلاح التي تناولت المنتزه وما يليه فقلت في القصيدة نفسها:

ورب رفيق أبهجته مناظر تناولها الإصلاح والناس تفسد
كمالية ما ضر لو هي أهملت وواجبة نحو الأناسي تجحد

والثانية مطلعها:

ما للمعايش بين الرصد والحرس لا تستطاع لمرتاد ومحتبس
قل لي لمه ضربت اسداد تجزئة بين المناطق كالعانين في بلس
نمسى ونصبح لا حب ولا ثمر كالعير طول للمرعى على يبس

ومنها:

يجننا حندس التاريخ مطردا في حين ان الورى في آخر الغلس
قوم عليهم من الألمان غرم وغى وللأداء غريم ضامن الفلس
بنا تشد فروج الحرب إن ثلمت «بجبهة العير يفدى حافر الفرس»

على هذه الحالة عاش المغاربة ردحا من الزمن يئنون تحت كلكل الاستعمار ولا يملكون من الدفاع إلا البكاء والعويل وحتى هذان يعاقب عليهما الاستعمار وقد عبرت عن ذلك فيما يلي من قصيدة هي أول قصائد

ديواني المليء بالوطنيات:

وكم من حديث قد أحاول بثـه ... أخفف عني بعض ما حاك في صدري

فلم تطب النفس التي شق عبؤها ... إلى طرحه في ريبة خوف مستشري

فأودعه صم القراطيس كلما ... أثرت لغاها حدثتني على ذكر

وقل لزمان نحن فيه كما ترى ... أحمل فيه الصمت إصراً على إصر

أأنت من التاريخ ام لمعة بدت ... على صفحة المعدوم تسخر من عمري

لئن كنت حيا ما الحياة التي ارى ... وكيف ترى من لا يقول ولا يسري

مقيد فكر لا يحاول بثه ... مكمم نطق بل مقيم على الأسر

جمود وفيه روح نام مشجر ... عضاه فلاة لا تريش ولا تبري

فكنا ولكنا كأن لم نكن لدى ... برازخ لم تخلص لدنيا ولا قبر

إلا فاعتبر يا من سيلحق بعدنا ... وعذ بجلال الله من حادث الدهر

متى يفسح الكابوس عن صدر مرهق ... فينقل من عسر عقيم إلى يسر

وفي الثانية بعدها مطلعها:

يحدثني سرى إذا رن مزهر ... بجس معن في الحلى يتبختر

تلك هي حالتنا في أيام الحماية المشتدة ولكنها تتخللها فترات كنا نصول فيها ونجول ونبدى فيها ميولنا ورغائبنا وتقدم فيها مطالبنا ولكن الاستعمار الفرنسي يفقد تلك المرونة التي يمكن له بها أن يعيش مع الوطنيات والقوميات الأخرى فهو إما أن يأخذ المثقال بتمامه وإما أن يخسره كله وذلك ما وقع عندنا فإننا في أول الوطنية كنا نطالب بإصلاحات في إطار الحماية ونكبت الوطنية المغربية ورجالها من أجل ذلك من سنة 1933 إلى سنة 1944 ثم جاء طور طلب الاستقلال عند اليأس من سماحة الفرنسيين

بالإصلاحات المطلوبة وكان الاستقلال المطلوب سنة 1944 يمكن أن ينجز تدريجيا: فالداخلي مثلا حتى إذا مرت فترة يتكون فيها الإطار الداخلي يأتي الخارجي والجيش والمال . ولكن الفرنسيين جمدوا جمودهم المعروف وحاولوا رغم ذلك قتل الوطنية في شخص محمد الخامس فارتكبوا فعلتهم الشنعاء بإبعاده ظانين أنهم قضوا على أصل الداء فلم يلبثوا إلا سنتين ثم رجع صاحب الجلالة وجاء الاستقلال الكامل وخسر الاستعمار صفة الأستاذ والمعلم الذي كان يطالب به الوطنيون فان الاستقلال التدريجي معناه أستاذية الاستعمار للمغاربة لأجل غير مسمى . ولكن طبيعة الاستعمار غير طبيعة الأستاذية لأن طبيعة الأستاذية بناءة مكونة وطبيعة الاستعمار هدامة مفنية فهما متناقضان. ولله در الشاعر العربي إذ يقول:

ومكلف الأيام غير طباعها متطلب في النار جذوة نار

أهل فاس

إن أنس لا أنس مجتمعا حضرته بفاس سنة 1940 كانت اكثريته ممن يعدون أنفسهم وطنيين وهم نوع من أهل فاس لا يمثلون نبلاءهم وجرت مذاكرة حول انهيار فرنسة فأثيرت قضية الاستقلال وقال قائل: لنفرض أننا أحرزنا على الاستقلال فكيف تشكل الحكومة؟ فانبرى أحدهم فقال: أنا أشكلها لكم فقلنا تفضل ثم قلت له: من رئيس الوزارة؟ فقال فلان فقلت حسن ثم من؟ فقال فلان فقلت حسن ثم من؟ فما زلت أسأله ثم يشير إلى أن عد ثمانية عشر وزيرا لم يخرج بأحد منهم من فاس فالتفت إلى الجماعة وهو منهم فقلت لهم: بالله عليكم كيف تتصورون بقية المغاربة؟ فقالوا: نتصورهم بشرا وفاس دماغهم فقلت لهم: إنكم سترتطمون بصخرة المغاربة التي كسرت جميع الأدمغة في العالم ولا أكتمكم أنكم مغرورون. أتظنون أن

المغرب كله ليس فيه رجل صالح للإدارة وأنتم وحدكم الصالحون لذلك؟.
فلما شعروا بحرج الموقف طلبوا من صاحبهم سحب تصريحه ورجعوا عليه مؤنبين وقالوا: هذا اقتراح فقط ولا صبغة له من الاعتقاد الجماعي فانفضضنا على نفور. وتأنيبهم له ما كان إلا مجاملة وإلا فهي عقيدتهم القديمة وهي طبيعتهم اللازمة والدليل على ذلك استبدادهم لأول الاستقلال بجميع المناصب وحشرهم إليها كل من هب ودب ودرج منهم وسيأتى تفصيل ذلك.

«لم يشهد كاتب المذكرات ما وقع من طوائف أخرى بعد وفاته استبدت بالمناصب حتى غدا هذا النوع نفسه من أهل فاس اقلية مغلوبة بينهم. لذلك فاختصاص نوع من أهل فاس بالأثرة والأنانية هي سنة كل منتسب إلى قبيلة أو جماعة أو مدينة أو قرية. ولعل السبب في شدة كاتب المذكرات عليهم سوء صنيع بعضهم معه قبل سنة 50 وبعد 44 فقد تآمروا عليه وزوروا عليه الكلام والعمل عند السلطان واعصوصبوا عليه وآذوه ولم يفلحوا في ذلك لتقدمه عليهم في العمل الوطني ولنقاء طويته ثم جاء الاستقلال فكتب بعضهم تواريخ مزورة ترفع من شأن ذواتهم وتلغى غيرهم وتجعل حوادث حياتهم العادية مفاصل تاريخية في حياة الأمة بل بلغ الامر ببعضهم أن زوروا وثيقة المطالبة بالاستقلال فجعلوا فيها من ليس منها وحذفوا منها أسماء بعض الوطنيين الذين وقعوها وقدموها إلى السلطان وكان اسم كاتب المذكرات مما حذف لأسباب حقدية أو لحزبية ضيقة أو لخصومة. ومن المؤسف أننا لا نعلم في هذه المذكرات ولا في غيرها رأيه في اللوائح التي تنشر للموقعين على الوثيقة فإنه كتب مذكراته قبل اشتغال الناس بالاحتفال بها ولها وكنت أشاهده وهو يعيد كتابة الأجزاء الختامية منها سنة 1958 بينما لم يحتفل بذكرى تقديم الوثيقة ولم يشرع في نشر لوائح الموقعين

المتباينة بين الجرائد والأحزاب إلا بعد سنة 1970 أي بعد وفاة كاتب المذكرات بسنين. ولو نشرت وهو حي لكان له رأي فيها ولكتبه هنا . ولكن ما في هذه المذكرات عن الوثيقة كاف لفضح التزوير القائم ـ أحمد العلوي».

والحاصل أن هؤلاء أصبحوا بفاس كالطفيليات. ترعرعوا على حساب غيرهم وطلعت شجيرتهم غير ذات الساق كالعليق على دوح البيوتات فأذبلتها وأصبحت هي مخضرة فوق جذوع تلك تتمتع بالهواء الطلق بينما تحجبه عن عريشها الذي طلعت عليه. وإذا تكلمت هنا عن أهل فاس فلست أعني بهم بيوت الأشراف ولا بيوتات العرب العريقين في المجد ولا بيوتات أبناء القبائل المندمجة بفاس وإنما أعني منهم قوما آخرين يعلم العارفون أصلهم ونسبهم ونفسياتهم وأخلاقهم ودينهم وأحوالهم وما تنطوي عليه سرائرهم.

ولما اطلعت على وطنيتهم سنة 1947 كفرت بوطنيتهم الفاسدة وتركت سوقهم الفاسدة وحاولت ولكن من لا تسعني مخالفته قام في وجهي «يقصد هنا السلطان» كما سيأتي إذ لا وطنية لهم حقيقية ولا مبدأ لهم صحيح إلا ما اتصل بمنفعتهم أو كان مصطادا لمصلحتهم فقد كان الرجل منهم يكون له إخوة فيتوزعون قصدا على جهات ليأخذ من فازت جهته بيد أخيه عند الاقتضاء: يكون هذا مثلا في حزب الاستقلال وهذا في حزب الشورى والاستقلال وهذا في صف الجواسيس وهذا في صف الطرقيين فإذا اجتمعوا ليلا ولابد من اجتماعهم أتى كل منهم بما حدث وقرر وما خط عند أصحابه فيمسون على علم صحيح بما عند كل جهة. وفي الصباح يبلغ كل واحد منهم لجهته ما عند الآخرين فتصبح الأسرار مفشاة والسرائر مبثوثة ورجال الوطنية الصادقين مفضوحين وتلك هي الطامة التي كانت تدك صروح الوطنية عند المناسبات. ولما جاء الاستقلال من عند الله نحلة

أصبحوا كلهم وطنيين وكلهم فدائيين وكلهم مخلصين فلم يتركوا مرفقا اقتصاديا الا التهموه ولا وظيفا شريفا الا عمروه. وجفي الأحرار المضحون ولم يجدوا حتى الخبز القفار والماء القراح بينما يستهلكون ميزانية المغرب ويستحوذون على المرافق التجارية والاقتصادية الكبرى والشعب عبد مطيع وضحكوا على أذقان المخلصين البله ضحكة الشامت المتشفي.

الجرائد الوطنية

وقد كنت أكتب في عدد من الجرائد، منها في المغرب جريدة المغرب وجريدة الأطلس ومنه جريدة الرأي العام وجريدة مراكش وفي الجزائر جريدة البصائر للعلماء المسلمين وفي تونس جريدة النهضة وفي الجزائر أيضا جريدة الإصلاح. هذه كلها نشرت فيها إما دفاعا عن لغة المغرب أو دينه أو عن حدوده وأطرافه وإما عن استقلاله ووو إلخ. ولكني منذ أصبحت الجرائد لا تنشر إلا لمن اشترت ضميره كففت عن النشر وألجمت قلمي ولقد حاول مني كثير من أهل الجرائد موافاتهم بكلماتي فتصاممت عنهم إلى الآن وصنت حرية تفكيري وضميري وجعلتها في حصن حصين من أن يساومها فلان أو فلتان.

الغرض من نشر تاريخ الحدود

كان غرضي فيما نشرته سنتي 1947 ـ1948 في جريدة الرأي العام تباعا في أعداد تبلغ 18 عددا عن الحدود الشرقية والجنوبية أمرين مهمين: الأول دفع المغاربة إلى الضغط على فرنسة وإسبانيا لتعلنا أن الأراضي التي صرفت الكلام عنها هي محميات من جملة تراب المغرب حتى إذا جاء الاستقلال الذي كنت مؤمنا به سهل ضم أطراف المغرب بعضها إلى بعض. والثاني رد

جماح إخواننا الجزائريين الذين لم يقنعهم وطنهم العزيز الذي هو وطننا أيضا إلا إننا وإياهم كعائلتين من أب واحد فيجب على كل عائلة صيانة حدود بيتها ثم لا يضرهم اتحادهم بعد ذلك ولاسيما لما استغلوا انتقاص فرنسة لأطراف بلادنا وضمها إلى الجزائر ظانة أن الجزائر جزء من فرنسة كما تدعيه ثم كتب الأستاذ توفيق المدني في جغرافية الجزائر أن فيكيك من الجزائر..؟؟ وكتب ابن منصور في العلم الممتاز لعام 1947 أن المغرب تنازل للجزائر أو لفرنسة عن صحرائه الجنوبية الشرقية سنة 1913. فعجبت لهذا القول وقلت هناك: متى وكيف تنازل المغرب في هذا التاريخ وهل يتصور ذلك والمغرب في هذا العام في حجر الحماية ولعل المقيم تنازل للوالي العام فيكون من باب تنازل فرنسة لنفسها وهو قول مضحك يبعث السخرية من قائله وخشيت أن تصبح أجزاء المغرب غدا كقضية القبائل الشمالية في الباكستان ينازعها إياها أفغانستان لما كان الإنجليز اقتطعوها من أفغانستان وأضافوها إلى الهند وبقيت بها إلى الآن.

ومن بواعث الأسف أن المدارس الحرة الوطنية حينئذ كانت تعلم في مدارسها جغرافية المغرب وفق ما اقتطعه المستعمرون وعلى حسب ما يكتبون لأن هؤلاء المعلمين تلاميذ للاستعمار فما تلقوا منه إلا ذاك فتبنوا أفكارهم وجعلوها معتمدة ومعتقدة بل لقد ذهب الجهل بكثير من تلاميذ كوليج مولاي ادريس حينئذ ان لامني على ما أنشره مدعيا أن موريطانيا وريودورو ليستا من المغرب ومن هؤلاء اليوم من هو مسؤول كبير في الحكومة. وهكذا يكتب بعض كتابنا كابن عبد الله الرباطي في جغرافيته على غرار ما يرضاه ويرتئيه الحماة المستعمرون من غير قصد سيئ وإنما تبعا لما تلقوه صغارا في مدارس الحماة. كل هذه الاعتبارات دفعتني إلى كتابة ما كتبته حينئذ والناس عنه بين غافل وجاهل وبين محبذ ومنتقد وبين متهكم

وناصح ولم تبد لهم الحقيقة ناصعة حتى جاء الاستقلال وتصايح الناس هنا وهناك للمطالبة بالصحراء وشنقيط وكانهم قد فوجئوا بهذا الطلب الجميل وعلم حينئذ أولئك المنتقدون أنهم كانوا أغبياء يوم كنت أصيح فيهم فلم يرفعوا لصياحي رأسا وصعب عليهم الآن ضم أجزاء المغرب لاستلحاق الدولتين لشنقيط والصحراء والحال أنه لو قامت يوم كتبت عنهما أدنى حركة لاعترفت الدولتان بما يطلب منهما ولكن الأمور تجري على غير سنن العقل والمنطق فتأتي نتائجها معوجة كقياساتها ولله في خلقه شؤون.

أما أنا أيها الفرد الضعيف فمنذ درست تاريخ المغرب ـ وقد عشت في أيام استقلاله الأولى وكنت أعلم أن شنقيط من المغرب ـ وأنا مؤمن بحدود المغرب وأجزائه وقد ألفت تأليفا كبيرا في جغرافية المغرب سميته «اكتشاف الناحية الخافية لجغرافية البلاد المغربية» أوضحت فيه أجزاء المغرب وكيف كان في إبان عظمته واستقلاله وكيف جزأته الأحداث بعد الحماية وأوضحت ذلك بخرائط ملونة تبلغ نحو 80 خارطة وهو كتاب ضخم ثم اختصرته في كتاب متوسط دراسي حبذته وقررته مادة للمدرس الابتدائي وكتابا مدرسيا للمدرس الثانوي. قررته اللجنة الملكية بكتاب رقم 607 تاريخ 29 ذي الحجة 1367 ثم اختصرت منه كتيبا مدرسيا لقسم الشهادة الابتدائية يشتمل كذلك على أجزاء المغرب المقتطعة فكان تلاميذ مدرستي وحدهم يحيطون بذلك علما فهم وحدهم الحاملون للعلم بحدود البلاد وأجزائها المقتطعة. وهكذا فعلت في الكتاب المدرسي المسمى «القبس الملتهب من تاريخ المغرب» فإني ربطت فيه بين أجزاء المغرب المجزأة وعرضت فيه لتاريخ التجزئة وظروفها . وهذا الكتاب هو الحجة عند المستعمرين على إدانتي سنة 1953. هذا وقد رأيت كتابنا يكتبون عن الصحراء ولا يتعرضون لحدودها المتاخمة للسينغال ونيجريا كأنها معروفة مشهورة مع أن أول ما

يحتاج إليه المدعي هو حدود المدعى عليه لتكون الدعوى معتبرة والمدعى فيه معروفا متميزا وهذا مما يضعف طلبهم وحتى إذا أجيبوا بتحرير الصحراء فإن مشكلة حدودها ستقف أمامهم أيضا وتعود المشكلة كما هي. ومن الملاحظ أن إخواننا الشناقطة اليوم إذا تكلموا عن بلادهم وطالبوا بإلحاقها بالوطن الأم لا يتعرضون لحدودها الجنوبية رغم أن صاحب الوسيط في أخبار شنقيط حددها تحديدا دقيقا. وبعد ففيما يلي ملخص ما نشرته حول الحدود والصحراء موجزا جدا وذلك لضياع أصله وضياع القصاصات التي نشر فيها بسبب التفتيش المتكرر الذي كانت منازلي غرضا له مرات عديدة فيما بين سنة 1951 و1954 من قبل المستعمرين.

الحدود الشرقية

كانت الحدود قارة بين المغرب وأتراك الجزائر بعد معاهدة الخروبي المشهورة حوالي 1150 هجرية الواقعة بين مؤسس الدولة العلوية المولى محمد بن الشريف وبين الأتراك . ثم لما تولى أخوه المولى الرشيد تجددت بينه وبين الأتراك في الربع الأخير من القرن الثاني عشر وكانت الحدود هي نهر تافنة . ولما تولى المولى إسماعيل اخترق هذه الحدود واحتل الجزء الغربي من الجزائر فاحتج الأتراك عليه بمعاهدة أخويه السابقين عليه فنزع عن الجزائر واكتفى كذلك بما دون تافنة حوالي سنة 1200 . وصارت الأمور على هذه الحدود فكان نهر تافنة هو الحد الفاصل بين الشرق والغرب في الشمال وكانت عين صالح وتوات والساورة ضمن تراب المغرب في الجنوب وما وراءها من فياف هو الحد الفاصل في الشرق الجنوبي إلى أن احتلت فرنسة الجزائر فكان ما بيد الأتراك هو الذي حاولت فرنسة احتلاله. ولكن غرب الجزائر بايع مولاي عبد الرحمن حوالي منتصف القرن الثالث عشر غير أن الأمر لم

يتم بعد احتلال المغرب لتلمسان فانسحبت جيوش المغرب ورجعت إلى حدودها ولم تحاول فرنسة ولا مدت عينها إلى الحدود إلا بعد حرب أسلي بينها وبين المغرب سنة 1260 موافق 1844 وبعد صلح هذه الحرب طلبت فرنسة في أحد الشروط الصلحية الواقعة في مغنية أن تتكون لجنة مركبة من مغاربة وفرنسيين يخطون الحدود سنة1261 الموافق 1845 على أساس إبقاء الحدود على حالها كما ينص عليه الشرط الخامس من شروط الصلح كما كانت أيام حكم الأتراك للجزائر. وفعلا اجتمع وفد المغرب يرئسه حميدة الأشجعي ووفد فرنسة يرئسه الجنرال ارستيد ازيدور كونت دو لاروا. والشرط الخامس المتقدم هو أساس الاتفاق المبرم بين هاتين اللجنتين ثم هو أساس الاتفاق المبرم سنة 1901 في الجزائر المفسر للاتفاق الواقع في باريز سنة 1900.

ومن المعلوم الذي لا يحتاج إلى دليل أن حدود المغرب مع الأتراك في الجزائر كانت تشمل بشار وتوات وعين صالح والساورة وتدخلها في المغرب كما هو الواقع وما يزال رجال من هذه المناطق يحملون ظهائر وطوابع التولية من الملوك العلويين مثل مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز بعد احتلال فرنسة للجزائر.

التحديد

اجتمعت لجنة حميدة ـ ارستيد واتفقوا على ما يلي:

«الحمد لله ولا يدوم إلا ملكه. هذا تقييد اتفق عليه نائب سلطان مراكش وفاس وسوس الأقصى ونائب سلطان الفرنسيس وسائر مملكة الجزائر فمراد السلطانين هو تصحيح عقد المحبة السابقة وثبوتها ولذلك ترى كل واحد منهما يطلب من الآخر الوفاء بالشرط الخامس في مكتوب

الصلح المبرم في 10 شتنبر 1844 ومصادقا بتاريخ 25 من شعبان 1260 وعين كلا السلطانين نائبه على تحديد الحدود بين الإيالتين وتصحيحها نيابة تفويض فنائب سلطان المغرب هو الفقيه حميدة الأشجعي عامل بعض مملكة المغرب ونائب سلطان الفرنسيس هو الجنرال اريستيد ازيدور كونت دو لاروا وصاحب نيشان الافتخار لدولتي فرنسة وإسبانيا فبعد الملاقاة بينهما وإتيان كليهما برسمي التفويض من سلطانه على ما فيه مصلحة الفريقين وجلب المحبة بين الجانبين اتفقا على ما هو مذكور أسفله:

الشرط الأول

اتفق الوكيلان على إبقاء الحدود بين إيالتي المغرب والجزائر كما كانت من قبل بين ملوك الترك وملوك المغرب السابقين بحيث لا يتعدى أحد حدود الآخر ولا يحدث بناء في الحدود في المستقبل ولا تمييزا بالحجارة بل تبقى كما كانت قبل استيلاء الفرنسيس على مملكة الجزائر.

الشرط الثاني

عين الوكيلان الحدود بالأماكن التي في ممر الحدادة وتراضيا عليها بحيث انها صارت واضحة معلومة كالخيط فما كان غربي الخط فلإيالة مملكة المغرب وما كان شرقي الخط فلإيالة مملكة المشرق.

الشرط الثالث

ذكر مبدأ الحدود والأماكن التي تمر عليها الحدادة: فمبدؤها ملتقى وادي عجرود مع البحر الأبيض واصعد مع الوادي إلى أن تبلغ المشرع المسمى كيس وسر كذلك مع الوادي إلى أن تبلغ راس العيون الكائنة بحجرة الكديات الثلاثة المسماة مناصب كيس وهذه الكديات الثلاثة داخلة في الحد الشرقي وسر من راس العيون مع الحمار إلى أن تبلغ ذراع الدوم واهبط إلى الوطاء المسمى الأعوج وسر كذلك وحوش سيدي عباد كالمقابل لك

غير أن الحوش نفسه يبقى داخل الجهة الشرقية نحو الـ500 ذراع وسر كذلك إلى جرف البارود الكائن بوادي بونعيم ومنه إلى كركور سيدي حمزة ومنه إلى زوج البغال وسر منه مياسرا إلى بلاد الطلح إلى سيدي الزهار المعلوم للعمالة الشرقية ومنه سر مع الطريق الجادة إلى عين تقبالت التي هي بين الواردة والربوتين المسماتين بالتوميات المعروفتين لإيالة المملكة المغربية واصعد من عين تقبالت مع وادي روبان إلى راس العصفور وسر كذلك مع الكاف واترك شرقا قبة سيدى عبد الله بن محمد الحمليلى وغرب مع ثنية المساميش وسر كذلك غير مشرق وغير مغرب إلى أن تبلغ قبة سيدى عيسى الكائنة بمنتهى طرفي مسيون والقبة وحرمها داخلان في إيالة المملكة الشرقية وسر مستقبلا من القبة المذكورة إلى أن تبلغ كدية الدباغ وهي تمام حد التل ومنها سر مستقبلا إلى أن تبلغ حنيف اللحدا ومنه إلى ثنية الساسي المعلومة لمملكة المغرب والحدادة المذكورة تستقيم من البحر إلى الصحراء.
من تمامها ذكر الأرض الملاصقة للحدود شرقا وذكر القبائل النازلة بها فاول الارض من البحر والقبائل أرض بنى منقوش التحتانية واعطية الذين هم لإيالة المغرب ومنزلهم أرض إيالة المشرق وسبب نزولهم واقعة وقعت بينهم وبين إخوانهم الغرابة فانهزموا فالتجاوا إلى المنازل التي هي سكناهم الآن ومازالوا يتصرفون في المنازل المذكورة بالكراء من مالك إيالة المملكة الشرقية إلى الآن وحتى الآن لكن تكرم النائب عن سلطان الفرنسيس على نائب سلطان المغرب بالوظيفة التي تؤديها هاتان القبيلتان المذكورتان لسلطان العمالة الشرقية فلا يطالبون بقليل ولا كثير ولا جليل ولا خطير رغبة في الاستئلاف والمحبة وجلبا للمودة بين الفريقين والخير والصلح والمهادنة وضيافة من النائب المتبرع المذكور على السيد النائب عن سلطان المغرب المسطور ثم يجاور تراب الفرقتين المذكورتين تراب مسيردة والأعشاش

وأولاد ملوك وبنى بوسعيد وبنى سنوس وأولاد نهار فهذه القبائل الستة من جملة عمالة الجزائر. وكذلك ذكر الأرض الملاصقة للحدود غربا وذكر القبائل النازلة فيها فأول الأرض من البحر والقبائل أرض أولاد منصور أهل طريفة وبنى يزناسن والمزاوير وأولاد أحمد بن إبراهيم وأولاد العباس وأولاد علي بن طلحة وأولاد عزوز وبني بوحمدون وبني حمليل وبنى مطهر أهل راس العين وهؤلاء القبائل بمنازلهم لعمالة المغرب.

الشرط الرابع

إن الصحراء لا حد فيها بين الجانبين لكونها لا تحرث وإنما هي مرعى فقط لعرب الإيالتين التي تنزل فيها وتنتفع بخصبها ومائها ولكلا السلطانين التصرف في رعيته بما شاء وكيف شاء من غير معارض إن امتازت وإلا فمن أراد إحداث أمر في رعيته حالة اختلاطها برعية غيره فليكف عن رعية غيره ويحدث في رعيته ما يشاء فالأعراب الغربية هي المهاية وبنى كيل وأولاد سيدي الشيخ الغرابة وعمور الصحراء وحميان الجنوبية والأعراب الشرقية هم أولاد سيدي الشيخ الشراقة وكافة حميان من غير حميان الجنوبية.

الشرط الخامس

في تعيين قصور إيالة المملكتين في الصحراء فعلى السلطانين اتباع الطرق السابقة وتوقير أهل هذه القصور رعيا لجانب المقيمين. أما قصور فيجيج وقصر إيش فلعمالة المغرب وأما العين الصفراء وصفيصيفة وعلة وتيوت وشلالة والأبيض وبوسمقون فللعمالة الشرقية.

الشرط السادس

إن الأرض التي هي قبلة قصور الفريقين في الصحراء لا ماء فيها فلا تحتاج إلى تحديد لكونها أرضا فلاة «ويعنون بذلك عرك الرمل».

الشرط السابع

إن جميع من التجأ من رعية الفريقين إلى الآخر فلا يرده من التجأ إليه لموضعه حيث أراد البقاء في ملتجإه وإلا فمن أراد الرجوع لموضعه فلا يتعرض له عامل ولا غيره وإذا عزم على البقاء فيبقى تحت حكم عامل المكان الملتجإ إليه ويكون آمنا في نفسه وماله احتراما من السلطانين لبعضهما. وهذا الشرط لا تدخل فيه القبائل الذين عمالتهم مبينة في الشرط أعلاه وغير خفي أن الأمير عبد القادر ومن في حزبه غير داخل في هذا الشرط لأن دخوله فيه موجب لبطلان الشرط الرابع في مكتوب الصلح المبرم في 22 شتنبر 1844 فإن العمل والوفاء به من أهم الأمور الموجبة لنفوذ كلمة السلطانين وتصحيح المحبة وإبقاء المودة بين الدولتين والألفة بين الجانبين.... فتطبع نسخة منهما بطابع سلطان الفرنسيس ويأخذها سيادة سلطان المغرب وتطبع نسخة أخرى بطابع سلطان المغرب ويأخذها سيادة سلطان الفرنسيس وتبادل النسختين إنما يكون بطنجة عن قريب إن شاء الله بعد أن يضع كل واحد من النائبين المذكورين خط يده وخاتمه في كل نسخة من النسختين وذلك بقرب الحدود بتاريخ 4 ربيع الأول 1261 الموافق 18 مارس 1845 والله يصلح الحال والمآل «في أصل الوثيقة: الحالي والمالي».

التوقيع:

الجنرال الكونط دولاروا

العامل حميدة بن على

«عن الإتحاف»

هو إبقاء ما كان على ما كان في أيام حكم الأتراك ولأمر ما نص في معاهدة الصلح على هذا الشرط صراحة وعليه بني الصلح ثم جلب في معاهدة التحديد هذه وجعل أساسا لها وصدر به ليبنى عليه غيره فإذا جاء

في الأوفاق بعده ما يخالفه بعد أن جعل أساسا للمعاهدة وجب تأويل ما يخالفه ليبقى الأساس ثابتا ساري المفعول ولا ينقض إلا باتفاق من الجانبين بتصريح صريح لا غموض فيه ولا لف ولا دوران والدليل على ذلك أن بشار والساورة وتوات وعين صالح المسكوت عنها في هذه الشروط كانت في عهد الأتراك تحت نفوذ المغرب ثم استمرت كذلك إلى وضع هذه الشروط ثم استمرت كذلك تحت نفوذ المغرب بعد هذه الشروط وقد نص الشرط الأول على أنها من المغرب ضمنا إذ يقول: اتفق الوكيلان على إبقاء الحدود بين إيالتي المغرب والجزائر كما كانت سابقا بين ملوك الترك وبين ملوك المغرب السابقين بحيث لا يتعدى أحد حدود الآخر ولا يحدث بناء في الحدود في المستقبل ولا تمييزا بالحجارة بل تبقى كما كانت قبل استيلاء الفرنسيس على مملكة الجزائر» ودام نفوذ المغرب على تلك البلاد نافذا بعد هذه الشروط كما تقدم سنة 1361 ـ1845 إلى أن احتلت فرنسة توات سنة 1319 ـ1901 لما آنست إمعان ضعف المغرب وضعف المنافسة الدولية التي كانت تأخذ بمخنقها في حرب اسلي. حينئذ أوفدت حكومة مولاي عبد العزيز السفراء إلى الدول الأوربية للاحتجاج ومن جملتهم عبد الكريم بن سليمان كاتب الخارجية والذي احتج على خارجية فرنسة وإجابه ديلكاسي وزير خارجيتها بان فرنسة لا غرض لها بتوات وعين صالح وانما تريد مد سكة حديدية بين الجزائر والسودان الغربي فحال تراب المغرب بينهما ثم إذا ما انتهى مد السكة تنسحب من توات.

وأنت ترى هذا الجواب البارد الذي لا يحسب حسابا لوجود المغرب وسيادته فهل يبيح القانون الدولي أو الفردي التصرف في حق الغير بغير إذنه؟ ولكنه منطق القوي مع الضعيف ثم استمر المغرب يحتج على مد السكة والاحتلال معا إلى أن وقع في نكبة الحماية.

وأما الشرط الرابع والسادس الناصان على أن الصحراء لا ماء فيها ولا حرث كما في الشرط الرابع فقد سميت قبائل كل من الفريقين فمنازلهم تابعة لهم سواء كانوا مغاربة أو جزائريين وإن لم تحدد فقد حددتها القبائل المنسوبة للمغرب غربا وحددتها القبائل المنسوبة للجزائر شرقا وهي القبائل التي دون فيكيك شمالا. والسادس يقول: «إن الأرض التي هي قبلة قصور الفريقين في الصحراء لا ماء فيها فلا تحتاج إلى تحديد لكونها ارض فلاة» فإذا أخذنا الخريطة ونظرنا إلى جنوب القصور المذكورة وطبقنا على الجنوب الأوصاف المذكورة في الفصل السادس نجده هو عرك الرمل لأنه هو الذي لا ماء فيه ولكونه هو الفلاة الخالية ولأن بشار والساورة وتوات ليست معنية بهذا الشرط السادس لأنها كانت داخلة في حدود المغرب حينئذ ولأنها ليست أرض فلاة بل بالعكس تجرى فيها انهار وتتكون فيها بحيرات ويخترقها نهر الساورة المتكون من نهر جير وزورفانة والعاقل لا يجازف بالالفاظ ويحملها ما لا تحمله إلا إذا كان قويا وغالبا ونبذ وراءه مكارم الأخلاق وخلع ربقة الحياء وعذار الكرامة ولهذا استمر المغرب في نفوذه على بشار والساورة وتوات إلى سنة 1901 بالنسبة إلى توات وإلى 1903 بالنسبة إلى بشار والساورة. هذا ما يتعلق بشروط التحديد وقد علمت أن المغرب لم يتنازل قط عن شبر من أرضه قانونا.

ثم في سنة 1901 حين سافر عبد الكريم بن سليمان إلى فرنسة كما تقدم واحتجاجه وجواب ديلكاسى المتقدم اتفق عبد الكريم بن سليمان وديلكاسى سرا على إبرام معاهدة للحدود جديدة بباريز وفي السنة التي تليها انعقد بالجزائر مؤتمر بين المغرب وفرنسة تكونت فيه معاهدة مفسرة لما وقع سرا بين ابن سليمان وديلكاسى وكان رئيس الوفد المغربي الكباص ورئيس الوفد الفرنسي الجنرال كوشميز سنة 1320 ـ1902. وهذه المعاهدة

يقول فصلها الأول وهو أهم ما فيها وعليه بنى الاستعماريون احتلالهم لصحراء المغرب. يقول الفصل الأول منها: على الدولة المغربية الشريفة أن تمتن بقدر الطاقة والإمكان نفوذ الحكم المخزني في جميع تراب وطنها من مصب وادي عجرود في البحر إلى ثنية الساسى ومنها إلى فكيك ونواحيه من مملكتها الغربية وذلك حسب ما يجرى عليه حكمها في القبائل المغربية منذ المعاهدة الواقعة بين الدولتين سنة 1845 وتعينها على ذلك جارتها الفرنسوية المحبة فيما عسى أن تتوقف عليه عندها مراعاة لحقوق المجاورة. وعلى الدولة الفرنسوية أن تؤسس حكمها وتنشر العافية في النواحي الصحراوية وتساعدها على ذلك جارتها المغربية بقدر طاقتها مراعاة لحقوق المجاورة أيضا. ومن الواضح أحد الفصول من اتفاق الجباص كوشميز هذا يصرح بأن من حق المغرب أن يجعل خلفاء لعامل فيكيك في بشار والقنادسة ووكدة. وهل معنى هذا إلا أن هذه المواضع من أملاك المغرب وجزء من أرضه؟

ونحن إذا أردنا أن نشرح هذا الفصل بمفهومه ومنطوقه نجد فيه مراوغة وإجمالا بالنسبة إلى جزئه الأخير وهذه المراوغة تتناقض مع جزئه الأول فالجزء الأول ينص على أن المغرب يمتن نفوذه في قبائله من مصب عجرود إلى ثنية الساسي ومنها إلى فيكيك ونواحيها فما هي نواحي فيكيك غير بشار والساورة وتوات فإذا قطعت عنه بقي بدون النواحي المنصوص عليها ثم ان هذا الجزء ينص على أن ذلك حسب ما جرى عليه الحكم منذ معاهدة 1845 وهي التي ينص فصلها الأول على إبقاء الحدود كما كانت أيام حكم الأتراك فهذا الجزء بمنطوقه ومفهومه يدل على أن نواحي بشار والساورة وتوات من المغرب ومن نواحي فيكيك ومما يؤيد ذلك أن فيكيك كان عمالة خاصة منفصلة عن عمالة وجدة وكان من نواحيها بشار والساورة وتوات.

والجزء الثاني ينص على أن فرنسة تؤسس حكمها وتنشر العافية في النواحي الصحراوية فما معنى ذلك؟ أهو النواحي الصحراوية المغربية؟ إن كان ذلك فهو مناقض للجزء الأول وأيضا فهو مخالف للمنطق لأن مقابلة نشر المغرب لنفوذه في فيجيج ونواحيه تكون بنشر فرنسة لنفوذها في صحراء الجزائر وهذا ما أراد الوفد المغربي ولكن الفرنسيين حذفوا لفظة الجزائر ليأتي العموم وهذا العموم تخصصه القوة الفرنسية وسياسة الأمر الواقع وضعف المغرب. وإذا رجعنا إلى الحق والمنطق فإن ذكر النواحي الصحراوية من غير إضافتها إلى شيء يخصصها المقام لأن المقام مقام بيان الأقطار المغربية والأقطار الجزائرية التي يمتن فيها كل من الجارين نفوذه فيكون المراد بالنواحي الصحراوية صحراء الجزائر طبعا وإلا لو كان المراد صحراء المغرب لنص عليه صراحة وبلغة وضعية ثابتة لأن العقود والوثائق لا يجوز التعبير فيها بالإجمال المخل والإبهام المضر والإيهام المشوش وليس ثمت عاقل يفهم من هذه المعاهدة أن المغرب تنازل بها عن صحرائه إلا إذا كان لا يفرق بين الظلمة والنور. ولا أنسى أن أذكر أن هذا الاتفاق الجزائري جاء مفسرا لمعاهدة باريز المتقدمة المبنية على التيارين المتخالفين حينئذ بفرنسة وهما تيار العسكريين وتيار البرلمانيين فالعسكريون يريدون انتقاص تراب المغرب بأي وسيلة والبرلمانيون يحاولون إسكات المغرب لئلا يثور عليهم الرأي العام الدولي المنافس. على أن هذه المعاهدة وهذا الفصل منها بالخصوص لم تصادق عليه الحكومتان لا في فاس ولا في باريز لما فيه من الإبهام العظيم ولما يجر من الخصومات الكثيرة والدليل على ذلك شهادة قيدوم القناصل بفاس مسيو روني طياندي بفاس فيما بين 1901 ـ1906 في كتابه المسمى les origines du maroc français. récit d'une mission فإنه نص فيه على أن الحكومتين لم توافقا عليه وتحدث فيه عن تأسف دلكاسي على عدم التصديق عليه. وبناء

على ذلك فان المعاهدة المذكورة لا يؤخذ منها تنازل المغرب عن صحرائه كما أن هذه المعاهدة لم يصادق عليها والنتيجة أن العسكريين الفرنسيين إنما اقتطعوا تلك النواحي ظلما وتعديا فقط والدليل على ذلك انهم رغم تحذير حكومتهم لهم ورغم عدم المصادقة على المعاهدة المذكورة أخذوا يحتلون تراب المغر ب ولما احتلوا بشارا كتب دلكاسي إلى الوالي المقيم العام بالجزائر المسيو جونار «لم احتللتم هذه القرية والمعاهدة ما زالت تجعلها في تراب المغرب وما زلتم تحدثون لنا الشغب مع المغرب» فأجابه جونار«لم نحتل بشارا وانما احتللنا كولومب بشار» انتهى. من كتاب مهمة فرنسة في شمال إفريقية للدكتور كاشير نائب وهران في مجلس الشيوخ الفرنسي.

خرائطهم

ومن المضحك أن خرائطهم تختلف حدودها اختلافا متفاحشا جدا فخرائط السنوات العشر بعد 1890 تجعل المغرب يمتد إلى ما وراء العين الصفراء وتادمايت شرقي عين صالح وخرائطهم في أول القرن العشرين تجعل الحد بوادي الناموس فعرك الرمل وخرائط ما بعد الحماية تجعل الحد اكلى بالكاف المثلثة بوادي الساورة وصحراء إكيدي جنوبا فيدخلون تندوف في المغرب وخرائطهم الأخيرة يصلون بالحد فيها إلى نصف الحمادة حمادة جير. والذي جعلهم يتهالكون على احتلال هذه المناطق وخصوصا بشار وتوسيع حدوده على حساب المغرب هو ما تحتوى عليه هذه الناحية من الفحم الحجرى المفقود في الجزائر والذي يمتد على طول نحو 100 كلم من عين مسكي غربا إلى بشار شرقا على عرض حمادة جير ظانين أن الجزائر هي التي تدوم لهم . والمغاربة بعد محنتهم بالاحتلال ما كانوا يعدون احتلال تلك النواحي إلا كاحتلال جميع التراب المغربي فحين تزول الحماية عن

المغرب تزول عن تلك النواحي أيضا لأن احتلالها لا يرتكز على قانون معتبر مطلقا.

وبعد فإننا إذا نظرنا إلى الحدود والقبائل المذكورة حواليها نجد أولا أن بنى منكوش بالكاف المثلثة التحاتة وأعطية قبيلتان مغربيتان بناء على المعاهدة وهي الآن تعد من الجزائر فما هذا؟ ثم إننا إذا صعدنا إلى ما وراء التل نجد حميان الجنبة وعمور الصحراء من قبائل المغرب ولكنهما الآن من نفوذ الجزائر إلا قلة منهما لجأوا إلى تندرارة ومعظم القبيلتين وراء ما يسمى بالحدود مع أن ما وراء ثنية الساسي لم يحدد وإنما عينت فيه قبائل المغرب وقبائل الجزائر في الشرط الرابع وبذلك تعين الحد ضمنيا لأن الأرض تابعة لتصرف القبائل فتصرفها في موضع يجعله تابعا لها فتضمن ذلك أن القبيلة وأرضها تابعان للجهة والمملكة التي عينت لها فما هذا أيضا وما هو سكوت المغرب عن هذا حتى بعد استقلاله؟

الحدود الجنوبية

أما الحدود الجنوبية للمغرب فليس هناك ما يدعو إلى وضع الوثائق عنها لوجوه:

1 ـ الجنس: فالبربر من صنهاجة والمصامدة هناك وإخوتهم هنا بسوس والأطلس والريف والعرب هناك ولهم إخوة هنا فمعقل النازلون بموريطانيا والصحراء إخوة عرب المغرب وجل قبائل شنقيط نصفها هنا ونصفها هناك فالدم واحد والجنس واحد وهذا المنصور الموحدي لما جلب العرب من تونس لم ينس شنقيط من إنزال قسط من العرب هناك وهم معقل كما أنزل عامر بن زغبة بشرق المغرب ورياح وطليق وبعض الخلط بسهول سبو وهلال بتامسنا والحوز وسوس وجشم وسائر الخلط بتادلة.

2 ـ التاريخ: إن التاريخ لم يفرق بيننا منذ عهد عبد الله بن ياسين الجزولي أوائل القرن الخامس ومنذ هذا العهد ونحن متحدون . آلامنا وآمالنا واحدة ودولتنا واحدة ومنذ عهد المرابطين الذين ربطوا مصيرنا بمصيرهم ولموا شعث المغرب تله وصحرائه إلى الآن ما عرف التاريخ أمة التحمت التحامنا إلى أن حل بلاء الاستعمار فشتت شملنا على عادته وحاول أن ينسي بعضنا بعضا ولكنه عبثا حاول. وبعد فإن التاريخ لم يعرف أمة مستقلة عن شمال إفريقية يحول بينه وبين السودان يقال لها الصحراء الكبرى فكلمة الصحراء الكبرى من اختراع الاستعمار والناس شديدو التقليد فكلما سمعوا كلمة لاكوها سواء عرفوا مصدرها ومغزاها ام لا.

3 ـ الطبيعة

4 ـ الاقتصاد

5 ـ اللغة والعوائد

6 ـ الثقافة والدين

تلك هي الروابط التي يريد الاستعمار أن يدوسها كلها وأن يغطيها بترهاته عن أعين المغاربة والشناقطة ليتم له سرقة شعب برمته.

مهزلة الاتفاق السري بين فرنسة وإسبانيا في 3 أكتوبر 1904

أرادت أن تدوس كل تلك الحقائق الشامخة البنيان السامقة الفروع الثابتة الأصول. وبهذا الاتفاق السري على تقسيم المغرب أيام أزمته أول هذا القرن جعلتا بعضه تابعا لكناريا وبعضه تابعا للسينغال وبعضه تابعا لوهران وباقيه يقسم حمايات. ثم وقع اتفاق مدريد سنة 1912 ـ1313 الذي يفسر ويعين حدود اتفاق 1904 فنصت مادتاه الثالثة والثانية على الحدود بين

المستلحق والمحمي من تراب المغرب فجاء في المادة الثانية منه في الكلام عن الحدود بينهما في شمال المغرب.........». وفي جنوبي المغرب تحد الحدود الفاصلة بين المنطقتين بمجرى وادي درا «درعة» الذي يبتدئ من البحر حتى يصير إلى خط 14 غربا من خطوط الطول المبتدئة من باريز ويتبع هذا الخط نحو الجنوب حتى يلتقى بخط 40 ـ27 من العرض الموازى لخط الاستواء. وفي جنوبي هذا الخط تظل شؤون مادتي 6 ـ5 معمولا بها وفقا للاتفاق المعقود في 3 اكتوبر 1904 السري وجميع النواحي المغربية الكائنة شمالا وشرقا للتحديد تظل في نفوذ المنطقة الفرنسية».

تلك هي المادة الخاصة بتحديد الجنوب بين الحمايتين الفرنسية والإسبانية . وبكل بساطة وكل سهولة تدرك من هذه المادة أن المقسوم كله مغرب إلا أن المستطيل الذي بين مجرى درعة شمالا إلى الخط 40 ـ27 من العرض وبين خط 14 من الطول إلى البحر يعد محميا إسبانيا في الجنوب وتلك قسمة أولى. وما وراءه في الجنوب يظل جاريا على ينود الاتفاق السري 1904 وهو أن يقسم بينهما استلحاقا فساحله وهو ريو دورو لإسبانيا وداخله وهو موريطانيا لفرنسة وهذان قسمان ثان وثالث. وأما الرابع فهو ما يقع شمالا وشرقا للمستطيل المذكور المحدود ويظل في نفوذ حماية فرنسة. وعلى هذا فشمال ذلك المستطيل هو نهر درعة وما يليه شمالا وشرقا وهو تندوف وصحراء إكيدي بالكاف المثلثة وبكسر الألف والكاف وما إليها غير أن الفرنسيين بدا لهم فأضافوا تندوف وما يليها إلى وهران بعد الاعتراف بمغربيتها وذلك غاية الاستهتار إذ كيف يتصور أن يمتد نفوذ وهران من الشمال ويخترق الشرق ثم ينعطف في الجنوب إلى غرب الجنوب فيحيط من جنوبه الغربي وجنوبه الشرقي وشرقه.

واعلم أنه في سنة 1324 ـ1906 حاول الفرنسيون من سان لوي

بالسينغال احتلال جبال أدرار فاستغاث أهله بملكهم مولاي عبد العزيز بفاس فبعث إليهم هذا جيشا منظما تحت إمرة مولاي ادريس العلوي صحبة أمير من أبناء ماء العينين فكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة فاحتجت فرنسة على مولاي عبد العزيز وهددته بإشهار الحرب عليه إن تمادى جيش مولاي ادريس في الدفاع فاضطر مولاي عبد العزيز أمام ضعف المغرب واحتلال ناحية وجدة والدار البيضاء والشاوية والعرائش فاضطر أمام كل ذلك ان يسحب جيوشه من أدرار غير متخل ولا مسلم تلك البلاد وانما للضرورة أحكام.

واعلم أيضا أن آخر اتصال بيننا وبين الشناقطة والصحراء هو تنازل مولاي عبد الحفيظ عن الحكم فإنهم هم جيش مولاي عبد الحفيظ وبطانته فإنهم أول من سارع إلى مبايعته. وقد شاهدت علماءهم حينئذ وجيوشهم وخيامهم وحللهم يوم احتل مولاي عبد الحفيظ مكناسة الزيتون ولم يتم احتلالها «أي شنقيط والصحراء» من طرف فرنسة إلا بعد عقد الحماية فقط بل بعد ذلك بكثير والمغرب في غمرة محنته وبحران نوبته بالاستعمار الذي دهمه والاحتلال الذي فجأه وجبهه.

والحاصل ان الاحتجاج على مغربية شنقيط كالاحتجاج على مغربية تادلة مثلا.

القول الفصل

والقول الفصل في هذه القضية هو قول سكان تلك البلاد والحجة الواضحة القاطعة في قبولهم وشعورهم فان سمحوا بمغربيتهم وشعروا أنهم أجانب عنا وسمحت نفوسهم بذلك فاننا سنقتنع وننكمش في وطننا الأم وحدنا..........

اتصالاتي بالسلطان

من المعلوم أني منذ نفيت عام 1937 آواني صاحب الجلالة إلى قصره بفاس لتعليم الشرفاء وعبيد الحضرة مدة خمس سنوات كنت فيها محل الاحترام والتقدير من أهل القصر ومحل الاعتبار من صاحب الجلالة فكان كلما زار قصره بفاس يتفقدني ببره ويشملني بعطفه حتى انه لما ختن أمراء القصر ختن معهم ابني رشيدا وجمال الدين الاول وكساهما وأغدق علينا بسببهما خيرا كثيرا. ولما بنى مدرسة ولي العهد مولاي الحسن بفاس بزقاق الحجر سنة 1943 أسند إلي إدارتها ولما دشنها وخطب فيها خطبة من جملتها قوله «إني مسرور من وجود هذه المدرسة في عهدي وتحمل اسم ولي عهدي ومن إسنادها إلى رجل من عائلتي وأرجو أن يضطلع بشؤونها بكل مجهود لتعطي نتائج حسنة تشجعني على بناء مثيلات لها في المدن الأخرى والقرى ليتسع نطاق المعارف ويزول شبح الأمية المرعب». ولما أخذت في إدارتها والعمل أخذت نتائجها السارة تزداد سنة فسنة حتى أن صاحب الجلالة وأولاده زاروا حفلة تفريق جوائزها..... وقد حاول الحسدة من المناوئين صرف صاحب الجلالة عن حضورها فأخفقوا إخفاقا ذريعا. وكنت أزور صاحب الجلالة نحو الثلاث مرار في الشهر أو أكثر. ولهذا رأى أفراد الحزب الوطني حينئذ وحزب الاستقلال من بعد أن أكون صلة وصل بينهم وبين جلالته فكنت لهم خير سفير نحو العامين. وفي سنة 1945 انعقد اجتماع حزب الاستقلال بفاس وكان رئيس الحكومة الفرنسية الجنرال دوكول قد استدعى صاحب الجلالة لزيارة فرنسة فطلبوا مني أن أبلغ السلطان تحذيرهم من زيارة فرنسة خوفا على شخص السلطان من غدر الفرنسيس ولاسيما وجرح سنة 1944 ما زال لم يندمل فشددت الرحلة ولما مثلت بين يديه جاذبني أطراف الحديث فسأل عن أفكار الشعب ومدى تغلغل الوطنية في الناس وسألني

عن بعض الأشخاص واتصالهم بالمستعمرين ثم انتقل بي إلى سير المدرسة فأجبته عن كل سؤال بما يناسب وأخيرا قلت له «إن ذوي فلان أوفدوني إليك في شأن زيارة جلالتك لفرنسة وأنهم مشفقون على شخصك» إلخ ما مر. فأجابني قائلا: هذه رحلة سياسية لابد منها ولعل فيها خيرا للمغرب وقل لهم: يجب أن تعلموا الشعب وتربوه حتى يصبح فقد الملك غير مؤثر فيهم ويصبح كل منهم فيه أهلية لتحمل المسؤولية» وأخذتني غيبة من شدة هذا الكلام فنبهني بقوله: أفهمت؟ لما رأى من وجومي فخرجت وأنا أقول: ليتني لم أبلغه هذه الرسالة. والحقيقة أنها كلمة كبرى ما كنت أنتظرها منه. خرجت وأنا أكبر فيه هذه النفس السامية والنظر البعيد وعلمت أنه رجل الساعة وأن المغرب بالغ أمنيته على يده. ولما أبلغتهم كلمته عجبوا وصغرت عندهم نفوسهم فقلت لهم : رويدكم. لقد وقع لي ما لم أحسب أنه يقع لي.

وفعلا سافر إلى فرنسة وتلقاه دوكول بحفاوة كبرى وسرح له جماعة من الوطنيين المسجونين بالعدير وانحلت ذيول أزمة 1944 وجاء إريك لابون فكانت أيامه أيام ازدهار الحركة الوطنية وحركة التعليم والتربية اللتين نهضتا بالشعب إلى المحل الذي رجاه صاحب الجلالة في كلمته السالفة.

كانت اتصالاتي بالسلطان تطول لأنه هو الذي كان يستدعي هذا الطول بأسئلته وكان حراس مكتبه يسوءهم ذلك فإذا رأوني حضرت تقدموا إلي راغبين أن لا أشغل السلطان أكثر من اللازم بل ربما كانت تصلهم من حسادي توصية بذلك فكنت ألاحي بعضهم عند دخولي إليه فأكسبهم ذلك عداوة ولاسيما لما كنت لا أنفحهم ما ينفحهم به من كانوا يريدون مقابلة السلطان... وكان القواد الذين يأكلون أموال الشعب كما يشاؤون يعطونهم إذا حضروا فيريدون أن يرضوهم ليزيدوا في عطائهم وكان السلطان لا يأبه لهؤلاء القواد لما يعلم عنهم من النفاق والرياء والخيانة ولقائه

بوجه ولقاء الفرنسيين بوجه آخر فكان لا يزيد على مثولهم أكثر من تحيتهم وقليل من الحديث معهم.

الأثرة المسببة للحرب

كانت المدرسة الحسنية قبل بنائي الفرع الملاصق لها تشتمل على ثلاثة فصول فقط وجعلت لها فروعا بعيدة عنها وكثر تلاميذها وازدحموا وذات يوم زارنا بعض الأغنياء وكان له ولد يتابع دروسه بها فلاحظ ما في المدرسة من ازدحام وكان يزن بالتقرب للمستعمرين وأراد أن يمسح ذلك فوعد بمنح المدرسة محلا يخفف ازدحامها ويفسح لروادها مقاعد لتلقي دروسها فأعمر المدرسة دارا بزقاق الماء وطلب مني ذات ليلة من سنة 1947 الحضور معه إلى باشا المدينة ابن سليمان ليسلم إلي مفتاح الدار بشرط أن يفرغها من سكانها فذهبت معه إلى الباشا وطلب منه أن يرفع إلى صاحب الجلالة أنه تبرع بكراء الدار المذكورة مادام التعليم بها وفي صباح اليوم التالي قام أصحابنا وذهبوا إلى الباشا وقالوا له «إن الدار خطفها لنا فلان ونحن كنا نريد أن نكريها لفلان أحد المحظوظين عندهم فأجابهم الباشا بأن مالك الدار تبرع بها على المدرسة الحسنية ومديرها ليلة البارحة ولم يخطفها منه... « فلما يئسوا من الباشا طلب مني أحمد مكوار مقابلتي فقابلته في داره بالبطحاء فقال «يا فلان أنت منا وإلينا وأنت تعلم أن إبراهيم الكتاني من المؤلفة قلوبهم. أردنا أن نستألفه بتلك الدار راجين أن تتنازل لنا عنها ليفتح بها مدرسة» فأجبته: «إن كان هذا الرجل من المؤلفة قلوبهم وأردتم استئلافه بشيء فلنستألفه جميعا على حساب جماعة الحزب لا على حساب فرد من الحزب بغير رضاه» فانفصلنا على نفور وفي الغد ذهب وفد منهم فاشتكوا إلى ابن العربي العلوي الذي كان حينئذ وزيرا للعدل

وأبلغ شكايتهم للسلطان فأمر الملك بإيقاف الدار حتى يعرف حقيقتها وما جرى فيها فأبلغني الباشا ذلك فسافرت إلى الرباط ودخلت على السلطان في يوم شديد المطر شديد البرد فلما مثلت بين يديه قال: «ما أتى بك في هذا اليوم الماطر البارد؟» فقلت: «ياامولانا أتى بي عمل هؤلاء المسيطرين الذين إن كانت منهم حكومة فكيف نعيش معهم» فوضع يده على فمه وابتسم ثم قال: «ماذاك؟» فقلت: «إن فلانا تبرع على المدرسة بدار فأراد هؤلاء أن يستبدوا بها» فقال: «بلغني أن فيها خلافا وأنت خطفتها منهم وكانوا السابقين لالتماسها» فقصصت عليه قصتها ومذاكرة مكوار فعلم أن ممالأة جماعة مكوار وأصحابه لعبت دورها ثم قلت له: «إن الباشا شاهد في هذه القضية فلسيدنا أن يسأله والعمل على ما قال» فنادى مندوب المعارف وأمره أن يتصل بالباشا حينا ويستخبره في القضية وحينا اتصل به فأخبره بجلية الأمر فدخل على السلطان وأعلمه بقول الباشا فأمره أن يتصل به نائبه ليأمره بتسليم المفتاح إلي ريثما يصله كتاب رسمي بذلك. فصرفني نصره الله منصورا عليهم فعدت ولما دخلت على الباشا تبسم ضاحكا وقال: لله درك. والحق أنها من أبدع وأفسح دور فاس... أخرجني الاستعمار منها سنة 1955 قبل الاستقلال بنحو ستة أشهر وذلك لأن صاحبها لما رأى السلطان أبعد عن ملكه ظن أن المغرب رسب في حمأة الاستعمار إلى الأبد فعادت هيف إلى أديانها فأراد التقرب من الاستعمار فاستعدى علي رجاله فحكموا بإفراغها فأفرغتها مرغما ولما رجع السلطان بالاستقلال أراد أن يتقرب بها أيضا إلى حزب الاستقلال فتبرع عليه بها أيضا فجعلت مكتبا لفرع فاس ....

الانعزال والعمل الفردي

كانت هذه الأثرة سببا للقطيعة والعمل على انفراد فناصبوني العداء

وحاكوا ودسوا ولكني في كل محاولة إخرج منتصرا في الوقت الذي كانوا لا يقدر أحد في طول البلاد وعرضها على معاكستهم لأنني كنت أقف منه موقف الدفاع دائما . ولما كان السلطان يعرف سبب العداوة أصبح لا يسمع منهم ما يبلغونه عني. واعلم أن هؤلاء القوم أعطاهم الله براعة وذكاء مفرطين في الدس والهدم وأما النصيحة والبناء فلم يجدا إلى قلوبهم من سبيل فإنهم يجنحون في حربهم إلى المكر والخديعة والتزوير ولا يستحيون. ومن جملة ذلك أنهم جمعوا صور تلاميذي وأنا بينهم وذهبوا بها إلى السلطان وقالوا له «إنه ألف حزبا سماه الحزب الملكي بغير إذن صاحب الجلالة» فاستدعاني السلطان وسألني عن ذلك وعرض علي الصور وإنما ذلك زور وبهتان. ووالله ما وقع من ذلك شيء فقلت له: «يا مولانا هذه صور تلاميذي وإن شاء صاحب الجلالة أحضرتهم حتي يطبق عليهم تلك الصور» فعجب من ذلك وقال «على كل حال فإني لا أريد تفريق كلمة الشعب أكثر مما تفرق» فقلت له «ليسمح لى صاحب الجلالة الآن بتأسيس حزب اسميه بغير ما يدعون» فعزم علي أن لا أفعل. فأطعت أمره وعملت بمفردي.

اللجنة التنفيذية

وكانت اللجنة التنفيذية في الرباط تنظر إلى هذه الحرب نظر من لا يعنيه أمرها. وهذا الموقف منها هو الذي جعلني أبتعد عن الحزب كل البعد وأنبذ معاشرتهم مع بقائي على مبدئي الوطني الذي لم يسبقني إليه أحد منهم كما تقدم فدامت الحرب شعواء بيني وبينهم نحو أربع سنوات.

رجوع علال الفاسي

وكان نهاية الاتصال واشتداد التقاطع يوم جاء علال الفاسي واستقبل

الناس بدار المنبهي بالطالعة وكانوا قد فتلوا منه في الذروة والغارب وشوهوا له الحقيقة فلما قابلته تجاهلني وجعل تحيتي كتحية العامة بل أرخى إلي يده. لا أدري لماذا؟ لعله يريد مني تقبيلها فدفعتها بشدة وخرجت . وكانت عندي لجنة الامتحان فأرسل إلي بعد ذلك مرارا وأنا مشغول بالامتحان وفي آخر يوم من الامتحان أرسل إلي خادمه المالحي عازما علي أن أحضر إليه فلم أجد بدا من ذلك فذهبت إلى داره بدرب المتر فاعتذر إلي وقال «والله ما عقلت شخصك حتى حدثوني عنك فتذكرتك». ووجدت عنده أحد .... وهو هلال مقدم التيجانيين بآزرو وكنت حذرتهم منه أيام الكتلة فلم يستمعوا لتحذيري فخب في الإذاية وأوضع بما يطول شرحه فالتفت إلى علال وقلت له «إنك غبت عن البلاد تسع سنوات وفي هذه الأثناء تقدم قوم في صفوف الحزب وأصبحوا قادته وكنا نعدهم خونة وأنت تعرفهم طبعا» فأجاب «لا. لا. إن الأحزاب لا ينظر إليها من حيث أفرادها وإنما ينظر إليها من حيث مجموعها» فقلت له: «هكذا هو» فقال: «نعم» فكان آخر العهد به إلى الآن.

محمد الفاسي

رجع من السجن مع الذين كانوا معه في العذير وسمع بأنني صرت واسطة الحزب لدى السلطان فغار مني لمزاحمتي له في ذلك فحقد علي من غير سابق ذنب. وهكذا شأن .... يضيقون بالناس وإن لم يحولوا بينهم وبين شيء من مصالحهم فحاول بدوره ـ ولكن عبثا ـ أن ينقص من شأني عند السلطان فلم يفلح وأصبحت عقدة في صدره تضايقه كلما تذكرني وغصة في حلقه تكاد تذهب بروحه.

الشهادة الابتدائية

وكنت لما ولاني صاحب الجلالة إدارة لمدرسة الحسنية حاولت أن يعترف لها بالشهادة الابتدائية وبذلت في ذلك كل مجهود فوفقت. واعترف صاحب الجلالة بها وأمر بإصدار قرار وزيري فصدر في سنة 1944 وأصبحت اللجان تحضر إلي كل سنة فيجتمع تلاميذ المدارس في مدرستي للامتحان ونجحت الفكرة والفاسي في السجن فقال يوما لأحد رفاقه «أمكن لهم أن يؤسسوا الشهادة الابتدائية في غيبتي وبدون أخذ رأيي. والله لأحطمنها إن خرجت من السجن» هكذا عقلية هؤلاء الأقوام فهي جزء من حياة الأحزاب فإن كل إصلاح يأتي على غير أيديهم يجب أن يحارب ويحطم. وهي فكرة فيها محاربة لمصلحة الوطن العليا إرضاء لبرنامجهم الضيق ولأنانيتهم المغرورة لأنهم يخدمون مصلحة الوطن العليا ما لم تعارض مصلحة الحزب فإذا عارضت مصلحة الحزب فعلى الوطن العفاء وللحزب الحياة بمصلحته. ولهذا قال بعض الفلاسفة كتولستوي الروسي «إن الأحزاب مصيبة على مصلحة الوطن العليا».

تعيينه في منصب إدارة القرويين مرة ثانية

كان من سياسة السلطان محمد الخامس أن كل إنسان حاربه الفرنسيون وفصلوه من منصب أن يحاول لرده إلى منصبه نكاية للفرنسيين فلما خرج محمد الفاسي من السجن حاول رده إلى إدارة القرويين فوجد من الفرنسيين معارضة قوية لم يتغلب عليها إلا بصعوبة كبرى فعاد إليها ووجد تلاميذنا أصحاب الشهادة الابتدائية قد ولجوا الأقسام الثانوية فحاول التنقيص من قيمة هذه الشهادة وتحطيمها وفاء بما وعد به في السجن فجمع جملة ممن يضربون على وتره وقرروا أن يحدثوا قسما تكميليا يمر فيه تلاميذنا أصحاب

الشهادة سنة ثم يمتحنون فمن نجح منهم التحق بالثانوي ومن رسب أعاد سنته حتى ينجح. ومن الواضح أن هذا تحطيم للشهادة وجعلها عديمة الجدوى وذلك لأن من دخل من البادية يقبل في الامتحان فأينما وضعه امتحانه يلتحق به بينما تلميذنا صاحب الشهادة لا يقبل في هذا الامتحان بل يجب عليه أن يمر في السنة التكميلية سجنا حكم به الفاسي على أبناء الشعب الذين تفوقوا في الحساب والجغرافيا والتاريخ والإنشاء والمحادثة والإملاء هذه الدراسات التي لا ذكر لها في القرويين حينئذ بينما يتفوق عليهم من ليس معه إلا مسائل من النحو والفقه فقط وقواعد جافة لا يقدر معها على التأليف بين جملتين صحيحتين. وهذا كما ترى تحطيم للشهادة التي أسسها صاحب الجلالة وهدم لإعمار أبناء الشعب لا لشيء إلا لكون السبب في تأسيس الشهادة الابتدائية هو هذا الكاتب الطيب العلوي فقط ولعدم حضوره هو أو حزبه في تأسيسها.

رد الفعل

وأمام هذا اضطررت للدفاع عن الشهادة التي تأسست لمدارسي وغيرها فاجتمعت بصاحب الجلالة وبينت له وجه الفساد في هذا التكميلي فأخذت القضية مجراها التحقيقي وتبودلت فيها الرسائل والمكالمات التليفونية ولما استحكم الخلاف أمر صاحب الجلالة بعقد اجتماع يحضره مندوبون عن المدارس الحرة ومندوبون عن المعاهد بفاس ومراكش وطنجة.

أمام صاحب الجلالة

ويوم الخميس 10 نونبر 1949 اجتمع الوفدان بردهة العرش أمام صاحب الجلالة حضره الوزراء ومندوب المعارف وحضرت أنا ومحمد بن

عبد الله العلوي مدير المدرسة العبدلية بالبيضاء وأبو بكر القادري مدير مدرسة بسلا والشرقاوي مدير مدرسة بالرباط. ومنذ اللحظة الأولى أصبح القادري والشرقاوي يؤيدان محمدا الفاسي في إثبات القسم التكميلي كما أسسه وتقدم وكان ذلك منتظرا منهما لأنهما من حزبه ولا يهمهما تحطيم مدرستيهما إرضاء لنزعة حزبهما وكنت أدافع أنا ومحمد بن عبد الله العلوي وأبلى هذا في الدفاع بلاء حسنا. وجلسنا حول الملك ثلاث ساعات في مشادة عنيفة حتى شعرنا بصاحب الجلالة يتململ فوق كرسيه وأخيرا تم الاتفاق على إنشاء مدارس خاصة لتلاميذنا في ظرف شهرين فقط وإبقاء التكميلي للمعاهد الدينية التي دافعت عن ضرورته.

وهذا كما ترى حل وسط لأن السلطان راعى إرادة حزب بأجمعه مع عدم صلاحية دفاعهم وضعف حججهم كما راعى حجتنا القاطعة ودفاعنا عن الحق الواضح. وحاول السلطان إنجاز ما وعد به فنقل إريك لابون واستبدل بالجنرال جوان فتغيرت الأحوال وتبدلت الأوضاع وأصبحنا أمام حرب مع المستعمرين وجها لوجه السلطان فمن دونه فانصرف الناس عن النظر في الجزئيات إلى الدفاع عن الكيان الذي حاول جوان تحطيمه والدفاع عن العرش الذي أراد ثله.

المولد النبوي وحضور محمود عزمي

عام 1366 ـ1947 كان مولد الرسول صلى الله عليه وسلم وحاول طلبة القرويين إحياء هذه الذكرى التي كانت نبراسا سار العالم في ضيائه إلى هذا اليوم وكنت أنتظر من الطلبة أن يقوموا بهذه الذكرى بقلوب متحدة وغايات سامية متفقة فلم يرعني إلا إعلان طائفة منهم بإحياء الذكرى يرئس هذه الفئة محمد الفاسي مدير المعهد ثم إعلان طائفة أخرى منهم إحياء الذكرى

نفسها تحت رئاسة السيد محمد بن عبد الرحمن العراقي أحد أساتيذ القرويين واستدعاني هؤلاء ولم يستدعني أولئك .... وإلا فالحفلة مجرد ذكرى تعم المسلمين جميعا فليدع إليها كل كاتب وأديب وكل ذي حيثية كيفما كان لونه السياسي لأنها ليست ذكرى سياسية ولكنهم من عادتهم أن يصبغوا كل مناسبة بحزبيتهم فتأتي نتائجها ناقضة لخصوصها. كانت حفلة الآخرين في دار الحاج إدريس بن شقرون وهي كما لا يخفى دار فسيحة وجميلة جمعت بشرا كثيرا وكانت أكثرية العلماء والطلبة في هذا الحفل وحضر محمود عزمي الصحفي المصري هذه الحفلة البهيجة فتداول العلماء والطلبة منصة الخطابة يشيدون بذكرى صاحب الرسالة كل في موضوع خاص وطال ذلك ولم يخلل هذه الكلمات كلمة في موضوع آخر تكون كالفاصل وكالاحماض بعدما شبع الناس من موضوع واحد طرقه الخطباء كلهم كل من ناحية حتى كان الناس يملون هذا النوع من الخطب. وكنت لم أحضر خطبة وغير عازم على الكلام مطلقا ولما انتهوا اجتمع العلماء وطلبوا مني إلقاء كلمة فاعتذرت بأني لم أحضر شيئا ولم أكن عازما على الكلام فألحوا علي حتى ظننت أنهم سيعللون امتناعي عجزا فأسعفتهم ولكني فكرت فوجدت تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتركوا منه ناحية إلا طرقوها ثم ان الحفل حفل علمي جمع العلماء والطلبة فقلت «من الأحسن طرق رسالة القرويين» فصعدت المنصة وقلت:

«الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله

أقف أمامكم أيها الإخوان والذكرى تمثل أيام كنت بين أساطين القرويين أتردد مع خلاني وخلصائي وأترابي ورفاقي على حلقات الدروس والماضي يحدوني إلى التحدث إليكم عن جامعتنا وبعض أطوارها لأن جمعكم هذا جمع علمي اجتمع فيه الآباء الروحيون إلى أبنائهم المرضيين

فناسب والحفلة لذكرى سيد المرسلين أن أتحدث عن الجامعة فأقول:

لقد أدت القرويين رسالة مهمة.... فأصابها ما يصيب كل موجود من الصعود والهبوط والترقي والانحطاط وهي سنة لا تتبدل. غير أن باب التجديد يبقى مفتوحا للمصلحين في كل زمان ومكان إن لم يمنعوا مثلنا من ذلك وقد بلغت من الانحطاط إلى أن اقتصرت دروسها على الفقه والنحو فقط وأصبحت كانها لم يدرس فيها أي علم غيرهما وأصبح جريمة تدريس غيرهما بل حتى التفسير تنوسي فيها بتعلات صبيانية باردة واليكم صورة عنها في عهدنا.

لقد كنا ندرس حين لم يكن نظام ولا ترتيب، حين كان التلميذ موكولا إلى اختيار نفسه ووضع البرامج الفردية التي ترضيه. يجلس حيث شاء وعند أي أستاذ يختاره ويدرس أي علم يحب بالكتاب الذي يحب. الأمر الذي يحمل التلميذ على الملل لعدم الغاية وفقدان المشجعات وخصوصا لدى طلبة الآفاق وإنما هو طول مكث في طول دراسة حتى يأنس من نفسه كفاءة فياخذ في التدريس حتى يشهد له الكبار من العلماء فينخرط في سلكهم ويصير في عدادهم. على أنه قد تكون حزازة بين هذا وبعض العلماء فيعترض هؤلاء سبيله ويبقى معلق الاعتراف حتى يرضى هذا البعض. وهكذا يضيع على المتعلم المغربي عمره لأنه يمكث غير مستقل بالكفاءة إلى أن يكتهل أو يجاوز الاكتهال. ومما يزيدنا حينئذ كآبة أننا كنا نطالع جرائد خارجية نعلم منها أنواع التنظيمات ورقي التعليم الذي وصلت إليه الأمم الأخرى ونقارنه بحالتنا فتأخذنا حسرة لا يبلغها التعبير الآن وكنا نشعر كأننا في الثرى والأمم الأخرى في الثريا.. والأمر كذلك كما لا يخفى وهذا يذعن له كل من عاش فى ذلك العهد من طلبة جامعتنا الأذكياء. ذلك لأن طرق التدريس حينئذ - مثل اليوم- لم تكن طرق تحصيل في كل طبقات الجامعة ومراحلها ولكن

طريقة إملاء ومحاضرة وتتبع كل ما بحث وكل ما نقل وما قيل في الموضوع. وهي لعمري اضر بالمبتدئ في طبقاته وبالثانوي في سنواته الأولى. زد على ذلك اعتقاد أن ألفاظ المؤلف شيء مقدس يجب احترامه إلى حد أنه إذا بدلت العبارة كان الأمر كتبديل حرف من كتاب الله وإن كان المدلول واحدا ووجه الدلالة واضحا مطابقا رغم ان المحدثين أجازوا رواية الحديث بالمعنى وقد وردت أحاديث كثيرة بالمعنى دون اللفظ وتلقاها العلماء والحفاظ بالقبول. أما ناحية الكتب الدراسية فحدث ولا حرج وهناك الطامة الكبرى. كتب أكثرها إشارات وتلميحات وتطويل وتحشيات وتعليقات وإدخال فنون في فن وتهويل للموضوع بعبارات كعبارات الجن وتعقيد للمعانى حتى كأنها ألغاز. كتب لا يمكن أن تتم إلا بدراسات التحصيل لا بدراسات التحقيق لانها وضعت للتفنن والتوسع لا للتدريس والحفظ.

كل ذلك كان عقبة كأداء في سبيل نبوغ الشباب وحائلا دون التحصيل ومسلم المتعلم إلى الشيخوخة والهرم. وأينا معاشر المخضرمين ينكر هذه الحقيقة؟ بل ما زالت بقاياها قائمة يعرفها المتخرجون والمزاولون ويئن منها المبتدئون والنهائيون. وأينا ينكر أو يكابر في ضرر هذه السبيل الطويلة الشائكة؟ نعم هناك رجال هيأ الله لهم بيوتهم العلمية أو شبه العلمية فكانوا يدرسون في بيوتهم وكانوا يحضرون القرويين لا للاستفادة والدرس كالآفاقيين وأشباههم بل للتبرك والأخذ عن أشياخ مشهورين ليشهدوا لهم بالتحصيل وبالبلوغ مبلغ من عليه التعويل فيظهر من هؤلاء الفترة بعد الفترة نابغ يحمل راية العلم العقلي والنقلي والآداب الحلوة الطرية ولكن لا ترى في هؤلاء شابا أبدا. إن هم إلا كهول أو فوق الكهول. الأمر الذي يرتبط به الخلف بالسلف ويتصل به حبل المعارف في أدوار التاريخ. وعلى هذا فهل السن شرط في بلوغ مبلغ الكمل المحصلين. لا. ولكنها الكتب

الطوال وطرق التعليم ومناهجه هي التي تستنفذ أعمار الشبان وتسلمهم إلى الكهولة. كذلك كانت حالة التعليم عندنا على منهج واحد لا فرق بين القرويين وغيرها من مدارس المدن المغربية وغيرها.

والسبب الذي جر على الأمة هذا البلاء هو التنافس ورمي من يأخذ صلب العلم ومتنه بالقصور فتحامى القوم طريقة التحصيل إلى طريقة التحقيق التي لا تصلح إلا للمتخصص والتخصص كما لا يخفي لا يشمل جميع العلوم المقروءة وإنما يتناول فنا واحدا في سنوات معدودة.

طال الأمد على هذه الحالة وتلقاها الخلف عن السلف وأصبحت كأنها دين لا يمكن تنقيحه ولا تلخيصه ولا اختصاره إلى أن قيض الله للمعارف المصلح الأول رأس الأمة المفكر وقلبها النابض الذي لا يقر قراره حتى تقر عينه باستقامة أمته ورفعتها جوهرة هذا المجتمع العزيز الملك المؤيد مولاي محمد نصره الله وأيد ملكه فشمر عن ساعده لتحسين هذه الحالة واستبدالها بأحسن ما يمكن مما ينهض بها فنظم الدروس في القرويين وابن يوسف وثلث بمعهد مكناسة وكان الوقت غير مساعد على كل ما يتطلبه الإصلاح كتوفرمدارس المعلمين والكتب الدراسية الملائمة للعصر وتقدمه ونهج سبيل التحصيل في التدريس إلا لأهل التخصص ومراعاة كون الامتحان موافقا لروح التدريس حتى يتطابق السؤال والمسؤول عنه وغير ذلك فخطت الجامعة على كل حال خطوات واسعة إلى الأمام وهي تنتظر خطوات أخرى لتخرج فعلا من حياتها القديمة إلى حياة تشبه حياة الجامعات في العالم. هو على كل حال نظام حديث عهد بفوضى ملفوف في قماطه القديم لما يستقل فيستغنى عن ذلك القماط المضني. وبينما ننتظر بفارغ الصبر خطواته التالية إذ راعنا تدهوره وانحراف مزاجه ونقله إلى مستشفى الإهمال في حوادث 1944 فكاد هناك يلفظ النفس الأخير لولا أن

نظر إليه سيدنا نصره الله نظرة إشفاق فرق له وعالج أدواءه فنجع دواؤه ونفع طبه فعاد كحالته الأولى لم يتعدها بشيء من مظاهر الصحة التامة ولا رونق الجمال وروعة القسامة لأن الاستعمار لهذه الأحوال بالمرصاد فلا يرضيه رقيها ولا برؤها ولا صحتها ولا جمالها لئلا يزاحم ثقافته والحاده وتفضح دسائسه ومكره وما يبيت للبلاد ودينها وعروبتها من تحطيم وبلاء. غير أنا نعيذها بالله من الانتكاس ومما يجرفها إلى مهاوي الارتكاس.

إخواني

بعد عرض هذه الحالة عرضا موجزا لهذه الجامعة العتيقة العزيزة على أنفسنا الساكنة في قلوبنا يجدر بنا أن نفكر قليلا ونستنتج مما عندنا من المقدمات بكل إنصاف ونترك وراءنا كل تشيع وننبذ في هذا الحكم كل تحيز نتائج سيرها فنتساءل هل هي الآن تسير كما ينبغي أن تسير جامعة كبرى مثلها أم هناك ضعف وانحلال وفوضى جاثمة وسطها تبعث كل اختلال؟ هذا السؤال إليكم أيها الذين يزاولون هناك الدروس فأنتم أهل الحكم بالنفي أو الإثبات وإن كنا نعلم بعض ذلك لأن معلوماتكم عنها أشمل وإحاطتكم بماجرياتها أكمل.

يأمل سيدنا نصره الله وجدان من يضطلع بأعبائها في نزاهة ويقيم أودها في نجوة من كل نزعة ودعاية ويظهرها بمظهرها الذي تصبو إليه وتؤمله فلم يجد إلا مستضعفا يغلب على أمره لتغفله أو متطرفا لا يهتم إلا لشيعته وإلى الآن لم يصادف نصره الله رجلا جامعا لأوصاف الرجولة ولا يكون إلا من خريجيها نزيها عن أن يجعلها ميدانا لأغراض فئة دون أخرى صارما في أعماله صادقا في اقواله منفذا للقوانين على وجهها مريدا للإصلاح لأنه إصلاح لا لأنه يوافق هوى فلان أو فلتان.

ويح قومي كيف ذهبت بهم الأهواء كل مذهب وكيف لم يبارك الله في أعمالهم حتى كأنهم المعنيون بقوله عز من قائل «أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء».... فتفرقت الأهواء وتنافرت القلوب وهان كل على صاحبه فوجدت الولائج مرتعا خصبا في وسطها ومنبتا طيبا في تربتها وأصبحت مركضا لكل ثعلب رواغ ومطارا لكل خفاش يتحين الظلماء. الجامعة جامعة لحقوق الأمة بأسرها مستجمعة لروحهم في انتشارها ففيها حق مشاع لكل مغربي فالواجب على كل من استلم قيادتها أن يبرأ من كل علاقة حزبية أو قرابة بيتية حتى يؤدي الأمانة التي حملها ويبلغ الرسالة التي كلفها مرضيا من الجميع شأن الرجل المالك لإرادته حتى إذا نجح مدح من الجميع وإذا أخفق عذر من الجميع. العجب كيف علت عقبة الإصلاح والإخلاص فلا يصعدها إلا أصحاء الإرادة أقوياء العزيمة الموفقون في حركاتهم المشبعون بروح التضحية في سبيل الإصلاح ومن التضحية التضحية بصداقة الأصدقاء في سبيل القيام بالواجب. أسفا. ما لهذه الحفلة تكررت باسم الجامعة في أمة واحدة بل في مدينة واحدة؟؟ أليس اسم الجامعة جامعا لطلبتها وضاما شتات أبنائها ولاما شعث المنضوين اليها؟؟ فمن المسؤول عن هذه التفرقة في أبنائها حين أريد جمعهم؟ الجواب ضروري يعرفه الجميع ولكن اليس من العار الذي لا يستره ظلام الليل ولا يغسله إلا ماء الاتحاد، هذا الانقسام في أبناء الجامعة التي تجمعهم كل يوم في صعيد واحد.... ألم تر أن الناس يجتمعون مرة واحدة في العمر أو في السنة فيبرمون باجتماعهم حبال المحبة والإخاء وأنتم كلما طال اجتماعكم اليومي تجددت البغضاء بينكم واتسعت مسافة الافتراق عندكم لوسوسة شياطين الإنس الذين لا يروقهم أن تكونوا يدا واحدة علمية بعيدة عن كل هوى مهيمنة على أفكار الأمة متبوعة لها في أحوالها الشخصية

والاجتماعية كسلفكم السابق. لقد أضعتم والله مركزكم وضحيتم بقيمكم وأصبحتم لا تربطكم هذه الرابطة القوية ولا هذه الوشائج المتينة بل أصبحتم صنائع كل من يعتز بأوليائه وينادي يالفلانه. يالها من زلفة ما أطول مداها ويالها من عثرة غير مقول لصاحبها لعالك. ذلكم هو الشرف الذي أضعتم فضلا عن أنكم تشتغلون بما لا يعنيكم الآن وبما يضيع عليكم أوقاتكم التي هي رأس مالكم، وقت إذا مر لا يرجع بملء الأرض ذهبا فهو محرث لبذور مستقبلكم.

إخواني

لقد أطلت عليكم فيما أنتم أولى أن تفكروا فيه مني. غير أن روابط هذه الجامعة التي تربطني بكم أبت إلا أن أصدع بما يؤلمني منها ولابد للمصدور أن ينفث. نعم. نحن لا نطلب من المكلفين إلا ما في طوقهم إذ رب قائل يقول: إن أسباب الإصلاح غير متيسرة فنجيب: نحن لا نطالب إلا بالمتيسر منها . من ذلك بعد الجامعة عن اجتذاب الشيع والولائج وبعد العاملين فيها عن مراعاة ما لايمت إلى المصلحة التعليمية العامة بسبب ولا ينتمي اليها بنسب. نعم. يمكن أن يقال: هذا أيضا غير متيسر لضعف العزائم وعدم امتلاك الإرادات فنقول: حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا. والسلام. اهى.

وما كدت أنزل من المنصة حتى بادرني العلماء الحاضرون وضمني كل منهم إليه وقبل بين عيني وقوطعت عدة مرات بالتصفيق الحاد وأصبحت

هذه الكلمة حديث المجالس وبلغ صداها للفاسي وأوليائه وضربوا أخماسا في أسداس لأن مجدهم المزعوم قد تحطم بهذه الكلمة وأجمعوا رأيهم على كتابة عريضة ورفعها إلى السلطان لينتقم مني فكتبوها وعرضوها على العلماء لتذييلها بأسمائهم فذيلها بتوقيعه بعض من أولئك الذين اعتنقوني البارحة وغبطوني على التوفيق فيها. ولما دفعوا العريضة للفقيه الشريف العلوي المؤرخ الشهير محمد التقي أخذها منهم ومزقها ووضعها في جيبه فاهتاجوا وأرعدوا وأبرقوا فقام إليهم فتفرقوا هاربين كما يثور الأسد على.... فأعادوا الاجتماع وكتبوا أخرى فلما رآهم الشوريون قاموا بمعارضتهم فكتبوا أخرى ضدها ورفع الجميع إلى السلطان وأصبحت القضية شعبية وصارت حديثا في المجالس وانتقلت إلى الرباط ومنها إلى مكناس والبيضاء ومراكش وطنجة وتطوان فضخمت ووضعت لها الأيدي والأرجل وأصبحت تمشي بين الناس بشرا سويا. وكنت القيتها وما كنت أحسب أن سيكون لها هذا التأثير العجيب. وكيف لا وقد وضعت محمدا الفاسي وشيعته تحت النعال ووضعت شرفهم في صف...//. وصلت عريضتهم إلى السلطان وقد قلبوا له الحقيقة وزوروا له الواقع ودسوا له ما لم يكن بالحسبان مما ستعلمه من عريضتهم التي مزقت ووصلت إلي . وأنا هنا أقدمها إليك بنصها ثم قابلها بكلمتي الآنفة ولك أن تحكم لهم أو لي وقد وكلتك إلى ضميرك. قالوا:

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

إلى مولانا صاحب التاج والصولجان إمامنا الأعظم وملكنا الأفخم كعبة القصاد ومطمح الآمال سيدنا محمد بن يوسف نصره الله

بعد تقديم خالص الولاء تنهي هيأة علماء النظام بكلية القرويين العامرة الموقعة أسفله شكاتها من مدير المدرسة الحسنية بفاس الأستاذ الشريف مولاي

الطيب العلوي الذي شاء له هواه وفضوله أن يعبث بكرامة العلماء ويحط من قيمة القرويين. ذلك أنه كتب كلمة حول القرويين غابرها وحاضرها في حفلة أقيمت للهجرة النبوية استعرض فيها الحياة العلمية بهذه الجامعة وخرج منها بنتائج مغرضة مناقضة أثرت في نفوس العلماء الأجلة والطلبة الأبرار والأوساط الفاسية على العموم تأثيرا بليغا حتى أصبحت حديث النوادي ومختلف المجتمعات وحتى تركت صدى سيئا يلوكه كل لسان فقد صرح المدير بأن علماءنا الأقدمين ما كانوا يحملون هذه الألقاب عن جدارة وكفاءة واستحقاق لأن همهم كان موجها إلى البحث في الألفاظ والوقوف عند ما لا يسمن ولا يغنى من توافه المعارفي وما يصفهم به الناس من تحقيق لا يعتبر لأنه منسوب إلى قشور العلم وزائف المعرفة. وأضاف إلى ذلك أن حملهم لهذا الاسم كان في الغالب عن طريق المحاباة والارتشاء لأن جلهم كان يمكث في بيته أو شبه بيته يحصل ما لا ينبغي أن يسمى تحصيلا ويحقق ما لا يجوز أن يسمى تحقيقا ثم يحضر في بعض الأيام ليرى بين الطلبة ولا يمضي عليه وقت وجيز حتى تكون الحيلة قد تمت بينه وبين من يتفضل عليه بتسميته فإذا هو بين زمرة أشباه العلماء يصول ويجول مثلهم. هكذا صور نفسية السلف الصالح من علمائنا ثم عرض في غير هيبة لنظامكم الزاهر ولعلمائه الفضلاء وإدارة مجلسه الموقرة ورمى الجميع بالضعف والفشل والانهيار مقررا أنه والعدم سواء وأن هدمه من الأساس لبنائه من جديد خير من هذا السير الأعرج وهذا الترميم المضحك، ساخرا من دروس كثير من العلماء، عارضا ما لخصوص القسم الأدبي الذي تسعى جلالتكم في توطيد دعائمه منذ كان النظام القروي، راميا مديرنا الحازم الموفق بما نصون ألسنتنا عن ذكره لأنه من لغو الكلام وهذيان القول.

هذا تشخيص مصغر لشكاتنا يا مولانا أبلغناه إلى سامي علمكم

وسدتكم العالية دفاعا عن سلفنا الصالح وعن حوزتنا المحمية بكم والمحروسة بعنايتكم واستنكارا لما يحاك حول نظامكم القروي الذي أعدتم إليه شبابه ورونقه وحول ما تصبون إليه لمجد العلم والعلماء وفخر الثقافة والتهذيب فأصبح بكم مزهوا فخورا. ذلكم النظام الذي أخذ من نشاطكم ونياتكم الصالحة وأياديكم البيضاء حتى هرع إليه القاصي والداني من أقطارها الشقيقة ومختلف نواحي المغرب الذي يسترشد دائما بهديكم الكريم وإرشاداتكم القيمة بإخلاص واحترام.

دام عرش جلالتكم ظلا للأنام ودام اشبالكم الكرام في عز مطرد وفخار أبدي. والسلام. 2 محرم 1366.

ذيلت تحت الإجبار بأسماء علماء مدرسين منهم من قام وقبلني في جبهتي حين أنهيت كلمتي ومنهم أصدقائي. ولكن الضغط له عمله وشأنه. منهم من حضر إلي معتذرا ومنهم من كان يتحرج من الاجتماع بي خجلا مما فعل. ولما سمع العلماء الأحرار بهذه العريضة عارضوها بأخرى وكانوا أكثر من هؤلاء المعادين.

ذاعت القضية وشاعت وأخذت صدر الحديث عند كل ملأ ومجتمع وانتظر الناس نتائج هذه الحركة وكان الأعداء يبشرون أولياءهم أن هذه آخر قضاء على الطيب العلوي.

وذات يوم استدعاني صاحب الجلالة ولما مثلت بين يديه لامني على إلقاء الكلمة وقال «أتدري مدى مفعولها؟ إنه في صبيحة الليلة التي ألقيتها فيها أصبح عندي المستشار الفرنسي واحتج على توليتي للفاسي بأن عالما من علماء فاس انتقد سير القرويين التي يديرها الفاسي محمد وأنت عالم أنني ما حصلت على توليته من الفرنسيين إلا بعد جهد جهيد فليتك - إذ ظهر

لك ضعف في القرويين ـ أخبرتني به لأتخذ ما يلزم في معالجتها فقلت له «ياسيدي. هذه كلمتي بيدي. ليس فيها ما يخدش سمعة النظام ولا حرمة أحد وإنما هي العداوة والأهواء» فقال «نعم. أنا مصدقك ولكن قد ذهب الركبان بزيادات ونقصان على حسب الهوى وإني أعلم إخلاصك وجهادك وتضحيتك منذ عرفتك. ولكن الموضوع كان يمسني مع الفرنسيين . لذلك كان صعبا فآمرك أن تفكر بعد هذا اليوم فيما تكتبه حول مشاريعى».

خرجت من عنده وكل كان يظن أنه سيلقيني إلى السباع لتفترسني ولكني خرجت منها أيضا مرفوع الرأس مكرم الشخص أضع في كل قلب جمرة متقدة لا تخبو.

الكيد الأخير

ولما رأوني سالما وعدت كما ذهبت غصوا بريقهم وسار بعضهم إلى بعض فدسوا إلى السلطان أني أعمل بإيحاء من عبد الحي الكتاني فقال لهم «ياقوم إني أعرف نفسية الرجل وإخلاصه وتضحيته القديمة يوم لم يكن في ميدان الوطنية إلا هو في أفراد قليلين» فقالوا «قد تبدل منذ فارقنا» ولما ألحوا عليه قال لهم «سأرى» وكتب إلى الباشا ابن سليمان يقول «أريد أن تراقب الطيب العلوي ماذا يفعل خارج مدارسه» فبعث إلي ابن سليمان وقرأ علي الكتاب وعجب ابن سليمان من هذا الكتاب ومصدره ثم قال «والله ما رآه أحد ولا كاتبي وأعلمتك به لتعلم ما يجري وإلا فالملح لا يدود».

والحقيقة أننى لولاأن الله ثبتني لانغمرت بسبب هذا الكتاب في حمأة المستعمرين لأن من يعلم أنك أول المخلصين وأول المضحين يوم كان الناس غرقى في ملذاتهم يغطون في نومهم اللذيذ ثم يكتب عنك لتراقب إرضاء

لأعدائك فقد قذف بك إلى عدوه وعدوك ولكن الصبر والأناة ورباطة الجأش قعدت بي عن أي حركة حتى لا يتحقق في بهتانهم ودسهم وكيدهم وما كانوا يعملون....

بلاء وانتقام

وقد ابتلى الله جميع أولئك الذين وقعوا العريضة وذيلوها بأسمائهم بأن كانوا ممن وقع التضامن مع جلالة الملك ونحن في السجن ولم يمض على توقيعهم هذا أسبوعان حتى وقعوا بيعة ابن عرفة ومنهم من صلى به الجمعة ودعا له ومنهم من ضحى يوم عيد الأضحى والمغاربة مضربون عن الأضاحي واكتفوا بأضاحي ملكهم ورجالهم الساقطين صرعى في ميدان الشرف من قتيل وجريح وسجين ومبعد ومحروب في المال والولد فكأنهم... يتلونون مع كل زمن ويتملقون كل غالب ويتنكرون لكل خل وصاحب. وإليك أسماؤهم مرتبة حسب وضعها في العريضة الآنفة الذكر:

محمد الجواد بن عبد السلام الصقلي

واحمد بن محمد بن عبد الله الصقلي

ومحمد بن عبد الكبير بن الحاج

ومحمد بن عثمان الشامي

ومحمد بن ج محمد حموش

وعلال الجامعي

عبد الكريم بن محمد الداودي

وعبد الوهاب الفاسي

ومحمد بن ادريس العيسوي

وعبد ربه علي بن بوشتة

وعبد ربه محمد بن محمد مزور

محمد بن محمد ابن كيران

محمد بن حسين الزروالي

فها أنت ترى أنهم ليسوا من .... ولا من كبار العلماء وإنما هم فتيان . منهم من يتبع حزب الاستقلال ومنهم محايد ولكنه فعل ذلك تحت الضغط والإرهاب وأولهم الجواد أول من حبذ كلمتي وقبلني حين نزلت من المنصة. وكان الله انتقم منهم بتسخير أقلامهم .... وبغمسها في .... أمتهم غداة تنصيب ابن عرفة فهذه بتلك.

والواقع أن من الناس إمعات لم يجعل الله لهم شخصية تقوم بنفسها وتعمل برأيها وتتأبى عن نزولها إلى مخالفة ضمائرها وإن كانت تعلم أن ما تدعى وتقاد إليه لا يلائم الطبع ولا العرف ولا الشرع ولا الضمير. وهذا من أثر تربيتهم. ولو اتسع المجال وكانوا .... لشرحت لك ماضي كل منهم وكيف نشأ لتعلم تربيتهم وأطوار حياتهم حتى وقعوا في شهادة الزور فإن هؤلاء لم يحضر الحفلة منهم إلا الجواد الصقلي وحده فأقل ما في عملهم هذا أنهم شهدوا علي شهادة زور محض ولكن الأمر سهل عليهم اذ كان الأمر بالشهادة آتيا إليهم من سادتهم فهم .... وكفاهم ذلك تبكيتا من ضمائرهم وتعنيفا من أنفسهم إن كانت لهم ضمائر ونفوس.

فكاهة

ومما يتندر به في المجالس أن أحدا قال لعبد الكريم بن جلون وزير

العدل بين عام 1956 ـ1958 لما عزم على تأليف مدونة الأحوال الشخصية قال له : إنك ستلقى معارضة قوية من علماء القرويين فأجابه: لا يهمني اعتراضهم لأن لدي صورا الكل منهم حين كانوا يسجدون لابن عرفة وحين كانوا يوقعون على بيعته. ووالله لو أمرت بالتنصير ما قدر أحد منهم على معارضتي. قال ذلك وقهقه الحاضرون حتى استلقوا على ظهورهم.

آخر سهم في الكنانة

ولما يئسوا وعلموا أنهم لا طاقة لهم بحربي عمدوا إلى مخالفة بعض ضدي وكان هؤلاء موظفين في مندوبية المعارف فشرع هؤلاء ...... يحاربونني أشد المحاربة فيما يرجع إلى الإعانة التي كانت الحكومة تمنحها للمدارس الحرة كعبد السلام الفاسي والطاهر الشرقاوي والتهامي المقري. وأنت تعلم أن الأول والثالث من هؤلاء .... الفرنسيس موالاة صرفة ومع ذلك كانوا يسخرونهم لأغراضهم . أما الثاني فكان ينتسب إليهم. والأول منهم ما تزال صورته أيام حصار فاس عام 1944 في جريدة السعادة يوم كان أبناء المغرب بين جريح وقتيل وبين طريد وسجين ومحروب وهو يوسم صدره بالوسام الفرنسي مع عبد الحي الكتاني ورحو العياشي: الناس يمسحون الدمع الأشكل الحار مما أصابهم وهو يذرف الدمع البارد الرقراق مما أصاب. ولله في خلقه شؤون.

اليزيدي

ما كنت أعلم مدى النكاية التي كانت تنالهم بمحاربتي حتى اجتمعت بالأستاذ الشريف عبد السلام بن إبراهيم الوزاني وكان لي صفيا مخلصا وكان كذلك صديقا لعلال الفاسي لأننا درسنا في وقت واحد. اجتمعت به

فابتسم وقال: ما كنت أعرف مدى ما بلغت الحرب بينك وبين هؤلاء حتى دخلت يوما مع علال على أحمد بلافريج واليزيدي في دار هذا . وكان متكئا فجلس وقال لعلال: يا أهل فاس ما تزالون تخلقون لنا المشاكل فكلما حل بين أظهركم رجل فاضل حر النفس تعملون على إخراجه من حظيرتنا ويصبح علينا بعد أن كان لنا فما لنا ولهذا الطيب العلوي يشهر علينا هذه الحرب الشعواء بسببكم فنضطر في كل يوم إلى الدفاع عن أنفسنا وعن مبدئنا دفاعا كنا في غنى عنه لولا تطرفكم في مناوأة الرجال الذين لا ينتمون اليكم بنسب واعلموا أن الوطنية الصادقة هي النسب الصحيح اليوم فدعونا من هذه العنصرية الضيقة فقد خسرنا بها رجالا وأي رجال.

ذلك قول اليزيدي والحق أنه لولا سكوت اليزيدي ومن معه بالرباط عما كان يجري بيني وبينهم بفاس لما وصلت الحال إلى ما وصلت اليه.

الوساطة

في يوم من أيام سنة 1949 استأذن علي الحسن بوعياد والهاشمي الفيلالي وكانا في الحق غير راضين بما جرى والذي تولى كبر ذلك هو عبد العزيز بن ادريس ومن لف لفه كمحمد الفاسي فلما جلسا فاتحاني في الصلح. قلت لهما: «هل الصلح الذي تطلبان مني صلح مشاركة أو صلح متاركة فإن كان صلح متاركة فأعاهدكم الله أني لا أعود إلى حربكم مطلقا بشرط أن تكفوا أنتم كذلك وإن كان صلح مشاركة فإني أشترط لذلك أمرا واحدا هو الاطلاع على أموال الشعب التي ترد عليكم فأستشار في عدده وإدخاله وإخراجه» فأجابا: « أما هذا الشرط فلا تفويض لنا في قبوله وسنعرضه على الإخوان ثم لهم أن يقبلوا وأن لا يقبلوا». وأنا كنت عارفا سلفا أنهم لا يقبلون مثل هذا الشرط لأنه روح المسألة عندهم ولكني تقدمت

به ليمتنعوا فأجد عذرا في الانسلال منهم لأجد راحة ضميري الذي كان يتعب بمعاشرتهم لأنك لابد أن تخون ضميرك وتخالف الأخلاق والحق إذا أردت أن تعاشرهم والحرية لا ثمن لها فاعتزلت وكنت أعمل أكثر مما يعملون في الميدان التعليمي وفي الميدان السياسي. وإن أنس لا أنس ما قاله رئيس بلدية فاس ماط يوم ألقي علي القبض في 12 مارس 1951 إذ قال له أحد القواد الكبار: «كنتم شرطتم في الاجتماع الذي مر أنكم لا تحطمون إلا حزب الاستقلال فقط فمالكم ألقيتم القبض على الطيب العلوي؟ فأجاب: «إن هذا الشخص أشد علينا من حزب الاستقلال ولو كان في حزب الاستقلال عشرة منه لخرجنا من المغرب منذ عشر سنوات. قال ذلك ودلل عليه بأمور في التعليم وأخرى في السياسة.

المحمدي ومقالاتي

كنت خلال 1946 ـ 1950 أي قبل حلول الأزمة التي دامت خمس سنوات على أثرها جاء الاستقلال وفي الخمس سنوات قبلها أدير ست مدارس خمس منها بفاس السفلى وواحدة بفاس العليا وكنت في الوقت نفسه أنشر المقالات السياسية والاجتماعية في صحف ذلك الوقت ولا يخلو أسبوع دون ان أنشر كلمة أو ثلاثا منهن الطويلة المنشورة بالتتابع ومنها القصيرة. وكان المحمدي ممن يتبع ذلك. وذات يوم زار أحد المعلمين عندي مكناسة الزيتون واجتمع إلى ادريس المحمدي. وهذا المعلم هو مصطفى العلوي مدير العهد الجديد اليوم فأخذ المحمدي أطراف الحديث إلى أن سأله «ماذا يفعل» فقال «معلم عند فلان» فقال له «ذكرتني بفلان. قل لي: كيف بتخلص من أعباء التعليم إلى هذا السيل من الكلمات التي ينشرها. هل يفضل له الوقت لمثل هذا. وها أنت ترى أني محام في مكتب واحد لا أنتقل منه إلى غيره إلا إلى

المحكمة ولم يترك لي شغلي هذا وقتا للكتابة فكيف يفعل وأشغال مدرسته جمة». فقال له المعلم «ليس له مدرسة واحدة بل له ست مدارس وكلها سائرة ومراقبة منه أشد المراقبة. قال المحمدي «ست مدارس مراقبة أشد المراقبة ثم يسمح له وقته بهذا السيل من المقالات. والله إنها لمعجزة خارقة. كيف يعيش؟». قال مصطفى العلوي «إنه يمضي يومه في مدارسه ولكنه يستعين بالليل...» والمحمدي هذا هو وزير الداخلية اليوم.

الإذاعة أيام الحماية وعبد السلام الفاسي والطاهر الفاسي

كانت الإذاعة أيام الحماية تحت رحمة الاستعمار وكانت أيام عيد العرش في المغرب مواسم للمباراة في إظهار العواطف نحو الملك والشعب والوطنية وكان الفرنسيون قد عينوا .... ليتصفحوا ما يلقى في الإذاعة في هذه الأيام وكان عبد السلام الفاسي والطاهر الفاسي هما اللذان يسهران على مراقبة الكلمات المحررة في هذا الموضوع.

وفي سنة 1948 وضعت كلمة في الموضوع وكتبت منها نسختين علما مني أن الكلمة ستشوه وفعلا تصفحت فحذف منها نحو الثلثين بحيث أصبحت أجزاء الكلمة غير مرتبط بعضها ببعض وصارت عبارة عن هراء مضحك. وردوها إلي وقد ألصقوا صفحات على المحل المحذوف منها فلما حضرنا إلى الإذاعة وكان المراقب المدني يحضر بنفسه ساعة الإلقاء فتقدمت إلى المذياع ووضعت غير المحذوف منها على المحذوف منها وصرت ألقي وكلما وصلت إلى محل فيه طعن على فرنسة يقفز المراقب ويريد أن يثب إلي ليسكتني فيخاف من ذيوع القضية وتفاحش السمع فصبر على مضض حتى أنهيتها وأرضيت ضميري واستجبت لاقدامي ولما أنهيت قال المراقب: أرني كلمتك. فأعطيته التي ألصق عليها الصفحات وأريته الأخرى فتمعر وجهه

وأربد لونه وعرف أن الحيلة تمت عليه فخرجت وفي الغد قرروا أن لا يعودوا لتمكيني من الميكروفون فأبلغت ذلك للسلطان فكنت بعدها استدعى إلى الرباط لألقي منه وكفى الله المؤمنين القتال.

حفلة مولد

دعيت أنا وبعض المعلمين بفاس كانوا يعملون في مدارسي بفاس وكنا زهاء ثمانية رجال فلما دخلنا المنزل وجدنا المسمعين يرددون الأمداح النبوية وفقيها فاتحا أوراقا تشتمل على مولد الرسول وهذا المولد كل أحاديثه موضوعات ومناكير لا يصح منها شيء. وكنا حينئذ في حرب مع أهل البدع شعواء والمولد على هذا الشكل الذي أحكيه بدعة وخرافة. لما أتم المسمعون وسكتوا شرع صاحب الأوراق في سردها فلما وصل إلى خروج الرسول من بطن أمه قام وقام من يليه ولم أقم أنا ولا بعض المعلمين فلما لاحظ القائمون جلوسي ترددوا فجلسوا ثم قاموا ثم جعل بعضهم يجلس وبعضهم يقوم فقهقه بعضهم وضحك الباقون وانتهت الرواية بخروج السارد مغضبا ثم جلس إلينا صاحب المجلس وسأل عن المسألة شرعا فشرحناها له بما أقنعه ولم يعد يقيمها من ذلك اليوم. ثم أصبحت يتندر بها القوم مدة طويلة . يقولون: كمولد فلان . في الشيء البالغ في السخف والهوان.

واعلم أن عيد المولد لم يكن لدى الصحابة ولا التابعين وإنما لما احتك المسلمون بإفرنجة فرأوهم يقيمون الأعياد لمولد المسيح تنبهوا إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أولى أن تقام له ذكرى وأن المسلمين أولى أن يعتنوا بذلك فبدأ به في المغرب بنو العزفي بطنجة آخر أيام الوطاسيين وقيل اخترعه قبلهم الفاطميون في مصر واعتنى به من الملوك في المغرب المنصور السعدي.. ولكنهم ما كانوا يحتفلون بهذه الأكاذيب والترهات

التي يحشرونها على أنها أحاديث. وإن في تاريخ رسول الله الوضاء وسيرته الطيبة وعبقريته الفذة ونفسه العالية ودعوته العامة وكتاب الله المعجز الذي جاء به وحجة دينه القاطعة وعلو نفسه المشهور وإخلاصه لربه ولعباده وبقاء دينه مع كثرة محاربيه إن في كل ذلك لذكرى وغنية عن أن يتصيد له الكذب والأساطير فإن هذه الأساطير تحط من قدره عند العقلاء فهو صلى الله عليه وسلم غني عنها كل الغنى وما عرف رجل في العالم من أوله إلى اليوم بلغ شأوه وليس هناك رجل منه عرف تاريخه من أول وجوده إلى أن توفاه الله إليه فكيف يعمد اتباعه فيلصقون به ما ليس من سيرته ولا هو من حياته ولا داخل في تاريخه من قريب أو بعيد. إنما يحتاج في تكوين الشخصية ونشر الدعاية الكاذبة أولئك المتمجدون الذين لا يشعر بهم التاريخ الإنساني فهم مضطرون إلى أبواق تذيع لهم الفضل وتبني لهم المجد الموهوم وأما الشمس فلا تحتاج إلى نفخ لتضطرم فهي مصدر النور.

مدرسة صفرو وحقيقة محمد بن مبارك البكاي الهبيل باشا صفرو

صفرو مدينة جميلة تقع جنوب فاس في أدنى سفوح الأطلس المتوسط على بعد 28 كيلومترا من جنوب فاس. أسسها وجمع لها السكان المولى سليمان العلوي رحمه الله في إحدى جولاته.

وكنت شغوفا بزيارتها للاستجمام فيها أيام العطل فقصدني منها جماعة من الشبان طالبين أن أفتح فيها فرعا لمدرستي فاستدعوني إليهم وحاورنا طلبتهم في زاوية هناك. وكان محمد بن مبارك البكاي الهبيل باشا هذه المدينة حينئذ 1948. وفي صبيحة الليلة التي اجتمعت فيها بأولئك الشبان بلغه الخبر. وعوض أن يسر لهذه الحركة استشاط غضبا وأبرق وأرعد وفتل لأسياده في الذروة والغارب فكتب تقريرا هو والمندوب المخزني

سفالانجير فوقع عليه هو وهذا المندوب ورئيس الدائرة وهبطوا به إلى فاس فلما عرضوه على الكتابة العامة بفاس وجدوا منهم فتورا في استشارتهم ضدي. وأنا ما فعلت ذلك إلا بعد أن قام البكاي وجمع أهل صفرو وفرض عليهم استكتابا ليبني لهم مدرسة وكان لما شرع في ذلك بعث إليه مندوب المعارف مولاي العربي العلوي أن يستشيرني في ذلك لآخذ بيده لأنه رجل عسكري لم يتقدم له في التعليم عمل . لكن نيته كانت سيئة وما كان يقصد من ذلك بناء مدرسة بل قصد تعجيز أهل صفرو ليسكتوا فجمع منهم ثلاثة ملايين فرنك وأسس لهم نصف هكتار وفصل فيه نحو خمسة عشر غرفة حتى استوى فوق الأرض كالطلل فنفذ المال وبقيت كذلك لم ينتفعوا بها في شيء حتى جاء الاستقلال.

تلك هي غاية البكاي من محاربتي ليرضي .... الفرنسيين.بمحاربة التعليم العربي في هذه المدينة التي أصبحت فرنسية بحتة بحيث إذا أردت أن تعرف مقدار الثقافة العربية بجنب الثقافة الفرنسية بها فقف عنه بائع الصحف بها تجد أن الصحف الفرنسية يباع منها نحو المائتي عدد بينما تباع عشر نسخ من الصحيفة العربية فقط. هذا البكاي يحارب التعليم العربي في شخصي بصفرو بينما يغض الطرف عن عمل الإرساليات البروتستانتية بها فقد تنصر من أبناء صفرو نحو المائة من الشبان أما النساء والشواب فكلهن تقريبا.

ولما يئس من الفرنسيين أن يؤذوني وذلك أيام إيريك لابون التي كانت لمعة جميلة في وجه الاستعمار كتب بي إلى السلطان يشكوني إليه بأني أفسد عليه مشروعه المدرسي. وذات يوم في بعض زياراتي دخلت على صاحب الجلالة فلما رآني ابتسم وقال: ما بينك وبين البكاي؟ فقلت له: سيدى. إن البكاي رأى رغبة أهل صفرو في التعليم العربي فحاول أن يسلك بهم طريقا

تعجزهم ليسكتوا. فاستغرب السلطان وقال: كيف؟ فقلت: هو ما سمع مولانا وستكشف له الأيام ما قلت.

وقد كشف الغيب لصاحب الجلالة أن ما قلته وتكهنت به هو الواقع فقد عجز الصفريويون عن الاكتتاب مرة أخرى بعد الاكتتابات المتعددة فبقي المشروع ميتا في مهده وضرب البكاي بحجر واحد عصفورين: منع من أراد القيام بالتعليم ولو في الزوايا والدور العادية وعدم إسعاف الصفريويين بما تشوفوا إليه مع إرضاء المستعمرين في عرقلة المشروع بإنشاء تصميم مدرسة كبرى لا يستطيع الصفريويون إتمام جزء من عشرة من أجزائها ليقول لهم بلسان الحال: قد أسعفت طلبكم ولكنكم عجزتم عن إتمامه؛ ويقول للمستعمرين: أرأيتم كيف ضحكت على أذقانهم لأن من اللباقة أن لا نعارضهم بل نقول لهم «تفضلوا» حتى يعجزوا وقد تخلصنا منهم الآن بعجزهم.

ذلك هو الدس الذي يسلكه .... وأذنابهم وإن ربك لبالمرصاد.

مرتان في عمري

كنت قدمت أنني بين سنتي 1928 و1939 ناصبت العداء للطرقيين قاطبة في الأطلس المتوسط وفي المدن إذ كان أهل المدن يؤيدون إخوانهم في الأطلس ضدي. وهذا موقف حاربت فيه جل من حولي لأنك غير واجد في ذلك الوقت من لم ينتسب لطريقة ما إلا القليل من الدعاة المخلصين. وبذلك تعرضت لسخط أغلبية كبرى من الناس وفي جانبهم المستعمرون. ومع ذلك فقد عصمني الله منهم إلا ما أصاب الوطنيين في المناسبات ولكن كان نصيبي أشد وأقسى لأن إخواني أصابهم الأذى في أنفسهم فقط أما أنا فأصابني في نفسي وفي مالي وفي أهلي كما تقدم. تلك مرة أولى.

والمرة الثانية حين حاربت حزب الاستقلال وناهيك عن عظمته في ذلك الوقت وسيطرته وشيوع اتباعه في جل المغرب. ومع ذلك فقد عصمني الله منه وقد مر بك بعض مواقفي منه قريبا.

وأظن أن المرء إذا كان رابط الجأش معتقدا اعتقادا جازما أن الله هو المتصرف المطلق في عباده واستحضر معنى الحديث الشريف: «واعلم أنهم لو اجتمعوا على ان يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك» وقوله تعالى ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ الآية. وقوله تعالى ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وأن يردك بخير فلا راد لفضله﴾. وإذا نزلت به مصيبة لم يكن متسببا مباشرة فيها فإنه لا يجبن في موقف من مواقف الشرف أبدا فإذا أصيب بشيء في سبيل مقصد شريف احتسبه وعلم أن الله هو الذي كتبه عليه وقدره فخف كل ما نزل به فاذا رضيت نفسه أصبح كأنه غير نازل به وكانه غير مكروه فلا يؤثر وقعه علي النفس وتصبح مصيبته واحدة ونال أجر الصابرين المجاهدين فإن سخط أصيب بمصيبتين إحداهما النازلة عليه قسرا والأخرى سخطه الذي عزز الأولى وأكسب به نفسه غما مكبوتا ربما أودى به إن طال ثم ناله إثم السخط وعدم الرضى بالمقدور وأصبح مناصبا ارب العلمين وهذا والعياذ بالله هو الخسران المبين.

رحلة السلطان إلى طنجة

احتفل الملك لزيارة طنجة في 18 جمادى الأولى 1366 ـ 10 أبريل 1947 وكان الذي هيأ هذا السفر وكان واسطة الأمر فيه الشريف مولاي العربي العلوي مندوب المعارف حينئذ . وكان إريك لابون مقيما عاما بالمغرب وكان من سياسته التقريب بين المغرب وفرنسة وإزالة الضغائن التي خلفها الموظفون والمعمرون الفرنسيون. وشرع يفاوض السلطان فيسمح

له ببعض ما كانت اغتصبته الإقامة العامة في مقابل الاعتراف لفرنسة ببعض المصالح. ومن جملة ذلك سماحه للملك بزيارة طنجة فذهب اليها بحاشيته طبقا للمألوف ووقعت في ذلك مظاهرات شعبية عظيمة في الرباط وفي الطريق وفي طنجة مما دل على تعلق الشعب بملكه وحبه له.

ثم ألقى جلالته خطبة زعزعت ركن الاستعمار وآذنته بالنزوح من البلاد فتعرض للدول العربية الشقيقة وأعلن فيها آمال أمته وآلامها وأكد ما يطلبه الشعب على رؤوس الملإ وبمحضر من مندوبي صحف العالم فرددته إذاعات العالم وصحفه وكان حديث المجالس. غضب المستعمرون في المغرب واستشاطوا لأن السلطان لم يذكر فرنسة في خطبته ولا مرة واحدة فطالب فرنسيو المغرب بإبدال إريك لابون الذي تسبب لفرنسة في هذه الفضيحة العالمية فهدمت كل ما كانوا يتقولون به على المغاربة وعلى السلطان بالخصوص. ثم ضغطوا على السلطان حتى عزل مندوب المعارف مولاي العربي العلوي وبدل بـ .... عبد السلام الفاسي.

مجزرة الدار البيضاء

لما رأى المستعمرون السلطان قد نجح في عزمه على زيارة طنجة وأخفقوا في عرقلته من الناحية السياسية أوعزوا إلى جند السنيغال في اليوم الذي قبل سفره 19 جمدى 1366 ـ 9 أبريل 1947 أوعزوا إليهم بالهجوم على حي في البيضاء وقتل عدد كبير من الأبرياء وجرح كثير آخرين بينهم العجزة والنساء والصبيان ولكن هذا لم يكن ليثني السلطان عن مهمته بعد اعتذار المسؤولين الفرنسيين. وكذلك نرى المسؤولين الفرنسيين يرتكبون منذ حلول المغرب أعمالا صبيانية فيعجب العقلاء من إسفافهم إلى هذا الحضيض ويعلم الناس أن هؤلاء الزعانف إنما يعيشون في بقية من حظوظ سلفهم العقلاء أما هم فليس منهم رجل رشيد مطلقا.

جوان وبدء الأزمة التي أتت بالاستقلال

ازداد الشعور الوطني في عامة المغاربة وتخلل السهول والجبال وكواليس الإدارات ولم يعد شيء يستطيع الوقوف أمام تياره وخصوصا بعد نهاية الحرب الكبرى الأخيرة. وتأكد ذلك بخطب صاحب الجلالة وسياسة إريك لابون الرشيدة في ظاهرها. وبعد انتهاء زيارة السلطان لطنجة في شهر أبريل 1947 لم تلبث أن نشرت جرائد فرنسة أن إريك لابون عين في منصب آخر بفرنسة وذهبت مذاهب شتى في خلفه . وفي جوان 1947 عين الجنرال جوان مقيما بالمغرب وفي هذا الشهر نفسه حضر إلى المغرب فصفق المستعمرون فرحا بتعيينه لأنهم علموا أن تبديل مقيم مدني بمقيم عسكرى رمز إلى تغيير سياسة فرنسة في المغرب . وقد صح تكهنهم فإنه منذ حضر كان أول ما فعل هو الوقوف في وجه زيارة السلطان وولي عهده لمختلف بلاد المغرب التي كانت سنة متبعة بل قام في وجه السلطان لما أراد ولي عهده الذهاب إلى حي الجزاء لتدشين مدرسة للبنات والبنين وهي مدارس محمد الخامس بالرباط فواجه السلطان بقوله «إن ذهب فسيعترضه الجيش» وقد حضرت حفلة استدعاني إليها صاحب الجلالة بمناسبة نجاح أمرائنا الكرام في امتحاناتهم السنوية وكان جوان حاضرا وعلى وجهه علامة عدم الرضى وهمس إلى بعض بطانته «إن هذا الحفل ليس فيه أحد من أصدقائنا مطلقا».

ومعلوم أن إريك لابون تربى في أحضان فرنسة بلاد الديموقراطية التي تسوي بين الناس في الحقوق والواجبات وكان قد جعل ينظر في مشاريع بعيدة المدى والجنرال جوان نشأ وولد في الجزائر حيث توجد طبقتان : طبقة الحاكمين وطبقة المحكومين المسودين وأرسل ليحقق ما عرفه في الجزائر ولاسيما والوقت حديث عهد بخلع زميله جيرو المنصف باي ملك تونس عام 1945.

نعم حضر جوان وانقطع عنا ذلك الاعتناء الملكي وزياراته المفعمة بالخير وشعر الشعب بتغير الحال فكف عن المهرجانات والحفلات. نذكر هنا أن جوان عارض في ذهاب ولي العهد إلى مدرسة آزرو وغيرها وفي ذهاب السلطان إلى مراكش لتدشين مدرسة رياض العروس التي أراد المراكشيون أن تصبح صنوا لمدارس محمد الخامس وأنفقوا عليها من أموالهم، لأن ذهاب السلطان إلى هناك كان سيجر الهتافات التي تضجر الجنرال وأعوانه. إذن فيجب على السلطان أن يصدر ظهيرا بإدانة كل من يهتف بهتاف يقلق جوان وأنصاره...؟؟؟

تهييء الباشوات والقواد

ساء جوان نفوذ السلطان المسيطر على المشاعر فجعل الإدارة الفرنسية تستميل القواد والباشوات وتسر إليهم أن الذي يريد أن يرتقي فليستمسك بطاعتنا فطاعتنا وحدها هي الطريق الوحيد للترقي والبقاء في الوظيف والذين يستمسكون بطاعة السلطان وحده سيرون. فعلا فقد عزلوا جميع أولئك الذين كانوا يعطفون على السلطان ويرون أنه وحده الحاكم الشرعي للبلاد فشرع القواد والباشوات يتنكرون للسلطان بعد أن كانوا أطوع من بنانه أيام إيريك لابون ويوما ما جمع جوان القواد والباشوات وخطب فيهم قائلا «يمكننا بكم أن نستغني عن السلطان إذا كنتم رجالا».

المحاولة الأولى

قدمت إدارة الحماية وعلى رأسها جوان مشروعا يقضي بتسليم السلطان جميع مقاليد الأمر لوزيره الأكبر ويبقى هو في قصره منزويا يتمتع بالخمول المميت ويتفرغ لما يتفرغ له البطالون الذين لا شأن لهم وذلك عزل

تحقق فهل سيوافق السلطان على عزل نفسه ويسلم هذا الشعب المنكوب إلى هؤلاء السفاكين؟ لا.لا.لا. رد إليهم مشروعهم بكل اباء وشمم ففشل مشروعهم من أساسه. لهذا جمع جوان الباشوات والقواد وهمس في آذانهم بالاستغناء عنه عمليا إذ لم يقدر على الاستغناء عنه قانونيا كما تقدم وقال لهم «ألم تروا أن المدارس الحرة وقفت حفلاتها ووقف الازدياد منها وقد أسكتناها نهائيا».

مشاريع مهيأة

لما جاء إيريك لابون إلى المغرب وجد الحكومة المغربية مشلولة وليس لها إلا ثلاثة وزراء: رئيس بدون رئاسة ووزير للعدل ولا سيطرة له على العدل ووزير للأحباس. صورة مزرية وحكومة مشوهة. فوضع باتفاق مع السلطان مشاريع إصلاحية منها إنشاء تعيين ثمانية مناديب على عدد الإدارات ليصبحوا صلة الوصل مع القصر وليتدربوا على شؤون الإدارة ويقوموا مقام وزراء، ومنها تكوين ديوان للملك يعينه في الشؤون الإدارية ليتمكن السلطان من دراسة المشاريع والظهائر، ومنها تكوين لجنة لبحث نصوص الظهائر المعروضة على جلالة الملك للتصديق عليها وغير هذا.

فلما جاء جوان وجدها مكدسة جاهزة ينقصها التصديق عليها وتنفيذها وحار في أمرها لأن ميدانها يخالف ميدانه العسكري فهو إنما جاء ليقضي على كل نفوذ فلا يبقى إلا نفوذ الجالية الفرنسية وهو على رأسها. ولكنه فكر ولم يجد بدا من إخراجها إلى حيز الوجود... وفعلا عرض على السلطان لائحة بثلاثة أشخاص ليس منهم من هو مرض ليختار السلطان واحدا من كل ثلاثة وكان السلطان يستغل كل الظروف والرجال لصالح قضية المغرب فقبل منهم واحدا من كل ثلاثة وضمهم إليه ونفخ فيهم

فاعتدلوا بعد أن كانوا متطرفين في موالاة فرنسة. وكان جوان عند تعيينهم يظن أنهم لا يخالفون للإقامة العامة أمرا وأنهم سيحملون السلطان على مثل ذلك ولكن خاب ظنه في مجموعهم لأن المشاريع كانت تعرض على القصر فيكون لجنة منهم ومن غيرهم لدراستها وقد تعدل أو ترد كلها فقامت قيامة الإقامة العامة... فهذا شيء ما عهده الاستعمار في المستعمرين إذن يجب القضاء على هذه المقاومة بأي ثمن وبأي وسيلة والمستقبل لهم في نظرهم.

المناديب

كان الظهير الذي عينوا به يقول «لربط الصلة بين الإدارات وبين القصر» فهل يقبل المديرون الفرنسيون التنازل عن نفوذهم؟ لا. ولكن يصبح المندوب مندوبا ويربط القصر بالإدارة وليسلك إلى ذلك ما شاء وتيسر من الأساليب والطرق. وبعبارة أدق: المندوب موظف بغير وظيف لأن كل شيء كان يبرم أو ينقض في غيبته فليربط إذن بما شاء وبالكيفية التي شاء إن وجد ما يربط ولعل الحق والواقع أن الإقامة العامة كانت تعتقد أن هؤلاء المناديب إنما يكونون كمفرق البريد يحملون من السلطان وإليه ومن الإقامة العامة وإليها وكفى. أضف إلى ذلك أن المديرين كانوا يحاولون أن يكون المندوب عونا لهم إذا عرضوا مشاريعهم المالية على أنظار القسم المغربي من مجلس شورى الحكومة والمدير يكفيهم كل شيء. والمقصود أن يكون في المغرب شطران: للحكومة المغربية القديمة شطر بال مهلهل متداع للانهيار وشطر في الإقامة العامة منظم مهيأ عصري صالح للتسيير. ويكفي لمعرفة هذا أن تعلم أن الإقامة العامة ثمانية عشر إدارة والمخزن كله بما فيه السلطان وحاشيته وحكومته ووزراؤه وقواده وباشواته وقضاته يصرف عليه أقل مما يصرف على إدارة واحدة من هذه الإدارات بنحو الثلثين فما مصيرها

لو دامت الحماية؟ والمثل لذلك ميزانية 1950. خصصت للمخزن كله 241 مليونا وخصصت لإدارة الداخلية 797 مليونا.

الاعتداء على السيادة الباقية

مشروع الحماية يحتفظ للمغرب بسيادته ووطنيته في حدوده ويجعل الأجانب أجانب سواء منهم الفرنسيون أو غيرهم. ولكن الفرنسيين في المغرب لم يرقهم هذا القانون لأنه لا يخولهم حق الانتخاب البلدي في المغرب ولا حق الانتخاب في فرنسة فهم أجانب لا يتمتعون في المغرب بالحقوق السياسية ولا بالحقوق السياسية في فرنسة لأنهم جالية والجوالي في القانون لا يتمتعون بذلك فحاولوا بشتى الوسائل الوصول إلى ذلك عن طريق القوانين رغم أنهم توصلوا إلى بعضها عمليا. ولهذا حاولوا أن يعقد اجتماع دوري يضفي عليه ثوب قانوني ثم إن فرنسة أتاحت لهم أن ينتخبوا في الجمهورية الفرنسية أو ينتخبوا واحتج السلطان على ذلك شديد الاحتجاج ورغم ذلك فقد استمروا على التمتع بهذا الحق حتى انسحبوا بالاستقلال وكفى الله المؤمنين القتال.

وعلى الجملة كان نظر السلطان هو أن يتدخل شباب في الإدارة ويتدربوا عليها شيئا فشيئا حتى تمغرب جميع الإدارات لأنهم أهل البلاد ومالكوها وكان نظر الفرنسيين على العكس من ذلك. كانوا يرون أن ما اكتسبوه من الحقوق يجب أن يكون أبديا وأن يعزز بقوانين يوقعها السلطان وأن يفتحوا باب الهجرة للجوالي حتى يغمر المغاربة بجيش من شذاذ الآفاق. ورغم ذلك كانوا لا يجاوزون مائتي ألف نسمة بينما لا يقل المغاربة عن 12000000 أي اثني عشر مليونا. ومع هذا كانوا يحاولون أن تصبح كراسي وزرائهم مساوية لكراسي الوزراء المغاربة. وكذلك الأمر في البلديات وفي

مجلس شورى الحكومة ومن هنا جاء التصادم الأخير.

أما القانون فإلى سنة 1951 والمغرب بدون قانون جنائي ولا مدني . وطيلة أربعين سنة حكم المغرب بدون قانون حتى أن عميد الصحافة المصرية لما زار المغرب سنة 1951 وعاد سأله بعض الصحافيين عن المغرب فأجاب بأنها أمة بدون قانون.

النقابات

منذ عام 1928 صدر ظهير بمنع النقابات المغربية للعمال استغفالا للمغاربة الذين كانوا يشوهون لهم النقابة بانها عش للشيوعية المحاربة للديانة والملكية . وفي هذه السنة ألح المغاربة في طلب مشروع النقابات ووجدوا من الملك آذانا صاغية ولكن الإدارة الفرنسية تمن بسكوتها عن خرق ظهير 1928 فكيف ساغ لهؤلاء «في نظرها» أن يطلبوا الممنوع وكيف أمكن للسلطان « في نظرها» أن يوافقهم ويؤيدهم والنقابات ضد دينه وعرشه..؟؟ ولكن إن كان ولابد فليصدر ظهير يجعل نصف المجلس الإداري للنقابات من الفرنسيين. وعرض المشروع على السلطان فرفضه وبقي الأمر على ما كان عليه إلى سنة 1955 حين كنا من الاستقلال قاب قوسين وجاء المقيم كرانفال فاباح النقابات للعمال بدون قيد ولا شرط وعلى أثره جاء الاستقلال.

مؤتمر آنفا 1943

هناك في دار السعادة اجتمع روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وتشرشل رئيس وزراء الإنجليز وجيرو ودوكول رئيسا فرنسة

والسلطان محمد الخامس. اجتمعوا لدراسة تنظيم المقاومة ضد ألمانيا وضم شتات الدول الغربية المبعثرة أمام قوة المحور وبعث الأمل في النفوس وبناء عالم جديد على أساس السيادة لكل شعب بقطع النظر عما له من قوة مالية ومعنوية وإنشاء دستور عالمي يجتمع حوله أعضاء عن جميع الأمم المحبة للسلام. ولما انتهى هذا وحضرت المائدة انحنى روزفلت على السلطان محمد الخامس وكان بجنبه يحادثه محادثة الند للند المعجب بذكائه وعقليته فسأله هذا عن مصير المغرب وحظه من هذا الدستور المزمع إبرامه في أرضه وتحت سمائه فأجابه روزفلت بأنه يصرح له بتحريره ويعده به من الآن وعدا صادقا بناء على بلاء المغرب في الحرب ضد الألمان وبناء على أن هذا الدستور أسس في أرض المغرب وهو دستور الحرية فلا يمكن أن يؤسس إلا في أرض حرة مستقلة... غير أن هذه المحادثة جعلت الجو مظلما بين القصر ورجال الإقامة العامة وجعلت السلطان يشعر ببرودة في مقابلة المسؤولين الفرنسيين ولكن المغاربة ظلوا رغم ذلك على خطتهم في مد يد المساعدة لأصدقائهم الفرنسيين طيلة ذلك إلى سنة 1944 ففيها ظهر من الفرنسيين ما كان يأكل أفئدتهم من حقد دفين.

سفر جلالة السلطان إلى فرنسة

في 15 أكتوبر 1950 سافر جلالة السلطان على ظهر الباخرة جورج ليك وبها في مرسى الدارالبيضاء ودعه جوان ووعده بأن يسبقه إلى بوردو عن طريق الجو.

وقد تقدم أنه زار فرنسة سنة 1945 لما كان دوكول رئيس الحكومة الفرنسية. هذه الزيارة كانت استجابة لدعوة صديقه الشخصي فانسان أوريول رئيس الجمهورية الفرنسية وكان ربط معه صلة الود يوم زار المغرب وهو رئيس للمجلس الوطني.

وكانت جمهورية فرنسة الرابعة قد وضعت دستورا نصت فيه على الوحدة الفرنسية ودخول جميع المستعمرات والمحميات فيها. بل قد حمل النزق والغطرسة ونسيان الجميل ونكران النصر والنصير حمل بعض رجال الحكومة الفرنسية حينئذ فصرح بان المحميات كالمغرب وتونس لا تحتاج فرنسة إلى استشارتهم وأخذ رأيهم في هذه الوحدة أيقبلونها أم لا..؟؟؟

ذلك هو جزاء السلطان والشعب، السلطان الذي لما أعلنت الحرب العامة عام 1939 بعث إلى شعبه خطبة تليت في المجتمعات والمساجد يحضه فيه على الوفاء بالعهد والوقوف إلى جنب فرنسة في محنتها. وذلك هو جزاء السلطان وشعبه، السلطان الذي لما دخل عليه المستشار موريس وعيناه تدمعان وقلبه يتفطر، حاملا إليه النبأ الأليم الذي هو انهزام فرنسة واستسلامها أمام قوة ألمانيا الظافرة فأجابه السلطان بكلماته الوفية الخارجة من قلب طاهر نزيه «إننا أصدقاء فرنسة. كنا أصدقاءها في أيام قوتها وازدهارها ونحن اليوم ما زلنا أصدقاءها في محنتها ومصيبتها فليس في طبع المسلم ولا من طبع المغربي أن يخون عهد الصداقة فلتكن فرنسة مرتاحة البال فيما يخص المغرب».

ذلك هو المغرب وسلطانه الذي تريد فرنسة إدماجهما في وحدتها دون أن تكلف نفسها استشارتهما. ولما أشيعت دعوة فانسان أوريول للسلطان أخذ الناس يتهامسون: ما هذه الدعوة؟ وهل سيستجاب لها وإن استجيب وسافر السلطان فهل سيكون سفره لتوقيع ما قرروه في دستورهم ويربط مصيرنا بمصير فرنسة إلى الأبد أم ماذا؟ وكثر التساؤل وأصبح حديث الناس... وما طرق سمع السلطان وضع دستور فرنسة حتى قال: لفرنسة أن تقرر في دستورها ما تشاء ولكن القول الفصل لنا على كل حال. فجمع وزراءه القدامى والجدد ووضع مسألة الوحدة الفرنسية على بساط الدرس

معهم وكان جمعهم يضم أولياء فرنسة والأحرار. ومع ذلك فقد أجمعوا على عدم الاندماج في الوحدة الفرنسية بناء على بنود القانون الدولي وبناء على تاريخ المغرب الماضي والحادث وبناء على التباين الكلي في الجنس والدين واللغة والتباين بين القارتين أوروبا وإفريقيا. قرروا ذلك ورفعوا احتجاجا إلى فرنسة.

ثم لما جاءت الدعوة من رئيس جمهورية فرنسة أحضر السلطان المستشار الفرنسي وأمره بابلاغ الحكومة الفرنسية أنه يشترط للاستجابة لهذه الرحلة أن تخصص تلك الحكومة ثلاثة أيام أو أربعة للتفاوض حول مسالة المغرب لتبديل الوضع البالي الراهن والاعتراف للمغرب بسيادته التامة على بلاده وترابه. وفعلا استشار فرنسة فنزلت عند شرطه وعلى هذا الأساس سافر.

صحبه في سفره زيادة على ولي عهده لجنة تضطلع بالتذاكر مع فرنسة حول مسألة المغرب وإعادة النظر فيها من أساسها. وأعضاؤها هم المقرى صدر الوزراء ووزير الأحباس والمستشار القانوني وباشا مراكش الذي يلحق بهم من الحجاز والعيادي الرحماني والمعمري وزير القصور وأعضاء مكتبه الجديد منهم محمد باحنيبي ومسعود الشيكر. «تأمل أسماء أعضاء الوفد ـ أحمد العلوي».

ولما وصل بوردو استقبله وزير التجارة الفرنسية نيابة عن حكومته مرحبا به ومعه الجنرال جوان ورئيس الغرفة التجارية لمدينة بوردو.. وبمجرد نزوله تألف وفد كبير من المغاربة والجزائر وتونس وتقدموا يخرقون الصفوف ليتصلوا بالسلطان.. ولكن البوليس الفرنسي اصطدم بهم وجرح من البوليس ومن المخترقين عدد وألقي القبض على بعض المغاربة ولكنهم سرعان ما أطلقوا بإشارة من السلطان.

وفي 10 اكتوبر دعي جلالته إلى حفل جامعة بوردو التي ناولت ولي عهده شهادة الباكالوريا وإياه شهادة الدكتوراه الفخرية. الأمر الذي أفعم قلب السلطان يقينا بأن فرنسة ستتفهم مقصود رحلته... وفي يوم 11 أكتوبر رحل إلى باريز على ظهر قطار ليجتمع برجال الحكم فيها بعد اعتزال صديقه في الدفاع أيام المحنة دوكول.. وفي محطة باريز اقتبله رئيس الجمهورية الفرنسية فانسان اوريول... وبمجرد وصوله فتح الفرنسيون صدورهم للأخذ في مسألة المغرب فقدم السلطان مذكرة يعلم الله والسلطان والحكومة الفرنسية مضمنها ولكننا لا نشك أنها تطلب باستبدال الحماية بما يناسب تاريخ المغرب.... ودارت مذاكرات وانتهت زيارته الرسمية فنزل في فيلا هناك وضعت تحت تصرفه إلى أن يغادر باريز وانتظر فيها الجواب الفرنسي فلم يجب إلا في آخر يوم أكتوبر لغياب جوان في مهمة بالهند الصينية. ويظهر أن الجواب كان سلبيا في أساسه إيجابيا في بعض فروعه التي لا تمس صلب الحماية مع إحالة التطبيق إلى الإقامة العامة ورئيسها. ولا يخفى أن مثل هذا الأسلوب في الجواب معناه النفي المطلق والرد غير الجميل فإن من يعرف رجال الإقامة العامة حينئذ ويعرف الجنرال جوان بالخصوص ورد فرنسة القضية إلى إرادة الإقامة العامة يعلم ما في هذا الرد من مغزى غير ملائم ولا يساعد على إنقاذ العلاقات الفرنسية المغربية. ولكن السلطان بحكمته وصبره عالج الأمر بما استطاع.....

رد الفعل

كان رد الفعل من السلطان هو إرسال مذكرة أخرى إلى الحكومة الفرنسية وإعلان الديوان السلطاني أن وجهة النظر بين المغرب وبين فرنسة قد اختلفت وأن الخلاف قائم حول مذكرة السلطان.

الشعور بالخيبة

وبهذه المذكرة شعر الناس بالخيبة والفرنسيون بدورهم فوجئوا بتصريح ديوان السلطان ولكنهم وجدوا عزاء وشبه حجة في زيارة .... الجلاوي والعيادي لشخصية كبرى في باريز وإظهارهما لها اعتراضهما لمشروع السلطان وشعبه وتحبيذهما سياسة القواد الكبار التي يتعاهدها الاستعمار للضغط بهم على السلطان عند طلبه ما لا يحبه الاستعمار أو عند طلب الاستعمار ما لا يحبه السلطان وشعبه. وقد شعر الناس بذلك عندما احتفلوا بأوبة السلطان يوم 9 نونبر 1950 ولم يروا الجلاوي في صف الوفد المصاحب للسلطان ولاسيما لما سمعوا في الصحف والإذاعات أن الجلاوي تأخر في باريز عن ركب السلطان أسبوعا أو أسبوعين . ولا شك أن تأخره لم يكن لتأكيد طلب السلطان وأمته وإنما تأخر طبعا ليتزلف إلى أسياده بما يخالف مذكرة السلطان.

عيد العرش 1950

في 18 نونبر 1950 استعرض السلطان في خطاب العرش عمل السنة وما أنجز فيها وما ينتظر الإنجاز وما قدم لفرنسة في مذكرته وانتظاره جوابها الإيجابي في كلمات تلمس منها المسالمة والاتزان والالتماس بالتي هي أحسن.

وبعد العيد استفهم من الإقامة العامة بواسطة المستشار هل لديها شيء جديد من فرنسة جوابا على مذكرته وملحقها فعرضت الإقامة العامة إصلاحات في دائرة الحماية تقوم بدراستها لجنة مختلطة من فرنسيين ومغاربة فلاحظ السلطان ومخزنه أن هذه أمور كانت عرضت قبل السفر إلى فرنسة. وكأن فرنسة تقول بلسان حالها: ليس إلا ما تعرضه الإقامة العامة. ثم

أشعر المقيم العام السلطان أن الأعضاء الفرنسيين قد عينوا فما على جلالة السلطان إلا أن يعين الأعضاء المغاربة. فرأى السلطان ومخزنه أن هذه اللجنة تكون مفيدة إذا كان لها اختصاص النظر في المسالة من أساسها لا أن تنظر في فروعها. وعلى هذا فإبقاء ما كان على ما كان مع انتظار الظروف خير واحسن.

وبعد فإنك ترى فرنسة في معاملتها للسلطان الناصر لها في عزتها والحافظ لعهدها في نكبتها وترى إجابتها إياه بتلك الكيفية التي أقل ما يقال فيها أنها إجابة منكر الجميل وإجابة من رد يد السلم واختار يد الحرب..... وقد جربنا على فرنسة أنها لا تحتفظ بشرفها عند الأمم المبتلاة باستعمارها فإنها لا تسمح لها بالنمو تدريجيا إلى أن تبلغ حد النضج معينة لها في كل أطوارها كما تفعل الأمم العاقلة بل انها تمنع على الأمم الجميع حتى انها تتخلى هي عن الجميع في دناءة وعداوة وتقاطع. ذلك هو طبع فرنسة مع سوريا ولبنان وهو طبعها مع الهند الصينية وهو طبعها مع تونس وما تزال حالها مع الجزائر الآن هي حالها وستتخلى عن الجزائر أيضا دفعة واحدة بعد ما بح صوت الجزائريين بطلب فسح المجال لنموها فتحجرت عقلية فرنسة معها حالمة أنها ما تزال في سنة 1830 وركب العالم قد رحل عن تلك السنة.

الجلاوي والرحماني

ولذكر هذين الرجلين وما سيمر بك من أدوار تشملهما أحببت أن أعرض هنا حياتهما ونشأتهما وقبيلتيهما وأطوارهما وأخلاقهما لتكون على بينة منهما. واعلم أنهما لم يسديا إلي شرا إلا ما أسديا للمجتمع المغربي.

الجلاوي التهامي

هو رجل أصله من قبيلة تسمى اليوم جلاوة «بالجيم القاهرية» وهي من بطون هنتاتة على ما يظهر لأنها واقعة في جبالهم. تقع على الطريق المارة من مراكش شمالا إلى ورزازات جنوبا. تسكن ثنايا هذا الأطلس في أقحل محل وأمحل جهة به.. لا محرث متسع ولا مجال للمتربع ولا مناظر جميلة للمستطلع.... ترى أهلها سمر البشرة نحيفي الأجسام ممشوقي القدود قحل الوجوه كأن خدودهم أخاديد شعابهم . وأعينهم غائرة كغور أغوارهم. آخذون من تزارت بين زمران وفطواكة شمالا إلى اغرم وراء نتيزي نتيشكة جنوبا وبين مسفيوة غربا إلى قمم هسكورة شرقا.

وبعد فهذه القبيلة أفقر قبائل المغرب والدليل أنها لا تملك شبرا واحدا من سهول المغرب بخلاف قبائل البربر الأخرى فإنها في غالبها تملك في الجبال ما تأوى إليه في الصيف وبه خصب نسبي كما تملك في السهول ما تؤول إليه في الشتاء وتستغله للحرث والرعي بينما لا يجد هؤلاء أين يأوون شتاء...

وجلاوة هؤلاء ليسوا من البربر البيض كما أنهم على ما يظهر ليسوا من المصامدة لأن هؤلاء قبائل بيض ويظهر أنهم جالية سودانية كما يدل عليه اسمهم جلاوة فإنه مشتق من الجلاء. وهنا يظهر أن الخلاف الواقع بين ابن خلدون ونسابي العرب خلاف في حال. فإن نسابي العرب يقولون إن البربر أبناء سام بن نوح كانوا يسكنون فلسطين فهاجروا إلى شمال إفريقية عن طريق السويس وهم الذين سنوا الهجرة عن هذا الطريق فتبعهم إخوانهم الفينيقيون. بينما يقول ابن خلدون إن البربر أصلهم من السودان أبناء حام بن نوح هاجروا إلى شمال إفريقية لأن هذا الشمال متصل بالسودان والقارة واحدة فالهجرة منها أسهل. ونحن إذا نظرنا إلى ما قاله ابن خلدون والنسابة

العرب نجد لكل منهما وجها ويمكن الجمع بينهما بأن الهجرتين وقعتا كلاهما لأن الهجرة عن طريق السويس ليست بأصعب من الهجرة من السودان بل هي أسهل على ما يظهر فإن السودان يحول بينه وبين شمال إفريقية بحور من الرمال تجعل الهجرة الجماعية شبه محال فيكون الذين جاؤوا عن طريق السويس هم معظم بربر شمال إفريقية وهم الساكنون بالسواحل وبالجبال في الوسط. ويشهد لهذا لونهم الأبيض وشعرهم السبط وأنوفهم المحدبة القنواء وجباههم المستوية .

والذين جاؤوا من السودان هم أقل من الأولين عددا. يسكنون وراء الأطلس الكبير.. الدليل على ذلك سواد بشرتهم ونتوء جباههم وفطس أنوفهم وشدة بياض أعينهم وتزبب شعرهم وجعودته. ولهجتهم تخالف لهجة الأولين ويسميهم الأولون: أقبلين. يعنون أهل الجنوب وهو من بقايا تاريخهم. وقولنا يسكنون وراء الأطلس الكبير ليس على إطلاقه فإن من وراء الأطلس بعض القبائل من صنهاجة وغيرها كلمتونة وايت حديدو مثلا فهؤلاء إخوان الشماليين وأهل الجبال.....

وبعد فتلك قبيلة الجلاوي التي أنجبته ثم هو شخصيا من الثابت الواقع - كما تلقيته ممن ينسب إليهم وهم بعض عائلة علي وصالح المشهورة - أنه ينحدر من سلالة سودانية. كان آباؤه عبيدا لعائلة جلاوية فطال بهم الأمد فحرروا وانتسبوا إلى تلك العائلة بالولاء على عادة العرب والبربر في ذلك. ولما تسنم باشوية مراكش لعهد الاستعمار عن طريق الاستعمار.... حاول بشتى المحاولات جلب طلاء.... إلى نسبه... كما جلب طلاء الباشوية إلى جلده... فنسب نفسه أولا إلى عائلة يقال لها بنو مزوار وهم مواليه ومزوار أو «أمزوارو» بلسان البربر معناه السابق وكانوا مرابطين والمرابطون في لغة المغاربة قوم يقبلون على شأنهم ويتركون الأمور العامة جانبا ويبنون رباطا

إما للتعبد وإما للعلم فيجتلبون بذلك احترام الناس وتوقيرهم وفي الغالب لا يكون لهؤلاء نسب شريف. ثم بعد حين رأى أن هذا النسب دون ما يرمي إليه فانتقل منه إلى نسب آخر فأصبح ينتسب إلى مولاي عبد الله بن امغار دفين باب دكالة فلفق في ذلك نسبا هو أوهي من نسيج العنكبوت. ثم مر عليه زمن وهو في ذلك ثم بدا له فأصبح يدعى أنه ينحدر من سلالة أموية فكان كلما سرد عليه نسب لقوم عظماء في التاريخ ينتسب إليهم وكان ابن إبراهيم الشاعر يغريه بالانتساب كل مرة إلى قبيلة ثم ينتقل منها وابن إبراهيم يضحك على ذقنه. وفي آخر مرة لما عزم على فعلته الشنعاء رأى أنه لا يمكنه الوصول إلى غرضه إلا بالانتساب إلى بيت واضح الشرف ثابت النسب فرأى في منامه بيتين رفيعي العماد ليس فوقهما بيت في المغرب. أما أحدهما فدون الانتساب إليه خرط القتاد لأنه محافظ عليه من قبل أهله ولم يجعل الله الكرة عليهم لعدو يشتت شملهم ويعفي أثرهم فلم ينكبوا ولم يشردوا فثبت نسبهم وعرفت رجالهم ونساؤهم فلا يجد الدعي أين يختبئ فيهم ألا وهو النسب العلوي. وأما الآخر فتمكن فيه الفرصة إذا وجد معينا للوصول إلى غرضه وهو بيت شريف قد نكب أهله وشردوا وقتلوا حتى اختلط جلهم بالبربر فاشتبه بعض نسبهم وأصبح الدخلاء والأدعياء يندمجون فيه على مرأى ومسمع من أهله فلا يجدون حجة لدفعهم. فقرر الجلاوي أن هذا النسب الذي له خطره بين المغاربة والذي فيه هذه الثغرة للدخول هو الممكن الذي يبني عليه سؤدده فادعى أنه شريف إدريسي فصفق له من يصفقون لكل من ينشر لهم الحب كالدجاج ونسوا ما صدر منه سنتي 1913 و1950 من الانتساب إلى بيوتات شتى وقبائل متنافرة.

مرض مزر ومزمن

وهذا كما ترى داء متفش في المغاربة أجمعين إلا من عصم الله فكل من بلغ جاها أو علما... يحاول أن يبني نسبا شريفا من خيوط العنكبوت ليتم به مجده الموهوم. ولم ينج من هذا الداء الا النزر اليسير من العقلاء . وهذا الداء ينبت من الشعور بمركب النقص فان النسب له خطره وحسابه في المجتمع فإذا نال أحد علما أو جاها وكان نسبه خاملا فإنه يحاول جلب النباهة إلى نسبه لئلا يلمز بخموله بين الأقران فيقع في الادعاء المزري فيصبح زنيما بعد أن كان له نسب واضح يلحقه بقبيلة بربرية أو عربية . سرى ذلك إلى العامة من الشعب فأصبح الناس المنتسبون إلى قبائل بربرية الذين يعرفهم التاريخ كما يعرف أبناءه يقولون إنهم شرفاء مرينيون أو شرفاء صنهاجيون.... ولو شئت أن تقف بباب مراكش أو فاس أو مكناس ثم لا يمر بك أحد فتسأله: من أنت؟ إلا قال: أنا شريف من ذوي فلان. فيقف المؤرخ حائرا يقول: إن كان هؤلاء كما يدعون فأين البربر والعرب سكان المغرب؟ وأين ذهب هذان الشعبان العظيمان؟ لقد ازدردهم الانتساب إلى العترة النبوية وأصبح العرب والبربر في خبر كان.

ولقد اذكرني هذا والحديث ذو شجون والشيء بالشيء يذكر أن عمر اليوسي العامل المشهور في دولة مولاي الحسن لما أراد أن يميز بين أهل البيت وغيرهم في ولايته جمع أهل البيت فاجتمعوا فلما خرج إليهم عجب من كثرتهم وقال لهم كلمته المشهورة تفكهة وتندرا: أولاد النبي أكثر من أمته.

وممن ابتلي بذلك على سبيل المثل ابا حماد بن موسى حاجب مولاي الحسن ورئيس الحكومة العزيزية والمستبد الجبار لعهده. كان جده وأبوه عبدين من عبيد الحضرة ولما ظهرت نجابة أبيه استحجبه مولاي الحسن إلى أن مات فاستحجب اباحماد ابنه وبقي على حجابته إلى أن مات مولاي الحسن

فرشح هو مولاي عبد العزيز للسلطنة مع صغره ليستبد عليه فاستولى على الموقف وتم له ما أراد فأخذ في العدة لبناء نسب يمكنه من النزو على السلطنة كما حاول الجلاوي فلفق نسبا توطئة لطرد المولى عبد العزيز وللحلول مكانه على العرش. ومن الغريب أنه وجد من يصفق له لذلك من العلماء والكبراء ويقره على ذلك النسب مع أنهم يعرفونه منذ صغره كما يعرفون أباه وجده ولكنهما الرغب والرهب يفعلان بعقول الامعات والأغبياء.. ما يعد مبالغة عند ذكره.

وهنا يستحب ذكر قصة .... في هذا المعنى وهو وزير عدل .... الاستعمار فإنه هو أيضا انتقل في أنساب عديدة فقد انتسب جعفريا ثم بدا له فانتسب ثعالبيا. وبما أنه انحدر من عائلة كانت تسكن بقصر الحجوي قرب بوعنان دائرة أبي ذنيب في الجنوب الشرقي فقد بعث إلى أهل هذه القرية يخبرهم أنهم شرفاء وأنه استطاع بعلمه أن يكشف عن نسبهم المغمور وأنهم يجهلون نسبهم ثم اتفق مع المستعمرين الذين يهيئون أمثال هذه البياذق للاصطياد بهم فيبنون لهم مجدا موهوما ليصعدوا عليهم إلى أغراضهم فإذا بلغوها كسروا هذه السلالم كسرا لا جبر له. اتفق معهم على إعانته في بناء هذا النسب الخيالي فأوعز إلى .... باشا وجدة لذلك العهد أن يلتحق بقصر السوق ويصحب من هناك قاضيها مولاي المهدي العلوي ورئيس دائرتها الكولونيل وعدولها ومن هناك يلتحق هذا الوفد بقصر الحجوي وذلك سنة 1946. ولما التحق الركب بقصر الحجوي وجدوا أهل القصر مجتمعين فرقتين: فرقة بيض الوجوه والأجساد وفرقة سودهما فلما وقف رئيس المقاطعة وقاضيها المذكوران إزاء القوم بعد التحية قال لهم الرئيس: إن فلانا الوزير له حظوة عند الدولة وله جاه ينفعكم وهذا قاضيكم وعدوله يريد منكم أن تشهدوا له بأنه منكم ومن نسبكم أمام

القاضي والعدول فأجابه البيض منهم بقولهم: إننا لسنا شرفاء وإنما نحن عرب كان أجدادنا علماء بنوا هذه الزاوية ـ يعنون زاوية قصرهم ـ لدراسة العلم وكانوا يمونونها ابتغاء مرضاة الله وخدمة للعلم. ثم أشاروا إلى الجماعة السوداء وقالوا: هؤلاء أبناء عم الوزير فسلهم أيها الرئيس . فلما سألهم اجابوا بتصديق قول الأولين البيض وقالوا: إنه ابن عمنا ونحن عبيد الزاوية. كان أجدادنا رقيقا لأجداد هؤلاء فمنوا علينا بالحرية على أن نعينهم على خدمة الزاوية لتقوم بمهمتها فسرنا على هذه السنة وكان منا أبو هذا الوزير فارتحل من هنا إلى وجدة ومنها إلى فاس ثم انقطع عنا خبره ثم لم نلبث أن سمعنا بأن ابنه هذا صار وزيرا فقضينا العجب من الأيام وتقلباتها.

وأمثال .... في المغرب كثير لكن منهم المقتصد ومنهم المتسرع الأهوج الضليل. والحاصل أن كل دعي في نسب يكشف الغيب أنه إما خسيس النسب أو سبق في آبائه رق وعبودية.

هذا ولست ممن يجعل الناس طبقات ولا ممن يعتز بالنسب ولا ممن يجعله وسيلة للأغراض كما يجعله كثير من صغار النفوس ولكن سقت هذا لتعلم نفسية بعض قومك وصغر نفوس بعضهم وجعلهم الأنساب ذريعة للمآرب الشخصية. وأذكر أني كنت كاتبا مع قائد زايان أكثر من أربع سنين فما عرفوا عني من النسب إلا أني مكناسي المولد. وذات يوم حضر رجل يعرفني من مكناس وهو زاياني الأصل فلما بصر بي انهال علي يقبل يدي ورأسي وينسبنى أمام القائد وجماعته فأخذ العجب من القائد كل مأخذ وقال : الغدر يا فلان. أنت عندنا منذ أربع سنوات لم نعرف عنك فيها أنك شريف. لم لم تنتسب لنا؟ فقلت: أصلحك الله. هل ضاع عندكم من حقي شيء؟ قال: لا. قلت: وهل رأيت منكم عدم الاحترام؟ قال: لا. قلت: وهل ينفعني الانتساب عندكم لو كنت غير مستقيم؟ قال: لا. قلت: إذن

الانتساب وعدمه سواء. فقال: لابد من الانتساب لنزيد في احترامك ونعلم أن أخلاقك قد طابقت نسبك.

رجوع إلى الجلاوي

مبدؤه

كان جده رجلا على ما يحكى طيبا. ولاه المولى محمد بن عبد الرحمن بعض ولاية قبيلته فخدم بصدق وإخلاص. ولما تولى مولاي عبد العزيز ولى أخاه المدني قيادة قبيلته إلى أن حركه من حركه هو وجماعة من أهل الحوز فخلعوا بيعة مولاي عبد العزيز ونادوا ببيعة أخيه مولاي عبد الحفيظ كما تقدم فاختاره مولاي عبد الحفيظ لرئاسة وزارته. وكان هواه مع فرنسة.... وكان وزراء العهد العزيزي والحفيظي لما آنسوا ضعف المغرب ويئسوا من علاجه ورأوا في أنفسهم عدم القدرة على القيام بما يجب عليهم اتخذ كل منهم وليجة من الدول المتنازعة على النفوذ في المغرب وباعوا ضمائرهم للأجنبي فتجد هذا يدعو لفرنسة ويجر النار إلى قرصها وذاك يدعو إلى الإنجليز وآخر إلى ألمانيا. وهكذا فلا تجد في حكومات ذلك العهد انسجاما في الرأي ولا تقاربا في الأفكار ولا اهتماما بالمصلحة العليا للمغرب وهمهم جمع الدينار والدرهم وعلى المغرب العفاء. والمدني الجلاوي وأخوه التهامي من هذا النوع. ولما استفحل الداء اتخذ التهامي مقره في طنجة ليكون صلة الوصل بين أخيه وأسيادهم. وكتب لأخيه يوما يقول: تغذ بمولاي عبد الحفيظ قبل أن يتعشى بك. وفعلا سرح المدني أيدي أصحابه في الشعب يسلبون ويهتكون الحرمات بإيعاز من أسياده تنفيذا للاتفاق السري بين إسبانيا وفرنسة فثار الشعب من ظلمهم على الحكومة وذلك ما كان ينتظره أسياده. وبهذه الثورة ختمت صفحة من تاريخ الاستقلال

المغربي فإن الثورة كادت تقتحم فاسا على السلطان فجاءت نجدة فرنسية من الدار البيضاء ففضت الحصار عن فاس ومكثت بها إلى أن عقد صك الحماية كما مر. وبمجرد نشر الحماية عين التهامي باشا على مراكش جزاء له على سالف نصحه لفرنسة ولكن أحمد الهيبة بن ماء العينين جاء من الساقية الحمراء فاحتل مراكش وطرد التهامي منها فجيش الفرنسيون جيشا بصحبة التهامي الجلاوي فاحتل مراكش وهرب الهيبة منها وانفلوس إلى سوس ثم سار التهامي في ركاب الفرنسيس يدل على عورات القبائل التي كانت تدافع الاستعمار إلى أن انتهت المقاومة المسلحة ثم وسع الاستعمار دائرة نفوذه فحكم دمنات وولتانة وفطواكة وامغران وسكورة ودادس وجلاوة ومسفيوة وسكتانة إلى درعة... زيادة على مراكش. وأصبح هؤلاء الأقوام يرزحون تحت نير استعمارين: الاستعمار الفرنسي والاستعمار الجلاوي. وكان هذا أشد عليهم وكانوا عبارة عن أرقاء علقت رقابهم في قبضته فصار يقاسمهم أرزاقهم وما تدره أرضهم ويستخدمهم في مصالحه بدون شفقة ولا رحمة الشهور العديدة ولا راحم ولا مغيث والاستعمار يؤيده ولا يسمع فيه شكوى. فاستطار شرره وعظم شره واشتد بلاء الناس به فنزحوا عن منطقة نفوذه وتناقص فيها السكان وتأخر العمران وكادت تصبح قفرا لولا أن عجل الله بالاستقلال. وكان يختار من شاء من بنات هذه القبائل .... وتبقى عنده مدة ثم يهديها لمن شاء بفاس أو الرباط أو البيضاء نصارى ومسلمين رضي أبوها أم كره. وكان يشجع .... العلني بمراكش بل هو ربه ومنشئه وحارسه ورقيبه. وقد وضع لكل طائفة من ...... عريفا يحاسبهن .... وأما مقاومته للروح الوطنية في شباب مراكش وكهوله فحدث ولا حرج مقاومة أنست كل مكر واضطهاد ولو كانت وطنية المغاربة من النوع المهلهل لما وقفت أمام اضطهاده.

وما سقته هنا عن التهامي الجلاوي شيء رأيته بعيني وذقته بمشاعري ولمسته بيدي وسمعته بأذني وطبق الخافقين لعهده. لا يخالفني فيه أحد ممن عاصره. وقد كنت اطلعت على كتاب بالفرنسية اسمه «الجلاوي» كتب له لأن بعض الجرائد الفرنسية كانت تهاجمه وتكتب ضده لما يرتكبه فألف له هذا الكتاب ورفعه إلى فرنسة يلتمس به من فرنسة إسكات هذه الجرائد مذكرا إياها بسوابقه لها ويده عندها. ومما جاء فيه أنه أول مغربي مد يده إلى فرنسة قبل الحماية وأنه هو الذي طرد الهيبة من مراكش بعد أن بويع بها وأنه هو الذي قتل انفلوس وحيدة بن ميس بسوس وأنه هو الذي وطد لفرنسة في المغرب منذ كان أخوه وزيرا وأنه يتشرف بأن يكون فرنسيا وبأن يضاف إلى هذا النسب الشريف وأنه هو الذي اضطهد الحركة الوطنية بمراكش وناحيتها وأخمد أنفاسها ولولاه لأصبحت مراكش فاسا أخرى أو رباطا آخر. وصار يعد يده التي أسداها إلى الاستعمار ويفضح نفسه بأكثر مما يفضحه به وطني لو كتب عنه. وفعلا أوعزت الحكومة الفرنسية إلى تلك الجرائد بالكف عنه لما له من الأيادى التي عدها في كتابه ذاك.

كان كما قدمنا يسلب أموال سكان ولايته فيجمع الملايين ويسافر بها إلى فرنسة فيبذرها في البارات والكباريات. والبار مرقص يختلط فيه الرجال بالنساء عاريات للرقص والمخاصرة والكاباريه كذلك إلا أنه أسوأ وأقرب إلى الوحشية منه إلى الإنسانية. تؤتى في كلا الموضعين إباحية لم يعرفها تاريخ البشرية في أدواره الهمجية. ثم يشتري كذلك ألسنة الصحف والكتاب الذين يظن أنهم سيكتبون حول مخازيه شيئا. وكان يتعاطى ..... ويدمن تعاطيه في مدينة موناكو التي تعيش على القمار وحده ويحضر سهرات المقامرين العالميين.

وبسبب ذلك أفلس سنة 1943 فحاول أصدقاؤه الفرنسيون أن يفلسوه

ويبيعوا عليه أملاكه لتأدية ما ترتب عليه من ديون الشركات والأبناك فوقف سلطان المغرب محمد بن يوسف في وجه مقاصدهم ومنعهم من تفليسه استمالة له إلى جانبه وأمر بأن يقرض من الخزينة العامة ما يسدد به ديونه إبقاء عليه وعلى سمعته. وفعلا نجا من هذه الكارثة التي كادت تودي به وبسمعته وماله ومستقبله.

ومن الغريب أنه كان هو الرجل الذي يهيئ الحفلات للسلطان حتى إذا اجتمع الشعب حضر أمام السلطان وسجد على رجليه متملقا ومعلما للشعب أنواع الطاعة والإخلاص للسلطان ولكنه في آخر عمره طرأ عليه ضعف العزيمة بسبب الخلل الذي أصابه في عقله والذي كان يعتريه حتى يغمى عليه فدخل عليه من ذلك داء كلب الاستعمار فسرى في مفاصله واستشرى ثم مناه الاستعمار ووعده وفتل منه الذروة والغارب فاغتر بخلب الاستعمار. وليس بأول غبي جعله الاستعمار بازيا يصطاد به المغرب......

ذلك هو الجلاوي الذي سيمر بك حديثه في حوادث عام 1951 ـ 1954 والذي أصبح آخر لعبة نزل بها الاستعمار إلى ميدان المغرب فخسر كل شيء. وهو قل من كثر ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد وليس القصد شرح تاريخه ولكنه معرفة سوابقه وهويته وقيمته.

العيادي الرحماني

كان من قبيلة الرحامنة وهي قبيلة تسكن سهول الحوز فيما بين أم الربيع شمالا ومراكش والجيش جنوبا ودكالة وعبدة غربا والسراغنة وزمران ومسفيوة شرقا وتحيط بمراكش من ثلاث جهات الشمال والشرق وبعض الجنوب. وهي خليط من قبائل معقل. أتوا من شنقيط والساقية الحمراء في فترات فأقطعتهم الدولة هذه الأرض وكانوا من جملة الجنود

المجلوبة من الصحراء ولا يجمعهم إلا المعقلية لأنهم خليط من عريب سكان ناحية تندوف وسلام سكان ناحية الساقية الحمراء وغيرهم. ويقال أن سبب تسميتهم «ارحامنا» أنهم كانوا كلما جاء فريق منهم وأراد أن ينضم إلى السابقين قيل لهم: إلى اين؟ فيقولون: إلى ارحامنا. فأطلق عليهم «ارحامنا» تندرا وتفكهة فغلب عليهم هذا الاسم. وهو جمع رحم. ولكن العامة اليوم ينسبون الفرد اليهم فيقولون: رحماني. وكان القياس أن يقولوا «رحمي» نسبة إلى المفرد. ولكنه لما خيف التباسه بالرحم المضافة إلى ياء المتكلم ارتكبوا هذا النسب الذي يشبه النسب إلى رحمان وهو وصف مقدس. جلبتهم الدولة كجيش لها وأحاطت بهم مراكش ولكنهم أصبحوا وبالا عليها بغاراتهم وإقلاقهم لراحة أهلها فهم بلاشك جيش قبلي كأولاد دليم والشبانات ومجاط في مراكش وكالأوداية وشراكة وأولاد جامع بفاس.

والعيادي هذا كان من أولئك الفتاك السلالين. وقد فقد نصف كفه في إحدى مغامراته. وكان له صديق بالسراغنة اسمه الشيخ محمد النباكي بتثليث الكاف وكان بيني وبينه صلة فزودني عن حياة العيادي بكثير أنزه قلمي عن ذكره. ولما ثار أهل الحوز على حكومة مولاي عبد العزيز كان من أولئك الذين أبلوا في دفاع مولاي عبد العزيز في وقعة السراغنة الشهيرة فرشحته حاشية مولاي عبد الحفيظ لقيادة قبيلته فاحتفظ بقيادة قبيلته إلى أن عقدت الحماية. وأعان على احتلال مراكش فأقر على عمله واستمر يباري الجلاوي في إذلال الرحامنة. يسلب ويسخر ويستخدم مثل ما مر عن الجلاوي. وكانت له هو أيضا وفادات إلى فرنسة وربط علاقات ودية مع هريو رئيس مجلس الشيوخ بفرنسة فكان يحميه إذا ناله من الحاكمين هنا مكروه. وبعد فهو من جملة القواد الكبار الذين كانت فرنسة تبني عليهم سياستها في المغرب. قد جعلت لهم دالة. تضغط بهم على السلطان سلبا وإيجابا.

والجلاوي والعيادي كانا أمين. ومع ذلك كانا ذكيين وكانا يتباريان في اقتناء الكتب حتى اجتمعت لكل منهما مكتبة حافلة. وكانا يحضران مذاكرات العلماء ويستحضران بعض المسائل. وكانت موائدهما كريمة طبعا لأنها كانت على حساب الشعب فهي من دمائهم ودموعهم وعرق جبينهم......

الأحزاب ومجلس شورى الحكومة

في سنة 1947 حاول المقيم جوان أن يجلب إلى صفه القوات الوطنية وأن يقال عنه أنه لا يهمل الشعب المغربي وأنه يشركه في إدارة البلاد فقدم مشروع انتخاب لنيل كراسي مجلس شورى الحكومة بظهير سنة 1947. فأما الشوريون فاختاروا مقاطعة هذه الانتخابات لإيمانهم بأنها صورية وأن فيها تعاونا مع المستعمر يستغل به سمعتهم فقط وأنهم لو حضروا وشاركوا فيه لما رفع المستعمر رأسا باقتراحاتهم فتصبح مشاركتهم عبثا زيادة على خسارة سمعتهم بها . وأيضا فإنهم فتحوا مع الإقامة العامة مفاوضات قدموا فيها مذكرة طلبوا فيها الاستقلال التدريجي لمدة معينة يكتمل فيها استقلال المغرب. وهذه المذكرة مؤرخة ب 23 دجنبر 1947. وعقدوا مع أعضاء الحماية حولها جلسات متعددة لدراستها ولكن الفرنسيين أهملوها لما رأوا حزب الاستقلال قد شارك في الانتخابات وفضلوا التعاون مع هذا الحزب الذي كانوا يعدونه الخصم الالد والذي نزل إلى التفاهم معهم فلا بأس أن يهملوا مذكرة الشوريين ليجربوا حظهم مع الاستقلاليين.

الانتخابات

شارك حزب الاستقلال في هذه الانتخابات لا للتعاون مع الفرنسيين

ولكن لطرد أولئك الصور المتحركة بغير إرادتها والتي لا تمثل حتى نفسها ويبت باسمها في مصائر البلاد وأهلها ولتجربة الحظ مع هؤلاء الفرنسيين الذين كانوا يملأون الدنيا صياحا بأن الوطنية المغربية تقف المواقف السلبية من الأحوال العامة والشؤون الإدارية فشاركوا لأمرين إما لنجاح خطتهم وإرجاع الإدارة عن غيها واعترافها بالحيف في أعمالها وإما للأخرى فيظهرونهم للعالم كذابين نصابين فتبطل دعايتهم وتخفق حيلهم.

جرت الانتخابات وكانت المخايل كلها تدل على أن حزب الاستقلال سينال الأغلبية الساحقة فيها. وذلك ما كشف عنه الواقع فقد صوت له كل وطني سواء كان من حزبه أم من غيره أم محايدا لأن أغلبية الرأي العام المغربي أرادت تجربة سعدها في هذه اللعبة التي فتحها جوان على غير عادة سابقة من المستعمرين فإن العادة التي كانت سائدة هي عادة تعيين الإدارة من يؤمنون على دعائها لا غيرهم.

انعقاد المجلس

في دجنبر 1948 انعقد المجلس وكان من عادة مديري الإدارة الذين هم الحكام المشرعون والمنفذون أن يقدموا مشاريعهم بعد دراستها وحدهم ثم يعرضونها على أعضاء القسم المغربي ليتعجبوا من فنية المديرين ومقدرتهم ويحبذونها دون انتقاد ولا ملاحظة لأنهم كما قدمنا كانوا يعينون ولا ينتخبون. وفي هذه المرة ليس الأمر كذلك فقد تقابلوا مع رجال يقولون للأسود أسود وللأبيض أبيض ولا يحاشون أحدا.

اطلع الأعضاء على التقارير المقدمة إليهم فانتقدوها من أولها إلى آخرها ولم يقفوا عند حد الانتقاد بل قدموا مع انتقادهم تقارير تتضمن مشاريع يراعى فيها العدل وأكثرية سكان المغرب وأن يجعل في ميزان

الحكومة حساب هذا الشعب المنبوذ فكبر ذلك على الإقامة العامة ومديريها الذين هم في الحقيقة الوزراء والملوك الحاكمون بأمرهم ولاسيما لما جابههم الزغاري بتقريره سنة 1949 فتعجبوا من المغاربة ومن بلوغهم نضجا مكنهم من الإتيان بمثل ذلك التقرير الذي سفههم وفضح مناوراتهم التي كانوا يصرفون بها أموال المغرب في غير مصلحة المغرب والمغاربة.

وفي الدورة الموالية 1950 حضروا ولاحظوا أن اقتراحاتهم لم ينفذ منها شيء ولم يلتفت إليها مع اعتدالها فأعلنوا امتعاضهم من ذلك وأخيرا انسحبوا احتجاجا على هذا الإهمال لأن بقاءهم مع ذلك الإهمال خيانة للأمانة التي حملهم الشعب إياها.

كانت الإدارة مخطئة في التقدير لما أسفرت الانتخابات عن نجاح حزب الاستقلال الذي شارك للغايتين السابقتين.

نعم عرفت الإدارة أن المجلس غيره بالأمس غير أنها اعتمدت على ماتألفه من وضع اللهى على لها أعضاء المجلس وهذه اللهى تفتح اللها كما يقولون ففتحتها حقيقة ولكن بعكس ما يقصدون بل أصبحوا يهيئون تقاريرهم بأنفسهم ولا ينتظرون المدير ليعرض مشروعه ويحبذ ما ألف.

وفي دورة 1951 حضر الأعضاء المغاربة وأتوا بتقارير متقنة رغم إعجالهم. حضروا إلى فيلا لوريش وأعلنوا أنهم لم يحضروا رضاء بالواقع ولكنهم حضروا لئلا تبرم الأمور في غيبتهم وليقوموا بالأمانة التي اختارهم الشعب لها.

انعقد المجلس على هيأته المألوفة وفتح المقيم الجلسة لأنه رئيسها وشعر الجميع بكهرباء تسرى في النفوس لأن رجال الإدارة الذين لا يرد لهم أمر تقابلوا وجها لوجه مع معارضيهم وكانت عناصر المجلس تتكون من 1- رجال الإدارة 2 - أعضاء المخزن وسيأتي ما يتعلق بهم 3 - القواد والباشوات

الذين يتمتعون بنفوذ وامتياز يرجع إلى عهد بعيد 4 ـ رجال الوطنية الذين يدافعون عن حق الشعب في حياة طيبة وعدل عام وحرية مشروعة وتسيير أموره بنفسه.

مندوبو المخزن في الإدارات

كان المديرون الفرنسيون كما قدمنا يقررون تقاريرهم في غيبة المناديب ولما حان موعد مجلس شورى الحكومة سنة 1951 اجتمع المخزن تحت رئاسة صاحب الجلالة فعبر المناديب عن امتعاضهم وتأسفهم لإبرام الأمور في غيبتهم واحتاروا في حضورهم في المجلس فهل يحبذون كل ما يأتي به مديروهم؟ وكيف يحبذون ما لم يدرسوه؟ وإذا حضروا ولزموا الصمت فان استنطاقهم سيجرهم إلى قول شيء على أن سكوتهم ربما استغل وعد رضاء بما يجري. ولكنهم في الأخير قرروا الصمت. وبينما يعقد هذا المجلس بالقصر كان القسم الفرنسي منعقدا وخطب فيه جوان وتعرض لسفر السلطان إلى فرنسة وأنه عرض له طلب إعادة النظر في عقد سنة 1912 بعد أن كان في فرنسة وأن برنامج الرحلة كان على أساس الحماية. ولما سمع السلطان ذلك اجتج أشد الاحتجاج على هذا التصريح وهدد بعدم الإذن للمخزن بحضور مجلس القسم المغربي إن لم يسحب هذا التصريح من خطابه.

وأخيرا التأم جمع مجلس شورى الحكومة على الشكل السابق وأمر جوان ترجمانه كرموش «بالكاف المثلثة» بقراءة التقرير وكان أشج الصوت وكان يقاطعه جوان مرارا بقوله «صح. ارفع صوتك». ولما انتهى الترجمان قام جوان وقال: أتأسف للمعنى الذي فهمه بعض الناس من بعض جمل خطابي. وصرح أنه لم يقصد إشعار المستمعين بوقوع تغيير في موقف

صاحب الجلالة سلطان المغرب أثناء سفره إلى فرنسة. فكان كلامه هذا انتصارا في أول الجولة.

التقرير العام

ولما تلا اليزيدي أحمد تقريره الذي جمع فيه التقارير وانتقد فيه السياسة الاقتصادية والسياسية العامة المتبعة ولاحظ أن الناحية الاجتماعية التي يستفيد منها المغاربة أهملت شنيع الإهمال وقف المقيم العام جوان مغضبا وقال في لهجة شديدة: إنك أهنت عمل فرنسة في المغرب وأنصح لك أن لا تعود أنت وأصدقاؤك لمثل هذا السلوك وإلا فسأضطر إلى اتخاذ التدابير الضرورية للمحافظة على شرف فرنسة.

هكذا كانت المعركة مستمرة طيلة الجلسات التالية إلى أن تطرق المقرر العام اليزيدي إلى هوية المجلس هل هو مجلس شورى الحكومة المغربية أو هو مجلس شورى المقيم؟ فالجانب المغربي يرى أنه ليس بمشروع وليس قانونيا إذ لم يؤسس بظهير. زد على ذلك رئاسة المقيم العام له دون غيره ووجود قسمه الفرنسي الذي تبرم فيه الأمور إبراما في غيبة المغاربة أجمعين إذ لو كان مغربيا لما ساغ لهؤلاء أن يكونوا قسما وحدهم يدرسون فيه شؤون البلاد حتى تهيأ ثم يقدمونها إلينا لنقرها مرغمين ولا يحضرها الصدر ولا غيره. فأجاب المقيم: إنه قانوني ومجلس شورى الحكومة حقا والدليل على ذلك وجود الصدر الأعظم رئيس الحكومة المغربية والمناديب المخزنيين. فردوا عليه بأنه لو كان رئيس الحكومة رئيسا للمجلس لاندس علينا ما تقول ولكنه يحضر هنا مرؤوسا فدل على أنه مسوق كما سيق غيره من المغاربة أجمعين.

وبالجملة فإن تقرير اليزيدي أثار تعاليق مختلفة من الفرنسيين من جهة أولى ومن المغاربة المنتفعين من الوضع الراهن ككبار القواد والباشوات ومن الشعب المغربي في مجموعه.

فالفرنسيون اشتد حنقهم على مقرر أبدى ما لم يكن بحسبانهم أنه سيقال.. وأما القواد والباشوات فقد امتعضوا من ذلك ورأوا أن المقرر العام هدد مصالحهم مباشرة وتهجم على كرامتهم ومس بشرفهم الموهوم وخصوصا التهامي الجلاوي مع أن المقرر العام إنما ساق مثالا على سوء مظاهر العدالة فقرات من خطاب عميد المحامين بالمغرب وهو فرنسي وذلك سنة 1947 إذ قال: «.. فالباشوات والقواد يتولون الأحكام لا بصفتهم قضاة بل بصفتهم رؤساء وليسوا مستقلين ولو شيئا قليلا عن السلطة العليا. وهذا شيء واقع يلزمنا أن نتصوره دائما أمام أعيننا وهم يتعمدون جهل تلك القوانين القليلة البسيطة التي تجعل حدا لسلطتهم القضائية لأنهم يابون إلا أن تكون كلمتهم هي العليا كما أنهم لا يعصون للإدارة أمرا».

هنا انفجر المقيم العام يرد بصورة لا تقنع حتى أجهل الجهال بالمنطق. واعترف رغم ذلك بان النظام العدلي الموجود فاسد. وهذا الجواب لم يقنع الجلاوي والذي بين ذلك هو اندفاع بالتصفيق لليهودي بردوكو لما صرح: «إننا خرجنا عن الموضوع ودخلنا في السياسة». والمقيم اخر الانتصار المرضي للجلاوي حتى يساومه عليه فلما بيتوا الخطة انتصر له كما يرضى وسيمر بك ذلك مفصلا. وهكذا استمرت هذه المعركة ينتصر فيها وطنيون ليس لهم من التجربة والتدريب إلا ما كونوا لأنفسهم مع طول مران الحوادث وقساوة الظلم. ينتصرون على فطاحل درسوا بأهم الجامعات وتمموا دراساتهم بتجارب في بلادنا وغيرها وحنكتهم الأعمال الدائمة والمعارف القيمة ولكن الظالم والمتعدي ينخذل دائما عند المناقلة والحجاج

ولا تنفعه معارفه ولا تجاربه في رد الحق شيئا والشمس لا تحجب.

وهنا نلاحظ أن كل مدير قهرته حجة الوطنيين يستنجد بالمقيم العام الذي طالما كرر هذه العبارة «هؤلاء لا تقنعهم حجة ويريدون كل شيء» وقد تناولت المناقشة كما قدمنا النفقات الاقتصادية والاجتماعية وبرنامج مارشال والتعليم وتعريبه والمدارس الحرة ومجهودها وإعانتها والفلاحة والضرائب ومن يؤديها. ولما وصل دور الشغل والشؤون الاجتماعية أجاب المقيم على انتقاد المقررين بأن من أراد أن يعلم ما في المسألة فليبحث عنه في بنائق المخزن. يعني أنه عرض مشروعا ينص على تكوين نقابات فرنسية يندمج فيها المغاربة فلم يرض السلطان عن هذا الظهير ولم يوقعه. وهذا ما عناه المقيم العام. هنا خرج أعضاء المخزن عن حيادهم لأنهم اضطروا إلى خوض المعمعة لأن الضربة كانت في جانبهم قاسية فأجابوا بأن السلطان عرض مشروع النقابات الحرة منذ عامين فلم يحظ بالقبول من لدن الإدارة الفرنسية وكان فرسان الجواب هم عبد اللطيف التازي ومحمد الناصري ورشيد ملين. وهذه الحملة من المخزن زادت في أحزان وغيظ رجال الإدارة.

الهوة السحيقة الأولى

وجاء دور المقرر الغزاوي في الأشغال العمومية وكانت الإدارة قد حاولت مع الغزاوي أن يحذف بعض الفقرات من تقريره أو يؤخر جملة ولكن جريدة فرنسية تصدر بالمغرب نشرت الفقرات المنوي حذفها فأصبح المجلس بفضحها أمام الأمر الواقع وتلا تقريره ورفعت الجلسة للاستراحة. وبمجرد ما استؤنفت قام الجنرال جوان وقال «إن المقيم العام الساهر على كرامة فرنسة وحقوقها في هذه البلاد قد حذر في أول الدورة بعد تلاوة التقرير العام كل الأعضاء ودعاهم إلى أن يتلافوا الأسلوب الذي يمس شرف

فرنسة حتى لا يضطر إلى اتخاذ الوسائل التي يراها ضرورية. ولكن هاهو السيد الغزاوي رغم هذه النصيحة يقدم تقريرا مشبعا بالروح المشبع بها التقرير العام. إن ممثل فرنسة لا يمكنه أن يسكت عن هذا. ولهذا فقد اتخذ قرارا بطرد السيد محمد الغزاوي من المجلس».

نزلت كلماته كالصاعقة على الحاضرين وعم المجلس صمت عميق لا يرن فيه إلا معاني عبارات المقيم وتحقق أن المجلس مجلس شورى المقيم لا مجلس شورى الحكومة. وبهذا الطرد حفر جوان هوة سحيقة أولى في سبيل التفاهم بين فرنسة والمغاربة وقضى على الأمل في تفهم فرنسة للحالة. كان النواب المغاربة بصفتهم منتخبين يعتقدون أن لهم حصانة تقيهم هذا الرفث الشائن فأصبحت الانتخابات التي أجريت مجرد عبث لا تنطوي على معني معتبر وأصبحت الإدارة خصما وحكما في آن واحد وظهر وجه الاستعمار الكالح المكشر عن نابه واضحا في صفته الذاتية التي لا يمكن أن ينسلخ عنها لأنها جزء من مدلوله. هم الغزاوي بالدفاع عن نفسه فمنعه من الكلام وقال له «اخرج. لم يبق لك مكان في هذا المجلس. إن كل شيء له حد ولقد جاوزتم كل الحدود» وحاول اليزيدي إنقاذ الموقف وطلب رفع الجلسة للتشاور خارج المجلس فامتنع المقيم من رفعها وقال «افعلوا ما شئتم . إن المجلس سيستمر».

خرج الغزاوي وتبعه أغلبية أعضاء المجلس من المغاربة المنتخبين ولم يبق إلا الموظفون والمأجورون المعينون من قبل الإدارة.

والراجع إلى التقارير التي تليت لن يجد فيها شيئا يمس شرف فرنسة ولا ذكرها مطلقا. وقد عرض تقرير الغزاوي على عدد من شخصيات فرنسية وفيهم بعض رجال الحكومة الفرنسية فلم ير فيه أحد منهم مسا بشرف فرنسة فهل يكون فرنسيو المغرب أشد غيرة على فرنسة من فرنسة

نفسها؟ زيادة على ان التقرير قدم إلى الإدارة قبل انعقاد المجلس بأسبوعين فكان من حقها أن توقفه قبل انعقاد المجلس.

الملاذ الأعظم

وبعد خروج النواب التجأوا إلى باب جلالة السلطان ووقفوا يستأذنون وحيث ان السلطان حريص على حسن العلاقات بين المغرب وفرنسة وحيث ان النواب المطرودين لم يثبت عليهم مس فرنسة ولا رجالها بسوء أذن لهم وشكوا له ما لقوا من التعنت فهون عليهم الأمر وأوصاهم بالصبر والأناة.

وبعد هذا رفع رجال المخزن في الاجتماع الوزاري الذي يقرر فيه مشروع الميزانية تقريرا يقربون فيه بين وجهة نظر النواب وبين حجج المديرين وبفضل تدخل الكاتب العام للحكومة والذي تفهم جيدا وجهة النظر المغربية أمكن نقص 10% من ميزانية الأمور الاقتصادية ونقلها إلى الشؤون الاجتماعية ومنها التعليم والقضاء فرفع إلى السلطان مشروع الميزانية هذه بعد تعديله كما تقدم لسنة 1951 فوضع طابعه عليه. وبذلك ظن الناس أن الأزمة انتهت بتوقيع المشروع ولكنهم لم يدروا أن ذلك مجرد مقدمات لنتائج آتية وأن النار تحت الرماد توشك أن تضطرم.

عيد المولد وثانية الأثافي

عيد المولد بالمغرب أبرز الأعياد في الحفلات الرسمية فلا يتخلف فيه ذو حيثية رسمية عن الاحتفال وزيارة صاحب الجلالة. يحيون معه ليلة المولد وفي غده يحضرون حفلة الهدايا وفي اليوم الثانى اقتبالات الناس.

وفي مثل هذا اليوم اعتادت الإقامة العامة إقامة حفلة شاي تدعو اليها الوزراء والباشوات والقواد ورؤساء الغرف التجارية والفلاحية والصناعية والبلديات.

جرأة خادم

كان أول مستقبل في هذا اليوم من طرف السلطان التهامي الجلاوي. وهنا تضاربت الأقوال واختلفت الروايات في شكل الاستقبال ومواده وأقربها إلى الواقع الرواية القائلة بأن المقابلة كانت على هذه الكيفية «قال الجلاوي بعد التحية: جئت لتهنئة سيدنا بالعيد وجئت أطلب منه أن يكف عنا هؤلاء الوطنيين. لقد أهانونا في مجلس شورى الحكومة وسبونا فأجابه السلطان بقوله: إن اليوم يوم عيد ووفود الشعب المهنئة واقفة تنتظر فليس هذا وقت الحديث في هذا الموضوع فأجابه الجلاوي: إنهم جاوزوا الحدود ولم يعد من الممكن تحمل هجماتهم بعد فقال صاحب الجلالة: وهل أنا مسؤول عن ما يجري في مجلس الشورى؟ وهل أمرتك بالحضور فيه لتسمع ما سمعت؟ . قال الجلاوي: إننا ألقينا قيادنا إليكم لا لنسب ونهان فقال السلطان: إني لا أرضى أن يهان عمالى كما لا أرضى أن يستبدوا ويظلموا أحدا وان باب المحاكم مفتوح فمن أذنب دعي إليها وحوكم. قال الجلاوي: إنهم يهاجموننا في عقر دارنا وقد زعموا أنهم يتكلمون باسم سيدنا ويحرضون القبائل على التمرد وإذا أصدرت أمرا لا يطاع وإذا حاولت مجازاة متعد منهم حضر إلى أعتابكم فوجد آذانا صاغية وأرجو أن لا يسمح لأحد بإبداء الشكاية ضدي. قال الملك: أتريد أن أطرد من استجار بي من رعيتي وأن لا أحول بين الظلم وبينهم؟ كفى ما مر يا باشا ويجب أن تتفهم روح الديموقراطية ولابد أن تسود في هذه الديار. قال الجلاوي: إنني

لا أكف حتى أحصل ما أطلب ولي الحق في تحصيله. قال السلطان: لا حق لك . اخرج وانتظر في الصدارة أوامري».

ذلك هو كيفية المحادثة التي دارت بين السلطان والجلاوي في هذا الاستقبال. وأنا أسوقه هنا بتحفظ في كيفيته. أما جوهره فحقيقة واقعة لا مراء فيها.

خرج الجلاوي وجلس في مكتب الصدارة ولم يلبث أن استدعاه المقري الوزير الأكبر إلى مكتبه وهو شعلة غضب فأبلغه أمر السلطان: «إن صاحب الجلالة يأمر التهامي الجلاوي بلزوم مراكش وأن لا يطرق باب القصر الملكي حتى يصدر إليه أمر جديد وعليه أن ينفذ في الحين أوامر صاحب الجلالة».

لقد مر بنا طرد المقيم العام للغزاوي وأصحابه إرضاء للجلاوي ومن على شاكلته. عدها الجلاوي نصف انتصار على أولئك الذين تجرأوا على النيل من سمعة الظلم والاستبداد.... وأراد الجلاوي والمقيم أن يجهزا عليهم ليتم الانتصار فحرض الجلاوي على إغراء السلطان بهم فسلك معه هذ المسلك غير اللائق والمعدود من تجني أهل الدلال المحظوظين الذين غرتهم تمنية المستعمر ووعوده. على أن هذا جرى من الجلاوي على غير عادة منه فإنه كان من أسبق عمال المغرب إلى التذلل والخضوع والامتثال والاحترام للسلطان. تشهد لذلك مواقفه السالفة في شتى المناسبات وقد رأيته بعيني في حفلة معدن تيزى نتيشكه لما نزل جلالة السلطان من سيارته ووجد قبائل الأطلس في انتظاره تقدم إليه وخر على قدميه يقبلها لاثما بفمه نعليه أمام الصحفيين والوزراء والقواد والباشوات وجمهور المغاربة فالذي يقابل السلطان بمثل هذه المقابلة لا يمكنه أن ينقلب في لحظة إلى ضدها إلا بإغراء ووعد وتمنية وإغواء ممن ظن أنهم فوق نفوذ السلطان وإلا فما معنى

هذا الإلحاح بعد أن قال له السلطان إن هذا يوم عيد وليس يوم النظر في ذاك الموضوع وجماهير المهنئين وقوف بالباب فهذا الاعتذار من السلطان كاف في تخليه عن هذا الموضوع أو تأخيره على الأقل إلى فرصة مناسبة ولكنه برنامج حبك من قبل وقصد به يوم العيد قصدا لينتشر في الوفود عصيان الجلاوي للسلطان تهيئة لأفكار الآخرين المتهيئين لمثل هذا العصيان. وما عرف عن الجلاوي انحراف عن الأعتاب الشريفة منذ ولي نحو الأربعين سنة إلى أن سافر في وفد جلالة السلطان إلى باريز وتأخر بعده كما تقدم وفي تأخره هذا ـ كما تقدم ـ كشف الغيب تآمره على أهداف السلطان وشعبه وأتم تآمره ذاك مع المقيم العام بالرباط أيام انعقاد مجلس شورى الحكومة.

تنفيذ الأوامر أو عصيانها؟

ما كاد الصدر الأعظم يبلغ التهامي الجلاوي أوامر السلطان حتى شاع الخبر عند أصحاب الجلاوي وأبنائه وعند الحاشية المخزنية وفي الرباط وعند الوفود وأصبح حديث المجالس فماذا هو فاعل الآن؟ هل ينفذ أوامر سيده؟ أو سيظهر العصيان؟ وفي هذا اليوم كانت دعوة الإقامة العامة للشاي فهل يحضر مع الباشوات والقواد أو سيلتحق بمراكش كما مر؟

لقد كشف الغيب أن الجلاوي بدأ بذلك مؤامرة مبيتة حبكتها أيد عديدة حادقة وجعلته معولا لتهديم صرح المغرب فقد تمادى على البقاء في الرباط ولم ينفذ أمر السلطان بل بلغت به الوقاحة أن طلع إلى المشور وجمع أبناءه وقبائله وهداياهم وانسحب بهم من هناك ثم وافقه العيادي الرحماني على ذلك فانسحب هو أيضا بقبيلته وهداياه.

ولو كان ما وقع من الجلاوي من الجرأة في خطاب السلطان من ابتكاره هو لكان المنطق يقضي بأن ينفذ ما أمر به وأن يوصي أولاده لينوبوا

عنه في تقديم الهدايا والاعتذار عنه ولانحلت الأزمة بسلام ولكنها نتيجة لمؤامرة ليست محلية. قد حبكت وأبرمت خيوطها بالإقامة العامة وستستمر إلى أن تبلغ مداها وقد أعطي ضمانات كافية في الذود عنه وفي مؤازرته وحمايته حتى يبلغ الاستعمار أمنيته.

ذهب هو والرحماني إلى شاي الإقامة العامة وفي الوقت الذي دخل فيه المقري رئيس الوزراء إلى قاعة الشاي وجد التهامي الجلاوي جالسا في صدرها يحادث زوج المقيم.

ثم جاء دور ولي العهد ولما دخل ظهرت أمارات الاستياء على وجه التهامي الجلاوي. وبمجرد دخول ولي العهد قام الجلاوي ولم يودع أحدا إلا المقيم على باب القاعة وركب إلى مراكش بعد أن أوقد نارا التهمت بعد موقدها والمحرض على إيقادها في الأخير.

وقد قاطع حفلة الشاي هذه وفود البلديات من الرباط والبيضاء وفاس ووفود الغرف التجارية والفلاحية والصناعية لأن نوابهم طردوا من مجلس شورى الحكومة واقتصروا على المثول أمام جلالة السلطان وتهنئته.

صحف الاستعمار هنا وهناك

من ذيول هذا الحادث أن صحف الاستعمار تناولت الجلاوي بصفات سامية فقد جعلته داعيا دينيا حمل النصائح للسلطان ليذهب بالأمة مذهبا إسلاميا. ومثل هذه الصحف مثل من يسبغ على إبليس صفات الرسل المصلحين والأنبياء الصالحين. يا للسخرية ويا للتهاتر. ولكنا إذا عرفنا غرض هذه الصحف هان علينا. ذلك انها تغر بذلك الرأي العام الفرنسي الذي لا يعرف عن الجلاوي شيئا. أما المغاربة فهم أعرف به من نفسه بها كما تريد أيضا أن تهيئه لتسنم مقام عال في المغرب لتتخلص به من أفكار إعادة

النظر في معاهدة فاس 1912 كما تتخلص به أيضا من المجالس التي تحاسب الإدارة.

بيان الحكومة المغربية

ولما كثرت ترهات الجرائد الفرنسية أمر السلطان رئيس الحكومة المقري أن يلقي بيانا يشرح فيه حقيقة الأمر بين السلطان وبين أحد عماله وهو الجلاوي وعن موقفه وما كان منه. ولو لم يكن هناك أمر دبر بليل لكان بيان الوزير حدا لكل ما تحدث به الناس والجرائد حول طرد السلطان للجلاوي.

تصريح الجلاوي

وبعد هذا بأيام نقلت السعادة عن جريدة الفيكارو تصريحا للجلاوي تلقاه عنه مراسلها وهو يشتمل على المقاصد الآتية: 1 - كون الجلاوي يتكلم بلسان جميع الباشوات والقواد وجميع طبقات الأمة المغربية لأنه يعد الحارس الوحيد للسنة الإسلامية والزعيم السياسي والديني. 2 - بأوصافه المتقدمة يصدر حكما على رجال حزب الاستقلال بأنهم خارجون عن الإسلام وبذلك فهم يكونون خارج إطار الوطن وأعداء للدين وخصوما لمصلحة المغرب رغم دعواهم حماية السلطان لهم. 3 - إذا كان السلطان يطلب تعديل معاهدة الحماية فإن الجلاوي مصمم على ضرورة بقاء الحماية ودوام بقاء المغرب تحت حكم فرنسة.

ذلك أهم مقاصد هذا التصريح.... وهل مثل الجلاوي الذي عرفت ترجمته في ما سلف يصلح أن يكون حارسا للإسلام في أرض تعج برجال

العلم والدين؟؟؟؟ لقد جعل الاستعمار وأذنابه الدين حبالة يصطادون بها الشعب لأغراضهم الاستعمارية لغربته. وأي غربة أعظم من هذه التي يدعى فيها ...... أنه حارس الملة والدين؟؟؟ ونحن الذين عاصرناه وعرفنا دخائله لا يصح عندنا قوله: إنه يتكلم باسم جميع القواد والباشوات وباسم الشعب المغربي لأنه في الحقيقة لا يمثل حتى نفسه لما يطرأ عليه من إغماء وتخبط لانحراف عصبي كان يعتريه وإنما هو شأن كل متمجد يجعله المستبدون وسيلة لأغراضهم فهو بيدق يقدمه اللاعب ليجلب لنفسه به الغلبة لا أقل ولا أكثر وكم له من مثيل. ثم إن جاهلا مثله لا يمكن أن يصدر منه هذا التصريح ولقد فضحت مصدره جريدة لورور الفرنسية في قولها: إن الإقامة العامة كتبته ونسبته للجلاوي وليس للجلاوي فيه إلا التوقيع إن كان هناك توقيع. وأصح دليل على ذلك هي شروط جوان التي قدمها إلى السلطان عند سفره إلى أمريكة.

إن هذا التصريح يحمل من الأوباء ما انفجر به المغرب بعد ذلك. إن التصريح يوهم أن السلطان متحيز إلى حزب الاستقلال وأن هذا الحزب له صلة واتفاق مع الشيوعيين فالسلطان إذن يكون على هذا عدوا للدول الغربية حليفا للشيوعية.

عود إلى الصحافة الفرنسية

وجدت الصحافة الفرنسية مرتعا خصبا في هذه القضية فتفننت في فلسفتها فيها فمنها من جعلت الأزمة مبنية على خلاف بين مذهبين: الوهابي المبتدع الذي يكون على رأسه السلطان والمذهب السني الذي يكون الجلاوي على رأسه «كذا». ومنها من جعلتها اصطداما بين جنسين: البرابر أهل البلاد والعرب الفاتحين المعتدين «على قولهم» . ومنها من

جعلتها تنحدر من خلاف سياسي بين الشيوعية التي يكون يرئسها السلطان وبين الرأسمالية التي يكون على رأسها الجلاوي. ومنها من جعلتها بين الديموقراطية والتعصب الديني.

هكذا ذهبت الصحافة الاستعمارية الفرنسية تخلق الأزمة حيث الهناء والتفرقة حيث الاتحاد والخصومة حيث الإخاء. والحقيقة التي لا تحتاج إلى دليل أن الشعب المغربي ضرب الرقم القياسى للشعوب في اتحادها حول سلطانها محمد الخامس وما عرفت أمة كان منها مثل اتفاق المغاربة على حب محمد الخامس في عهد نكبتها بالاستعمار لأن الاستعمار سلب الشعب كل شيء فلم يجد الشعب ملاذا ولا بقية وجود إلا في محمد الخامس فالتف حوله. ولقد زعموا وهو زعم باطل أن السلطان ملك حزب لا ملك شعب والواقع أن السلطان يعطف على جميع رجال العمل الصالح سواء كانوا في حزب أم لا ويفتح أبوابه لكل من له غاية سامية إليه ويدافع عن المظلومين مطلقا ولاسيما إن كانوا ممن يذبون عن مصلحة الوطن ومستقبله. لم يوظف رجال حزب الاستقلال كما يزعمون وحدهم وما على الباحث إلا أن يرجع إلى قائمة موظفي المخزن فيجد أن السلطان لا يرضى إلا الكفؤ كيفما كان لونه السياسي. وحتى أعضاء ديوانه الجدد فإنهم لم يوظفوا حتى رضيت الإقامة العامة بتوظيفهم وبعد اقتناعها أنهم ليسوا من حزب الاستقلال.

إن المغاربة ولاسيما الداعين منهم إلى الحرية ونيل الحقوق كانوا معرضين للاتهام بالألمانية ولما انهارت ألمانيا وقام الخلاف والحرب الباردة بين الشيوعية والرأسمالية أصبح الاتهام الذي يرمي به المغاربة هو الشيوعية. ولكن الذي يحز في النفس هو إلصاق بعض هذه التهم بسلطان ما عرف التاريخ مثله استقامة وتدينا واستماتة على الحق ودعاء إلى الصبر والأناة ودعاية للإسلام بحاله وقاله.

لون جديد سخيف من المبررات

هكذا تضامنت ضد الحركة التحريرية المغربية عناصر شريرة داخلية وخارجية فرنسية فخلقت قصدا حالة من التوتر والتخوف والتحفظ. دفع ذلك مدبري المؤامرة إلى التقدم في تطبيق برنامجهم الخبيث فأشاعوا على ألسنة جرائدهم أن السلطان أصابه خلل عقلي وأن الحكومة تنظر في من يخلفه. وأصبحت جرائد الاستعمار لا على متن الخبر وسنده بل على من سيخلفه وهل تعيين الخلف من حقه أو من حق غيره. أما خبر اختلاله فهو عندها قضية مسلمة..؟؟.... ولقد قامت بعض الجرائد الحرة بباريز وكتابها الأحرار برد الحق إلى نصابه وإلى تزييف ما ترمي به الصحافة صاحب الجلالة وأحزاب الوطن كجريدة اللوب لسان حال الجمهورية الشعبية وكتابها وفي مقدمتهم كرافال.

حركة التمرد

وفي هذه الأثناء كان الجلاوي المتمرد يجوس خلال ديار المغرب يدعو القواد والباشوات والعلماء بصفته الرئيس السياسي والديني يدعوهم إلى شق عصا الطاعة على السلطان وإقامة غيره مقامه. ولقي في حركته هذه كل تسهيل وتشجيع بل قد تولى المراقبون ورؤساء النواحي تحريض القواد والباشوات والقضاة على مناصرة الجلاوي بل قد ضغطوا عليهم وأكرهوهم ومن ثبت ولم يطعهم عزلوه فاتقدت فتنة في الناس لا مثيل لها والشعب لا يؤخذ رأيه في شيء من ذلك لأن مدبري المؤامرة يعلمون سلفا هوى الشعب مع من هو. أما العلماء فقد خالفوه وكتبوا عريضة كنت من موقعيها يجددون فيها ولاءهم وتمسكهم بطاعة السلطان وتأييده مع الاستنكار لعمل باشا مراكش . وهم علماء كل المغرب. كل رفع عريضة من مدينته.

مجلس الوزراء

اجتمع مجلس الوزراء تحت رئاسة صاحب الجلالة فدرست فيه حركة الجلاوي فكان رأي الجميع أنه لو كان ذلك راجعا إلى الجلاوي وحده لهان الأمر.... ولو كان الأمر صادرا من ابتكار الجلاوي وجده لما وجد هذا الصدى المؤيد له في صحف فرنسة وهذا التأييد والتشجيع من رجال الحماية وممثليهم في النواحي وهذا التجرؤ من هذه الجرائد على شخص السلطان وسبه والنيل من شرفه. لقد نشروا في المغرب مناشير يمسون فيها نسبه الشريف فقام الشعب مغضبا لكرامة سلطانه ولكنه هدأ الناس وثبت جأشهم وكنت في وفد زاره من أجل ذلك فقال نصره الله : إن سلاح العاجز السب فاطمأنوا على مصيركم وعلى أمانتكم عندي فلن تصل إليها يد بسوء إن شاء الله.

موقف الحكومة الفرنسية وتدخل جوان في المعركة

إن الأخبار التي كانت ترد من أحزاب فرنسة المؤيدة للحكومة ومن رجال الحكم فيها على ألسنة جرائدهم كلها تدل على أن العرش العلوي لا يمكن جعله محل مساومة. ولكن جوان مثل أمام السلطان يوم 26 يناير 1951 وهو يحمل قائمة مشتملة على شروط كأنها حررت إثر حرب انتصر فيها على السلطان. هي شروط أملاها عليه ليخضع لها وإلا فإن خطورة الحالة ربما عصفت بعرشه وإن فتنا ستجرى وربما يلطخ دمها جدران قصره. أخبر السلطان أنه ذاهب إلى أمريكة مع بليفن وأنه يترك للسلطان مدة غيابه فقط للتفكر في الأمر واشترط أن يجد عند رجوعه جوابا مرضيا للشروط وإلا فإنه سيضطر لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظ الأمن في المغرب الذي يلزم من أمنه أمن فرنسة والدول الغربية المتحالفة وأخبر أن له التفويض التام للقضاء

على كل مقاومة مسلحة أو سلمية ولإبعاد كل مشتبه وكل رافض للتعاون معه.

ماهي هذه الشروط؟

الشروط حسب ما حصل من الجرائد والإذاعات وتأكد لدينا من أخبار المتصلين بالكتابة السلطانية هي:

1 ـ ان يستنكر السلطان الوسائل التي عمد اليها حزب الاستقلال في حركته خصوصا تقاريره في مجلس شورى الحكومة.

2 ـ ان يوقع بطابعه على جميع مشاريع الظهائر التي رفعت إليه وبقيت مهملة بدار المخزن.

3 ـ ان يبعد من القصر جميع الموظفين المنتمين لحزب الاستقلال ومنهم أعضاء الديوان السلطاني الذين يعتبرون عند جوان مسؤولين عن تعكير الجو بين الجنرال والقصر ومسؤولين أيضا عن تأخير المشاريع المذكورة في الشرط الثاني.

والناظر في هذه الشروط يجد صلة شديدة بينها وبين مطالب الجلاوي المتقدمة بل إنها هي نفسها وخصوصا الشرطين الأول والثاني . مما يدل دلالة واضحة على أن مطالب الجلاوي صدى لما طبخ في الإقامة العامة كما قدمنا. وأيضا فأي صلة بين هذه الشروط وبين خطورة الحالة في البلاد وأي صلة بينها وبين تعريض سلامة فرنسة والدول الغربية للخطر وأي رابطة بين استنكار السلطان لعمل جماعة من رعيته وبين سلامة إفريقيا والدول الغربية. والمقيم المتحدث عن خطورة الحالة في المغرب وقيام أزمة خانقة تدفع رجال القبائل إلى انتهاك حرمة المدن فما يريد بذلك؟ إن كان قصده

حركة الجلاوي فانه بأدنى إشارة يسكن ويستكين ومن المحرك للجلاوي قبل كل شيء فمن حركه قادر على إسكاته وإسكانه ولو خلي بينه وبين سلطانه لما وقع أدنى شيء من ذلك. والحق والواقع أن وراء حركة الجلاوي أسرار هي التي تهدد سلامة المغرب. فهل يريد المقيم إهانة السلطان فيردد مطالب عامله أو يريد أن يصبح السلطان جلاويا آخر؟ إن همة السلطان وشممه فوق ما يظن جوان ومن وراء تفكيره القاصر...

ندوة ابن الحسن الوزاني

كان ابن الحسن الوزاني وحزبه قد وقع بينه وبين حزب الاستقلال ما يقع عادة بين الأحزاب وكل حزب ينشر الدعاية لنفسه ولو بتحطيم مجهودات غيره ولكن في ظروف غير الظرف الذي عقد فيه ابن الحسن ندوته بالبيضاء فندوته شبه ضرب من الخلف وإعانة للعدو المشترك. بعد هذه الندوة زرت السلطان مع الأستاذ ابن عبد الله لأتبرأ من تلك الندوة لأنها مست السلطان ولأفهمه أني ما كنت منخرطا في حزبه ولكني لما فارقت حزب الاستقلال لم أجد جريدة أنشر فيها أفكاري ونصيحة شعبي وخدمته فكنت أنشر عندهم. أما ابن عبد الله فزاره ليعلمه بالتخلي عن حزب ابن الحسن لأنه لم يستشر في تلك الندوة. ومن كلامه عند ذكر الشوريين «والله ماكنت أفضل حزبا على حزب ولقد اطلعت ابن الحسن وأصحابه على وثائق ما كان يطلع عليها حتى حسن ابني» ثم قلت له على سبيل الحكاية «إن قوما ممن يشار إليه قال: لو حقن السلطان دماء شعبه وأرضى المقيم والإقامة العامة ثم له أن يكر على هذه الترضيات في مناسبة ملائمة». فقال «أترضى لي يا فلان هذا الموقف؟» فقلت «يا مولانا. حاكي الكفر ليس بكافر» فقال «الموت أهون من ذلك والقتل والصلب دون ذلك. إن أمانة الشعب عندي في حصن حصين لن يبلغها كيد الكائدين ولا ضغط الضاغطين».

عدا طوره

تعدى جوان طور مهام منصبه فهو مندوب فرنسة عند السلطان وهو نائب وزير الخارجية للسلطان فما هي العناصر والصلاحية والاختصاص التي تخوله هذه التهديدات؟ السلطان تربطه بفرنسة معاهدة لا مع المقيم ولا مع الإقامة العامة فهو رئيس دولة والمقيم يعلو شأنه ما شاء فلا يتعدى رتبة وزير فهل يمكن لوزير دولة مثلا أن يهدد رئيس دولته إذا امتنع من إقرار مشروع لا يرى فيه مصلحة لشعبه؟ إن السلطان المغربي الذي نعرف همته لا يرضى لنفسه ولا يرضى له شرفه الطارف والتالد أن يقف موقف الإهانة أو موقف الخيانة أو أن يكون مجرد صدى لآخرين كانوا من كانوا..... إن البلاد كانت هادئة تنتظر مستقبلها الباسم الذي يقودها إليه ابن يوسف إلى أن أثار فيها جوان فتنة حالقة. وهل ذلك لإرضاء الجلاوي خادم مصلحة الاستعمار أو انتقاما ممن عارضوا أعمال الإدارة في مجلس شورى الحكومة؟ ألمثل معارضة هؤلاء وإرضاء ذاك تقوم هذه الفتن التي كادت لولا حكمة السلطان تأكل الأخضر واليابس؟ اللهم لا بل انتقاما من خطابه في طنجة ومن طلبه إعادة النظرفي عقد الحماية لما سافر إلى فرنسة. والشروط المقدمة بلاشك حائلة دون ذلك لأن استنكار حزب الاستقلال لا يرتكز على أساس قانوني ذلك أن هذا الحزب غير معترف به قانونيا وإذن فهو مجرد فكرة للاستقلال واستنكار السلطان له تراجع منه عن طلب الاستقلال.

انتظار موافقة أو مخالفة

وطالما انتظر السلطان من فرنسة أن تكتب إليه بمقتضى ما يطلبه جوان أو بعدمه حسب ما يقتضيه القانون الجاري في مثل ذلك فإن ما يطلبه جوان أمر مهم لابد أن يكون مصدره فرنسة وإلا اعتبر اقتراحا من الإقامة العامة

ولا يكتسي صبغة رسمية. ولكن فرنسة كانت صامتة لا تبدي ولا تعيد حول الموضوع.

وبعد مجادلة طويلة ومحاجة لم يقنع كل منهما للآخر وخرج جوان مصرا على مطالبه وعلى أجل الجواب عنها وسافر إلى أمريكة وترك جوا خانقا في المغرب.

اتفاق على المطارات في غيبة المغرب

في 22 دجنبر 50 اتفقت فرنسة والولايات المتحدة الأمريكية على أن سلمت الأولى للثانية مطارات في نقط متعددة بالمغرب وعلى إجبار أهل تلك الأراضي على إخلائها لهذه الغاية وأن تكون تلك المطارات بعد إخلائها ملكا لوزارة الخارجية الفرنسية.

وهكذا وقعت هذه المعاهدة دول دون أن يستشار المغرب فيها مطلقا ملكا وحكومة وشعبا؟ بل قد وقع الاتفاق وكأن الأرض أرض فرنسية. يدل على ذلك البند الأخير منه القائل: وتكون تلك المطارات ملكا لوزارة الخارجية الفرنسية.

بهذا الغرور كانت تتصرف فرنسة في أرضنا وبهذا التجاهل لوجودنا ورغم احتجاج السلطان والشعب فقد تم الاتفاق وبنيت المطارات على رغمه. وإذا رجعنا إلى عقد الحماية نجد أن المقيم ينوب عن الملك في الأمور الخارجية وهل معنى ذلك أن المقيم الذي هو كوزير الخارجية يقضي ويفصل بدون استشارة من وزر له من ملك وحكومة؟.... ولكن الاستعمار لا يعتمد على القوانين الدولية إذا تمكن من أمة ومقدراتها وإنما يعتمد على القوة والغلبة والاستبداد ولا يقرأ للواقعين في قبضته حسابا.

ومن أجل هذه المعاهدة سافر جوان مع وزير خارجية فرنسة إلى أمريكة الشمالية لينسقوا دفاع شمال الأطلسي وليكون جوان قائدا عاما لجهة خاصة منه. وهنا يتساءل المؤرخ: لماذا اختار جوان إلقاء قنبلته أمام السلطان يوم سفره إلى أمريكا؟ أليوهم السلطان والرأي العام المغربي أنه سيصفي حساب العرش والقضية السياسية المغربية في واشنطن؟ إن عقلية الأمريكان لا ترضى بطرح المسالة السياسية المغربية على بساط مذاكرتها مع فرنسة لأنها لا ترضى أن يسمع عنها الروس أنها تؤيد الاستعمار فيجدوا لذلك مطعنا عليها في دعايتها. وأيضا فإن هناك مسالة التقنين على جلب البضائع الأمريكية التي طال الجدال حولها وأخيرا رفعت إلى محكمة لاهاي فحكم فيها لمصلحة التجارة الأمريكية.

عرائض مزورة

غادر جوان المغرب وطنين امتناع السلطان في أذنه لم يزله ولم يحجبه عنه عواصف الرياح التي تعرضت لها طائرته ولا تبدل الأجواء التي يمر بها. وإزاء امتناع المشرع الأول من استنكار حزب الاستقلال فما على رجال الإقامة العامة ورؤساء النواحي والمراقبين المدنيين والقواد المجرورين في عجلة الاستعمار إلا تكديس عرائض ضد حزب الاستقلال بل استغلوا أيضا ندوة صحفية عقدها ابن الحسن الوزاني في البيضاء وأضافوها إلى هذه العرائض وما كان ينبغي له ذلك في هذا الظرف العصيب على هذا الحزب والسلطان لأنها ضربة من الخلف وإعانة للعدو المشترك. جمعوا كل ذلك وعرضوه على السلطان ليوهموه أن الشعب والحزب الآخر كلهم يستنكرون هذا الحزب ولم يبق إلا السلطان المتعصب ضد شعبه.. ولقد أجاد وتندر بعض الكتاب حول هذه العرائض إذ قال: لو عرضت هذه العرائض على جمعية

الأمم لأصبحت منظمة الأونسكو تندب خدودها وتستر وجوهها خجلا لأن هذه العرائض كلها ممضاة بالبصمات فهي دليل قاطع على انتشار الجهل بشكل عظيم في المغرب فأين تمدين فرنسة إذن الذي ملأت به الدنيا. إنها فضيحة لو قدموها.

صدى هذا التعنت وإخفاق هذا التحدي

شاع خبر تهديد السلطان من قبل جوان ووصل إلى الأوساط الفرنسية فتطلع الناس إلى الحقيقة وأثر هذا القلق صرح شومان وزير خارجية فرنسة بأن خلع محمد بن يوسف لا تفكر فيه الحكومة الفرنسية.. وذكر بأن للمغرب عاهلا شرعيا هو ابن يوسف فمعه يجب التعاون والمفاوضة للوصول إلى حل يرضي مطامح الشعب المغربي.

صيحة في واد

وأثر هذا بعث ابن عبد الكريم الريفي برقية إلى ترومان رئيس الجمهورية الأمريكية يلفت نظره فيها إلى ما يجري في المغرب من تهديد للعرش وصاحبه إهانة لرمز المغرب طالبا منه التدخل للحيلولة دون ما عساه يناله.

والجامعة العربية

يقال في المثل العامي: لا يباع من له أخ في السوق. اجتمعت الجامعة العربية في هذا التاريخ فنبهها الخطابي عبد الكريم إلى هذا الحادث فقام أعضاؤها قومة رجل واحد واستنكروا عمل فرنسة وعزمها وتهديد مقيمها للملك فكان لعمل الجامعة العربية صدى عميق على الحكومة الفرنسية

وكانت النتيجة منه حميدة فقد صرح سفير فرنسة في مصر بأن حكومته لا تنوي ولا تفكر ولم يخطر ببالها خلع السلطان ولم تعط تعليمات لأحد بذلك لا مباشرة ولا غير مباشرة.

وبذلك أخفقت مناورة أصحاب المكيدة المدبرة إخفاقا إن لم يكن تاما فهو صدمة تردهم خاسئين.

رجوع جوان وتراجعه

بعد أن هيأ جوان لطلب المثول بين يدي السلطان عند رجوعه بمقابلة ولي العهد مثل بين يديه يوم 12 فبراير 51 فكيف لقي السلطان؟ لقيه ببشاشة بعد العبوس والانقباض معتذرا عن التهديد السابق «بأنه صدر منه لأجل التوسط بين طائفتين كبيرتين من المغاربة يخاف من اصطدامهما تشتيت الوحدة واضطراب الأمن وأيضا فإنه لا صلاحية له في تهديد العرش وصاحبه ولا اختصاص له في الكلام عن ذلك فضلا عن تنفيذه ولجلالة السلطان أن يختار الأسلوب الذي يراه لتهدئة الأفكار وأن يترك أعضاء ديوانه في المخزن ليتمكن الجميع من دراسة الظهائر الموقوفة مع المديرين أما استنكار وسائل حزب الاستقلال فليس معناه استنكار فكرة الاستقلال فللمغاربة أن يطمحوا إلى استقلالهم بالطرق المعروفة والحماية ليست بخالدة وللوصول إلى أجلها يجب الهدوء والأمن والسكينة».

خرج المقيم بعد هذه المحادثة الطيبة وظن السلطان وجوان نفسه والشعب المغربي وفي مقدمته المخزن أن الأزمة قد انتهت أو كادت.

تعنت جديد

وبينما كان السلطان يتخابر مع حكومته في الصيغة الواجب سبكها في التصريح المطلوب وقد حضر زيادة على الوزراء والمناديب عالمان لاستشارتهما في الأمر، بينما كان الأمر كذلك كان المقيم يتحادث مع رجال الإدارة فيما جرى بينه وبين السلطان ففتلوا منه في الذروة والغارب حتى رجع عما أبرمه مع السلطان وفورا بعث إلى السلطان مع المستشار يخبره بأنه لابد من تنفيذ الشروط السابقة ومنها استنكار حزب الاستقلال وحزب الاستقلال غير معترف به إذ هو مجرد فكرة كما تقدم واستنكار فكرة الاستقلال ضربة في صميم المسألة التي يطمح اليها المغرب كله بسلطانه وشعبه فكيف يجوز ذلك شرعا وسياسة؟ وهكذا دام الأخذ والرد بين الإقامة العامة والمخزن نحو الأسبوعين من 12 فبراير إلى 25 منه 1951 دون أن يصل الطرفان إلى حل وسط يحفظ للمغرب وسلطانه شرفه ويرضي الجانب المستعمر. وكان السلطان والمخزن يجعل مسالة الوطن الكبرى فوق كل اعتبار والجانب الاستعماري كان مصرا على إصابة شرف الوطن والسلطان مهما كلف ذلك من عمل. ولعل القبول المبدئى للتصريح العام الذي لا يخص حزبا ولا شخصا هو الذي جرأ المستعمرين على التعنت في موقفهم لينالوا مبتغاهم كاملا غير منقوص. وهنا أصبحت جرائد الاستعمار تفرض نظريتها وكانها منبر دولي تخلع الملوك وتنصبهم والإقامة تنظر اليها نظر المتفرج المعجب ويوم 14 اجتمع المخزن واتفق أن لا يذهب السلطان في التسامح أكثر مما فعل ويوم 15 منه تنازل المخزن عن البروتوكول وعقد وفده واتصل بالمستشار كلوزيل وعرضوا عليه الحل الذي لا يمس شرف المغرب وسلطانه فاقتنع بوجهة نظر المخزن ووعد بالعمل على إقناع الجانب الاستعماري غير أن كلوزيل ساء فهمه إذ ظن أن جميع المخزن مستعد لاستنكار حزب الاستقلال بيد أن

البعض فقط قبل التبرؤ من الانتماء إليه فقط لا استنكاره. ولذلك قصد القصر السلطاني يوم 19 فبراير 1951 وأبلغ السلطان أن الإقامة العامة قبلت احتفاظ المخزن بالتصريح السلطاني على أن تتكفل الوزارة باستنكار حزب الاستقلال استنكارا بينا واضحا وأن يكون التصريح الوزاري أنشئ في الإقامة العامة والوزارة لم تقترح هذا أبدا والسلطان الذي لا يرضى أن يخضع للتهديد والوعيد لا يسمح لوزرائه أن يفشلوا أم أن يتقاعسوا. ويوم 19 فيفري 1951 اجتمع المجلس الوزاري برئاسة السلطان وأعلن لهم أنه مصر على موقفه وأنه لا يمكنه أن يزيد على ما قرر في تصريحه شيئا وأن للوزراء الحرية في ما تمليه عليهم ضمائرهم. ولكن الوزراء لم يجد الاستعمار إلى استمالتهم سبيلا رغم أن منهم من له صداقة وارتباط بالاستعمار لأن الوطنية والدين كانا فوق كل اعتبار عندهم إذ معنى تصريحهم بما اقترحه المقيم تعبير عن الخلاف المدعى بين القصر والحكومة ومعناه خلق جبهة ضد السلطان ومعناه أيضا وجود رئيسين عربي وبربري لشعبين كذلك. ثم كتب الوزراء تقريرا يتضمن تضامنهم مع السلطان ورفعوه إلى الإقامة العامة عن طريق المستشار. وفي مساء هذا اليوم بعد وصول التقرير الوزاري إلى المقيم أراد أن يملي على الوزراء بنفسه باللغة التي يفهمونها لما عجز عن ذلك المستشار فاستحضرهم إليه وتركهم وقوفا مدة إملائه عليهم ما أراد إذ قال «إن المغاربة لا يفهمون خطورة الحالة وإنهم لا يقدرون الأمور حق قدرها وإن شرذمة من الشباب جاوزت حدها ووجدت في القصر آذانا صاغية ولكن المقيم سيعرف كيف يعرفهم بقيمتهم وأنهم مغرورون والشعب كله ضدهم وهذه عرائضه فإما أن يخضع القصر لهذه الإرادة الشعبية وإما أن يستعد لحرب أهلية يشنها أهل البادية على أهل المدن والمقيم يتحرر من كل مسؤولية ولا يحرك ساكنا إذا اخترق أهل البادية شوارع المدينة يعيثون فيها بل حتى لو وصلت الفوضى

إلى القصر الملكي وحينئذ ستأتون أيها الوزراء إلي تستغيثون بي....» ثم أراد أحد المناديب أن يتكلم فقاطعه بجمل منها «ليس الوقت وقت محاورة ولكن وقت إرسال تصريح يتضمن استنكار حزب الاستقلال ويشتمل على الجمل التي اقترحتها عليكم». خرجت الهيأة الوزارية من عنده آيسة من تعنته. وفي يوم 20 فبراير اجتمع الوزراء من جديد للبحث عما ينقذ الموقف فاقترح بعضهم إدخال جملة تستنكر حزبا بعينه وامتنع آخرون وأغلبهم من الرأي الأول فوقعوه إلا بعضهم وهو ملين الذي عارض شديد معارضة وعزم على تقديم استقالته ليفسح المجال لزملائه . ورفع التصريح إلى المستشار فوجدوه متصلبا وذكروا أن لا بد من إدخال الجمل المقترحة في التصريح وإلا فسيقع ما لا تحمد عقباه ولكن الهيأة الوزارية تصلبت في موقفها وأعلنت أنها لا تجاوز ما سمحت به وليكن ما يكون.

حصار شنيع

في هذه الأثناء كان الحصار يشتد وتضيق حلقاته على القصر السلطاني فبعد أن كان البوليس السري يحصي زيارات الزائرين وسياراتهم أخذ يوقف الداخلين إلى القصر ويردهم بل بلغت الوقاحة بالإقامة العامة أن جردت الحرس الأسود السلطاني من سلاحه المفكك البالي....

وفي يوم الأربعاء 21 فبراير 51 حضر إلى القصر السلطاني المعتمد بالإقامة العامة المسمى دوبليسون يعلن للسلطان أن جوان الغائب في أكادير لمقابلة وإلى إفريقية الغربية وإلى الجزائر قطع علائقه مع القصر السلطاني إذ لم تلق نصيحته آذانا صاغية. ما معنى قطع العلائق؟ هل هو عدم حمايته وأسرته أم أن غيره سيبايع ممن ينزل عند رغبة الإقامة العامة. وعلى أي فإن هذا ليس من وظيفة ممثل فرنسة. إن هذا من اختصاص الدولة المغربية والدولة

الفرنسية فقطع العلائق يكون بين دولتين لا بين سلطان ووزيره. وهذا هو التهافت والتجني والتلاعب.

خرج دوبليسون وصار السلطان غير مبغوت.بما جرى ولكن سؤالا كان يتردد طبعا في نفسه: هل فرنسة مطلعة على ما يجرى هنا أم لا؟ بعد اجتماع وزاري في يومه قرر السلطان إرسال برقية إلى الحكومة الفرنسية يستفهمها عما يجري في المغرب بين الإقامة والقصر ومفصلا فيها أطوار الأزمة.

لقد تأثرت الصحف الفرنسية بقطع العلائق فخبت في موضوعها وأوضعت على عادتها واجتمعت الوزارة الفرنسية للنظر في المسالة وكانت حاولت إرسال مفتش ليبحث هذه السلسلة من الاصطدامات فلم يسمح جوان بذلك لأن فيها إهانة لمارشال فرنسة ومن يعطيها تقريرا عن الحالة فجوان غائب في أكادير. وأيضا فمسألة إرسال بعثة من فرنسة تعطي المخزن فرصة يعرض فيها حججه التي تعرف الإقامة العامة سلفا قوتها ووجاهتها. وتألم المغاربة من عدم سماع الوزارة من الجانب المغربي بل اكتفت بالاتصال بدوبليسون الخصم الألد للمخزن وللمغرب وكان يجب أن تسمع من الخصم الآخر ولكنه الاستعمار يسلك السبل المخالفة للمنطق دائما. الأمر الذي يكبه في الأخير على أم رأسه. وإن كان في بداية الأمر يظهر أنه منتصر. لقد خشي أصحاب المصالح من افتضاح المؤامرة فامتطوا طائرات إلى باريز ليسدوا على أحرار الوزراء ما عسى أن يشيروا به من النظر في المسألة جديا فيخسرون ويفتضحون فهددوا وأوعدوا حتى استمع مجلس الوزراء إلى دوبليسون وحده.

وفي يوم 25 فبراير يوم النهاية

لم يكن السلطان ينام منذ بداية الأزمة وما حلق رأسه ولا وجهه تلك المدة فقد دخلت عليه صبيحة يوم فوجدته مستلحيا فأنكرته حتى خاطبني وبخطابه عرفته...... في صباح هذا اليوم رن جرس الهاتف في القصر فإذا المستشار يستأذن على دوبليسون العائد من باريز واليوم يوم عطلة فلم لا يؤخر زيارته إلى يوم الاثنين؟

لأنه يريد قضاء مهمة الاستعمار قبل ظهور الخلاف بين وزارة فرنسة الذي بلغ أشده وكان دوبليسون طلب مهلة يوم ليفض الخلاف مع القصر وإلا تدخلت وزارة فرنسة فما هي هذه الوسيلة لفض الخلاف؟ هي أنه في الوقت الذي طلب فيه المقابلة كانت جموع القبائل الأطلسية قد استدعيت إلى المدن الثلاثة الرباط وفاس ومكناس ليهددوا بهم السلطان كي يوقع على البروتوكول المشؤوم عليهم. ولو علمت تلك القبائل الغرض من استدعائها لما تحركت بل ربما بدأت بمحركيها لتوغل الوعي الوطني فيها.

دخل دوبليسون وسلم إلى السلطان كتابا من الحكومة الفرنسية كوسيلة للإقناع بأن ما يجري في المغرب هو باتفاق الحكومة الفرنسية وإلا فالأمر سيسوء وسيكون السلطان أول ضحاياه وان آخر مهلة هي الساعة السادسة عشية. ومن المعلوم أن هذه العجلة نتيجة كما قدمنا لانعقاد المجلس الوزاري الفرنسي يوم 26 فبراير أي غداة يوم الحادثة ليضع الحكومة أمام الأمر الواقع.

وأخيرا وبعد عدم النصير والخوف من الفتنة التي تأكل الأخضر واليابس وقع على البروتوكول.

خرج المستشار وبيده البروتوكول موقعا من السلطان وبمجرد التوقيع كانت القبائل تتراجع من ضواحي المدن التي جاءتها فكيف علمت هذه

القبائل بحل الأزمة ووقوع التفاهم وكيف علمت أن بواسطتها تم الأمر؟

وبمجرد التوقيع أعلنت الإقامة العامة عزل أربعة موظفين من المخزن وحلت ديوان السلطان وعينت موظفين آخرين ترضى عنهم مكان المعزولين كما أصحب البروتوكول بأربعة عشر ظهيرا كانت موضوع الأخذ والرد وحيث عجزت الإدارة عن إقناع السلطان ومخزنه بالحجة فقد عمدت إلى القوة والضغط لتصل إلى غايتها وخصوصا ظهير البلديات الذي ينص على مشاركة الأجانب فيها.

ذلك هو البروتوكول الذي تحدثت عنه الصحف والإذاعات ردحا من الزمن فماذا حصلت عليه الإقامة العامة من ورائه؟

1 ـ لقد خسرت قلوب جميع الذين كانوا يعطفون عليها وعلى فرنسة لأن المغربي مغربي قبل أن يكون صديقا للفرنسيين وخسرت قلوب الشعب بأجمعه لما علم المكيدة المدبرة وأصبحت الإقامة العامة في عزلة عن الشعب مع كمشة من الانتهازيين والوصوليين.

2 ـ ألقت القبض على اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال فلما لم تجد المحاكم حجة لإدانتهم أرسلتهم كما أبعدت أفرادا آخرين منهم.

فهل يعد هذا ربحا للإقامة العامة أمام ما خسرته من القلوب وأمام فقدان الود بين فرنسة والمغرب؟؟؟

3 ـ أغضبت العالم العربي والإسلامي اللذين هبا لنصرة سلطان المغرب وشعبه مستنكرين سياسة الإكراه المستعملة في التشريعات. الأمر الذي شد من ظهر الشعب المغربي إذ عرف أن له إخوة وأصدقاء يذودون عنه فلم يفت في عضده ما قامت به الإقامة العامة.

ولقد حاولت وكالات الأنباء خرق السياج الحديدي لتدخل إلى المغرب لتعلن للعالم الحقيقة فكانت الإقامة العامة تمنعها ولم تسمح إلا لواحد

ظنت أنه ابن مدرستها وأنه سوف يجاملها ويصرح بما لا يضرها وهو محمود عزمي المصري. فقد دخل إلى المغرب واحتفل به الفرنسيون ولم يقصروا واتصل بالسلطان وأفضى إليه بما وقع وبالحقائق ولما رجع أعلنها مدوية فنشر في الصحف والإذاعات خبرين جهما وجه فرنسة في العالم أجمع. الأولى أن السلطان صرح له أنه وقع تحت الضغط في هذه العبارات: «إن توقيعنا على بروتوكول 25 فبراير 51 كان نتيجة لعوامل متعددة. 1 ـ التهديد الذي وجه إلينا بواسطة وزير القصور المعمري من بعض شخصيات الإقامة العامة أثناء المخابرات التي كانت جارية بين القصر والإقامة العامة. 2 ـ حركة القبائل التي اتي بها من جهات متعددة دون أن نعلم الباعث الحقيقي لتحريكها فرابطت على أبواب فاس وسلا والرباط. 3 ـ اجتناب ما كان يتوقع من عواقب سيئة للعوامل الآنفة الذكر. اضطررنا مع هذه الأسباب جميعها إلى إرضاء مطالب الإقامة العامة. إن سبب الأزمة هو غير ما أشيع من أننا رفضنا بعض المشاريع القانونية المقترحة علينا قبولها إذ الأزمة في الواقع ترجع إلى الرغبة التي أعرب عنها مقيم فرنسا العام في أن يصدر منا استنكار لأساليب حزب الاستقلال وإلى عدم نزولنا عند هذه الرغبة وقدم المقيم العام هذه الرغبة قبل سفره إلى أمريكة في لهجة لا تخلو من تهديد.

أما مشاريع الظهائر المقترح إمضاؤها فإننا لا نرفضها ولن نشير بتعديلها إلا بعد أن تدرسها لجان قصرنا الشريف وتبدي نظرها فيها مستندة إلى الأوفاق والمعاهدات وسائر فروع القانون.

إن رغبتنا شديدة في تقدم البلاد ورقيها رقيا ديموقراطيا وجميع أعمالنا ومساعينا تهدف إلى إحلال بلادنا العربية المسلمة بالمكان اللائق بماضيها المجيد.

وأملنا عظيم أن تنظر حكومة الجمهورية الفرنسية اعتمادا على ما بين

الدولتين من روابط صداقة إلى مطامح شعبنا بما يليق بها من العناية».

وبمجرد صدور هذا البلاغ في جريدة المصري وتناقلته الصحف والإذاعات سقط ما بيد فرنسة وساءت سمعتها. الأمر الذي حملها على عزل جوان من إقامته بالمغرب وعوضته بغيره كما سيأتي.

والخبر الثاني ألقاه محمود عزمي من عنده حسبما اطلع عليه لما زار المغرب فقد سأله أحد الصحافيين عن انطباعاته في المغرب فأجاب بأن المغرب أمة بدون قانون.

فكانت هذه كسابقتها على حماية فرنسة في المغرب إذ كيف يعقل أن تعيش الحماية بالمغرب نحو نصف قرن بدون أن تضع للشعب الذي تحكمه قانونا ولو صوريا. الأمر الذي يدل على إهمال البلاد وأهلها والسير وراء مصلحة الجالية الفرنسية وحدها.

تنبيه مهم: حوادث هذه الأزمة مصدرها نضال ملك لملين مع تصرف وزيادات لم تبلغه واختصار لما لا يلائم كتابي هذا من التطويل والتكرير الممل.

انتقاد الموافق والمخالف: عبد الحي الكتاني

بعد نشر كلمة في جريدة الطيب العقبي بالجزائر بتاريخ 22 قعدة 1366 الموافق 7 اكتوبر 1947 بعنوان «لقد اسمعت لو ناديت حيا» بنحو ثلاثة أيام كان السلطان بإفران فساقتني الأقدار إلى زيارته فلما وقفت بباب القصر سمعت قارئا يقرأها، سمعته من نافذة فوق الباب وانتظرت الإذن فطال علي وطالت قراءة القارئ الذي كان يقاطعه من معه منصتا بأسئلة حول الكلمة فلما طال انتظاري خرج من باب القصرالقارئ نفسه فلما رآني هش

وبش وقال: «لا تعجب من طول انتظارك فإن كلمتك هي التي أطالت انتظارك. إن سيدنا كان ينصت إليها وأخذت منه كل مأخذ والآن تفضل فقد أذن لك» ثم مثلت بين يديه وقضيت الوطر من أمري معه ورجعت إلى فاس. وبعد يومين دخل علي أحد المقربين من عبد الحي الكتاني وكان له أولاد يتعلمون في مدرستي. جلس كعادته وكنت أظن أنه سيفاتحني في شأن أولاده كعادته بيد أنه جاء رسولا من عبد الحي المذكور. قال: لقد جئتك من عند الشيخ رسولا فقلت: هات ما عندك فشرع يقول: إن الشيخ متأسف مما تكتبه حوله غير أنك لا تذكر اسمه وهو يقول لك: هل بينك وبينه عداوة شخصية؟ فهل أسدى إليك يوما مكروها؟ إنك تندد به في الصحف الداخلية والخارجية. ولما أفرغ جعبته قلت له «أما انه لم يسد إلي مكروها يخصني فاللهم لا ولكنه أسدى إلى الوطن مكروها عاما شاملا نالني منه بقدر شعوري وإحساسي ما لا تقوم به الجبال. وأما كوني أنشر ضده تنديدا به في الصحف الداخلية والخارجية فاللهم نعم وذلك ما أقدر عليه الآن ولو قدرت على الانتقال من شباة القلم إلى شباة السنان لفعلت وسيأتي لذلك زمن وأما اني لا أذكر اسمه فذلك لأني أنزه قلمي عن ذكر اسمه لأن اسمه ربما نشر الظلمة على كلمتي فتصبح ألفاظا بدون معان». سمع مني هذا فوجم ثم نبهته وقلت له «كما كنت رسوله إلي فكن رسولي إليه. ألا تقدر؟» قال «بلى أقدر. هات ما عندك» قلت له «لقد سمعت جوابي لك فبلغه إياه ثم زده ما يلي «أناشدك الله هل مثلك يطعن في وطنية المغرب من الخلف؟ أناشدك الله هل مثلك يتخلف عن الصف الأول في الحفل الوطني؟ أناشدك الله هل الوطن غني عن عملك ونصرتك وهل وجودك في الصف الوطني يقدم القضية الوطنية أم لا؟

ذهب وغاب عني نحو الشهر ثم رجع إلي يوما فلما استقر به الجلوس

وكنت نسيت رسالته فذكرني وقال «لقد بلغت رسالتك إلى الشيخ فلما أتممت وجم وجوما طويلا وأطبق حاجبيه على عينيه كأنه نام وانتظرته حتى مللت الجلوس وأخيرا تحرك وقال «يا فلان والله إن جوابه ورسالته أشد علي مما كتبه ووالله لو علمت أن جوابه سيكون مثل هذا ما بعثتك إليه. اسمع يا فلان والله إني لأعلم أن الفرنسيين إنما يخوفون ابن يوسف بي ويقضون مآربهم بي وأنا أيضا أعلم أن صف الوطنية أولى وأوجب ولكني أخاف ابن يوسف فأنا أتمسك بأعدائه استجارة بهم ولقد حاولت الصلح معه مرارا فيفسد هؤلاء الوطنيون بيني وبينه فتنقطع الصلة» فلما انتهى قلت له «لم يقل شيئا فليته إذا تصالح مع السلطان يتصالح كذلك مع الوطنيين فيجمع بذلك بين المصلحتين وهل تظن الوطنيين يرفضون يده إذا مدها اليهم؟ ما أظن ذلك. إنه يريد أن يتصالح مع السلطان مع بقاء تشبثه بالمستعمرين. هذا شيء لا يمكن لأن السلطان ويد المستعمرين على طرفي نقيض. لقد ذر الرماد في عينيك وكفى».

بعد ذلك بأيام دخلت على شيخنا ابن العربي العلوي فوجدت جريدة الإصلاح في مجلسه فقال «لم حشرت المتعلمين في المدارس الفرنسية في كلمتك هذه ولم جعلتهم مع الطرقيين في قرن واحد؟» فقلت له «ألم يجنوا على العربية والأخلاق كما جنى الطرقيون على الدين؟ أليس عملهم من أجل التراث واحدا؟ ألسنا إذا حاربنا الطرقيين وحدهم أفضت بنا هذه السلفية إلى الإلحاد؟ أليس هؤلاء المتعلمون أضر على الدين من الطرقيين لأن الطرقية إذا أصلحت وعدلت أصبحت إسلاما صحيحا؟ أما مذهب اللائكية فمعناه أن لا دين مطلقا ثم إن إعانتهم التي يعينوننا اليوم على الطرقيين إنما هي كقصة الثيران الثلاثة مع الأسد فلا تغتر أيها الشيخ بما يسدون من إعانة وإن غدا لكاشف سرائرهم. فلما طال بنا اللجاج رجع بي إلى لفظة لائكي وصار

ينتقد معناها في كلمتي ورجع بي إلى أصلها الوضعي عند أصحابها فقلت له «أنا لا يعنيني وضعها بقدر ما يعنيني ما تدل عليه اليوم بين الناس فإن الناس اليوم يطلقونها على كل من تحلل من المسؤوليات الدينية والأخلاقية وكم من كلمة في العربية وضعت لمعنى فتوسع الناس فيها حتى شملت معاني لم تكن في خلد واضع الكلمة لأن الوضع الأول لا ينافي الوضع الثاني وكم لهذا من مثال قاله العضد الايجي وغيره. هنا سكت مغضبا وكان من عادته أنه لا يقدر أن يصبر على المعارضة فخرجت من عنده بدون وداع.

انتهى الجزء الأول

إليك أيها القارئ لونا من التاريخ لا كالتواريخ التي عهدتها ولا كالأخبار التي ألفتها وإنما هو صورة من حياة شعب متجسم في حياة فرد عاشر شعبه ومارس أحوال العصر ما استطاع من عمل وانتفع من شعبه بما وصل إليه ونفع شعبه بما توصل به ونضج التفاعل الذي هو طبيعي بين الفرد والجماعة فكان من تفاعلهما ذلك الصراع العظيم بين الحق والباطل وبين الظلم والانتصاف وبين الحرية والعبودية وبين الخائنين والمخلصين...

50 د